تجارة مصر في البحر الأحمر

منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية

دكتور عطية القوصي

مدرس التاريخ الاسلامي

بكلية الآداب بجامعة القاهرة (فرع الخرطوم)

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

مقدمـــــة

كانت تجارة الشرق تمر عبر الطرق التجارية الثلاثة المعروفة منذ القدم ، وهى الطريق البرى الذى يمر عبر أواسط آسيا حتى بحر آزوف، وطريق الخليج العربى ، وطريق البحر الأحمر • وكان طريق البحر الاحمر أهم هــذه الطرق لانه كان يقلل الى أدنى حد ممكن المصـــاعب والنفقات الطائلة التى يسببها النقل البرى •

وقد عملت الدول التى تعاقبت على حكم مصر طوال عصورها المختلفة على أحكـــام سيطرتها على مدخل هذا البحر • ولما قامت الدولة الاسلامية أدركت ضرورة السيطرة على هذا البحـــر • فقـــامت الدول التى تتابعت على حكمها بالعمل على أحكام سيطرتها عليه • ولقد اهتم الخلفاء الراشدون بالبحر الأحمر على أساس أنه الطريق الحيوى الوحيد الذى كان يوصل غلات مصر الى مكة والمدينة • واهتمت الخلافة الأموية بالسيطرة على هذا البحر على أساس أنه الطريق الذى يصل مصر والشام بالشرق • أما العباسيون ، فقد عملوا على الحدمن تجارة البحر الأحمر ، رغبة منهم فى تحويل تجارة الشرق الى طريق الخليج العربى لتصبح بغداد مركز تجارة العالم • وقد نجح العباسيون ، الى حد ما ، فى تحقيق ذلك الامر فى عصرهم الاول •

ولما حصلت مصر على استقلالها الذاتى من الخلافة العباسية زمن الطولونيين والاخشيديين عمل أولئك الحكام على عودة النشاط الى طريق البحر الاحمر وأحياء تجارته ، وساعــدهم على ذلك ضعف الخـــلافة العباسية وثورات الزنج والقرامطة • وتطلعت مصر فى عهــدهم الى السيادة على الحجاز لتحكم سيطرتها على البحر الاحمر •

ولما قامت الخلافة الفاطمية فى مصر ادرك الفاطميون أهمية تجارة البحر الاحمر • وكان لزاما عليهم أن يحكموا سيطرتهم على هذا البحر حتى يتمكنوا من فرض سيادتهم على بلاد الحجاز واليمن ، ومن أجلذلك

ذلك دخلوا فى صراع مع العباسيين ومع اشراف مكة وحكام اليمن • كما أدت السياسة الاقتصادية الرشيدة التى انتهجها الفاطميون مع التجار الاوروبيين الى تسابق هؤلاء التجار الى أسواق مصر وازدياد الرغبة فى شراء سلع الشرق التى كانت ترد اليها عن طريق البحر الاحمر • وقد شهد العصر الفاطمى قيام نشاط التجار الكارمية الذين تركزت فى أيديهم تجارة الشرق الاقصى المارة بالبحر الاحمر والبلاد المطلة عليه • وقد اتخذ هؤلاء التجار مدينة عدن مركزا لنشاطهم فى ذلك العصر •

وقد سار الايوبيون على نفس سياسة الفاطميين فى فرض سيادتهم على البحر الاحمر حين تعرضت بلاد الحجاز والبحر الاحمر للخطر الصليبى ، وبذل الايوبيون قصارى جهدهم من أجل ابعاد هذا الخطر عن تجارة الشرق وطريق الحج الى الاراضى المقدسة • وقد أزداد فى عهد الايوبيين نشاط التجار الكارمية الذين نقلوا مركزهم فى هذا العهد الى مصر • كذلك شهد هذا العهد أزدياد نشاط التجار الاوروبيين ، ولا سيما الايطاليين ، بسبب سياسة التسامح التى اتبعها الأيوبيون ازائهم •

ولما كانت تجارة مصر فى البحر الاحمر زمن سلاطين المماليك موضوعا لدراسات جامعية سابقة فان هذا البحث يتوقف عند نهاية الدولة الايوبية •

هذا ولقد دعا اهتمام المسلمين فى مصر الاسلامية تجارا وحكاما بالتجارة الى أن يقيموا الاسواق فى المدن التجارية الهامة مثل الفسطاط والقاهرة والاسكندرية وأن يقيموا بها المنشآت التى تخدم الحركة التجارية كالقياسر والوكالات والفنادق •

وأدى نشاط الحركة التجارية عبر مصر على هذا النحو طوال هذه الفترة الزمنية الى تطور النظم المالية وخاصة المتصلة بالعمليات التجارية

كالمكوس والزكاة والجزية التى تجبى من التجار غير المسلمين والتجار المسلمين . الامر الذى يجعلنا نهتم بابراز هذا الجانب فى دراستنا •

وقد قمت فى بحثى هذا بدراسة تجارة البحر الاحمر فى هذه الفترة التى تمتد حتى منتصف القرن السابع الهجرى وقسمته الى خمسة أبواب على النحو التالى :

الباب الاول : وفيه تحدثت عن تجارة البحر الاحمر منذ القدم حتى بداية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) • فتعرضت أولا لدراسة جغرافية هذا البحر وما أورده الجغرافيون المسلمون عنه وعن مخاطره • وعرضت أيضا للاهمية التجارية لهذا البحر فى التاريخ القديم وامتداد هذه الاهمية الى ما بعد الفتح العربى لمصر ، كما أبرزت أهمية خليج أمير المؤمنين فى هذه الفترة • كذلك تناولت بالحديث حالة تجارة هذا البحر فى صدر الاسلام وحتى بداية القرن الثانى الهجرى • وتطلب منى الامر أن أبرز دور مينائى الفرما والاسكندرية فى التجارة العالمية فى ذلك الوقت ، وحالة مدينتى القلزم والفسطاط اللتين أزدهرتا بسبب تجارة البحر الاحمر آنذاك • ولم يفوتنى فى هذا الباب التحدث عن دور التجار اليهود الاوروبيين (الرازانية) ومدى نشاطهم فى تجارة البحر الاحمر فى هذه الحقبة من الزمن •

والباب الثانى : جعلته بعنوان تجارة البحر الاحمر زمن الطولونيين والاخشيديين ، وبدأت الحديث فيه عن تدهور أحوال التجارة فى البحر الاحمر وازدهارها فى الخليج العربى فى العصر العباسى الاول • وبينت كيف ازدهرت ، نتيجة لذلك • موانى الخليج العربى الكبرى ، سيراف والابله والبصرة على يد البحارة والتجار الفرس والعرب ، الامر الذى تردد صداه فى كتب الرحالة والبحارة والتجار المعاصرين • غير أنه لم يلبث أن عاد النشاط لتجارة البحر الاحمر فى العصر العباسى الثانى نتيجة اضطراب الاحوال فى الدولة العباسية بسبب ثورتى الزنج

والقرامطة ، ولذلك تحدثت فى ايجاز عن هاتين الثورتين وبينت أثرهمـا بالنسبة لتجارة الخليج العربى .

ولما استقل الطولونيون بحكم مصر استقلالا ذاتيا اهتموا بدعم موارد البلاد الاقتصادية فاهتموا بالتجارة وخاصة فى البحر الاحمر ، كما تطلعوا الى السيادة على الحجاز .

وتابع الاخشيديون جهود الطولونيين فى الاهتمام بتجارة البحر الاحمر وخاصة حين ضم الحجاز الى الاخشيد وصارت تقام له الخطبة مع الخليفة العباسى على منابر مكة والمدينة .

أما الباب الثالث : فجعلته بعنوان « الفاطميون وتجارة البحـر الاحمر » وفيه أوضحت كيف استعاد البحر الاحمر أهميته التجـارية الرئيسية كطريق عالمى بين الشرق والغرب ، وكيف استفاد الفاطميون من هذا التحول فى تجارة هذا البحر فازدهرت أيامهم موانيه وخاصـة ميناء عيذاب . كذلك أوضحت قيام نشاط التجار الكارمية فى عهد دولة الفاطميين .

وفى هذا الباب عالجت أيضا موضوع تطلع الفاطميين الى السيادة على الحجاز واليمن ، وأوضحت صدى هذه السياسة بالنسبة لازدهار تجارة البحر الاحمر فى هذه الفترة ثم تحدثت عن السياسة الاقتصادية الحكيمة التى انتهجها الفاطميون مع التجار الاوروبيين وما ترتب على ذلك من تسابق هؤلاء التجار الى أسواق مصر للاتجار فى حاصـلات الشرق الواردة عن طريق البحر الاحمر الامر الذى أدى الى دخـول الحركة التجارية بين مصر وأوروبا فى دور جديد .

أما الباب الرابع : فهو بعنوان « الايوبيون وتجارة البحر الاحمر » وفى بدايته تحدثت عن سياسة الايوبيين الحكيمة ازاء تجار الفرنج وأثرها فى فك الحصار الاقتصادى من حول مصر ، كذلك بينت أثر هذه السياسة فى جذب التجار الاوروبيين الى اسواق مصر بعد ان كانوا قد تحولوا

الى اسواق الشام . كما أظهرت فى هذا الباب موقف صلاح الدين من الخطر السليبى فى البحر الاحمر ومدى مقاومته لهذا الخطر على تجارة البحر الاحمر . كذلك استتبع الامر الحديث عن سياسة الايوبيين تجاه بلاد الحجاز واليمن ونتائج هذه السياسة بالنسبة لتجارة البحر الاحمر . وركزت فى آخر هذا الباب على نشاط التجار الكارمية بعد أن نقلوا مركز نشاطهم الى مصر زمن الايوبيين واتساع نطاق تجارتهم عبر البحر الاحمر ، ثم ابرزت الدور الهام لهذه الطائفة فى اقتصاد مصر فى ذلك العهد .

أما الباب الخامس والاخير فقد جعلته بعنوان « المنشآت التجارية والنظم المالية » والحقيقة ونحن بصدد الحديث عن تجارة البحر الاحمر لا نستطيع أن نغفل جانب النظم فى هذه الدراسة ، ولهذا خصصت لها هذا الباب وتحدثت فيه عن الاسواق التجارية فى الفسطاط والقاهرة والاسكندرية وعن حاصلات وسلع الشرق التى ترد الى هذه الاسواق . كذلك اوردت بعض اسعار هذه الحاصلات وهذه السلع وبعض الاجور التى كانت متداولة فى هذه الاسواق من واقع الدراسات المتصلة بوثائق الجنيزة التى افدت منها كثيرا فى دراستى هذه .

ثم تحدثت عن القياسر والوكالات والخانات والفنادق ودور هذه المنشآت ونوع العملة المتداولة فيها من واقع وثائق الجنيزة . أما عن النظم المالية فقد تحدثت عن المكوس والزكاة والجزية التى كانت تجبى من التجار غير المسلمين ومن التجار المسلمين بالقدر الذى سمحت لى به المصادر والمراجع التى رجعت اليها فى بحثى هذا .

وارجو ان اكون قد وفقت فى اتمام بحثى هذا على اكمل وجه ، وبذلك أكون قد اكملت الفترة الناقصة من هذه الدراسة التى اختصت بتاريخ تجارة البحر الاحمر عبر العصور المختلفة .

وانى اتوجه بخالص الشكر والعرفان لكل من قــدم لى عونا فى اخراج هذا العمل على صورته الحالية واخص بالشكر استاذى الفاضل الدكتور احمد دراج استاذ التاريخ الاسلامى ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة .

والله ولى التوفيق .

الدكتور عطية القوصى

القاهرة ١٩٧٦

الباب الاول

ـ تجارة مصر فى البحر الاحمر حتى بداية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى)

ـ الموقع الجغرافى للبحر الاحمر ومصاعب الملاحة فيه •

ـ الاهمية العالمية لتجارة البحر الاحمر •

ـ تجارة البحر الاحمر من الفتح العربى حتى بداية القرن الثانى الهجرى •

ـ تجار اليهود الرازانية وتجارة البحر الاحمر •

ـ دور مينائى الفرما والاسكندرية فى التجارة العالمية •

ـ ازدهار القلزم والفسطاط •

— الموقع الجغرافى للبحر الاحمر ومصاعب الملاحة فيه

يحتل البحر الاحمر الشقة المائية الضيقة التى تفصل بين آسيا وأفريقية ، ويقع فى أخدود ممتد من جنوبى سوريه الى تنجانيقا • ويمتد مسافة طولها ١٥٠٠ ميل (١) ، ويتراوح عرضه بين ١٩٠ ميل عند مصوع و ١٤ ميلا فى منطقة باب المندب ، ويصل عمقه فى بعض المواضع أكثر من ٦٠٠٠ قدم ، وأعمق مناطقه الممتدة ما بين خطى ٢٠° ، ٢٦° شمالا وتبلغ ٨٥٢٠ قدم (٢) • وهذا البحر لا تصب فيه أية أنهار (٣) •

أما عن تسمية هذا البحر بالبحر الاحمر فليس الامر كما يتطرق الى الذهن من أن مياهه حمراء اللون ، وانما هى اختصار لاسمه القديم ، فقد كان يسمى قديما اسم « بحر الملك الاحمر » ، ثم أختصر اسمه الى البحر الاحمر • فيذكر المؤرخ اليونانى القديم « أجاثاركيدس » (Agatharchides) أن لفظه « ارتريان » (Erythrean) التى تطلق على هذا البحر ، معناها فى اللغة الفارسية بحر الملك الاحمر ، وقد ورد ذلك فى أسطورة فارسية تنسب هذا البحر الى ملك فارسى يدعى « الاحمر » وذلك أيام امبراطورية ميديا (٤) •

هذا ولم يكن المؤرخون والجغرافيون المسلمون يطلقون على هذا البحر هذه التسمية ، وانما أطلقوا عليه تسميات أخرى مختلفة •

فقد أطلق عليه الهمدانى البحر الكبير ، وذكر انه يمتد من القلزم

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ • ج ١ ، ص ١٦ •

(٢) Rushbrooke E: Western Arabia and the Red Sea, Oxford 1946, pp. 59-60.

(٣) صلاح الدين الشامى : التوجيه البحرى للسودان واثره فى طرق التجارة والمواصلات ، رسالة دكتوراه ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٤ •

(٤) Schoff: The Periplus of the Erytraean Sea, London, 1912, p. 50.

حتى الديبل والملتان فى الهند (١) ؛ وأطلق عليه فى موضع آخر من كتابه اسم بحر الفرما (٢) • وأطلق عليه الاصطخرى اسم بحر فارس ؛ وذكر أنه يمتد من القلزم الى ما يحازى بطن اليمن(٣)•ووافقه على تلك التسمية المقدسى وذكر أن سببها هو أن أكثر صناع المراكب وملاحيها فيه كانوا فرسا(٤)•أما المسعودى فأسماه البحر الحبشى ؛ بينما(٥)،بينما اتفق كل من ابن حوقل وناصرى خسرو والادريسى والقلقشندى على تسميته ببحر القلزم ؛ وذلك نسبة الى مدينة القلزم التى تقع على طرفه الشمالى (٦) •

ويقع فى البحر الاحمر مد وجزر يتغير من منطقة الى أخرى ؛ فهو يصل الى حوالى سبعة اقدام عند السويس بينما يصل الى قدمين جنوبى خليج السويس ؛ وهذا المد والجزر غير منتظم فى مناطق كثيرة فى هذا البحر • وهنالك أيضا تغير فى منسوب الماء يبلغ حوالى قدمين أو ثلاثة أقدام اذ تهب عليه عند طرفه الشمالى فى الفترة ما بين شهرى ديسمبر ومارس رياح جنوبية قوية ترفع من منسوب المياه ؛ بينما تهب فى الفترة ما بين شهرى يوليو وسبتمبر رياح تجعل منسوب المياه أقل من مستوى الشتاء بثلاثة أقدام تقريبا (٧) •

وتهب على البحر الاحمر رياح موسمية دائمة تكون شمالية شرقية

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٦٤ •

(٢) البلدان : طبعة ليدن ١٣٠٢ هـ ، ص ٧ •

(٣) المسالك والممالك : القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٩ •

(٤) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم : ليدن ١٩٠٦ ، جـ ١ ، ص ١٨•

(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر : تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ ، جـ ١ ، ص ١٠٩ •

(٦) ابن حوقل : صورة الارض ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ٤٤ •
ــ ناصرى خسرو : سفرنامه ، تحقيق يحيى الخساب ، القاهرة ١٩٤٥ ص ٤٥ •
ــ الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، طبعة بولاق (بدون تاريخ) ، ص ٥ •
ــ القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٥ ، جـ ٣ ص ٢٤١•

(٧) — Rushbrooke: Western Arabia, p. 61.

فى فصل الصيف وتتجه الى الجنوب الغربى ، وفى فصل الشتاء تهب من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى (١) • وكانت الملاحة فى البحر الاحمر تعتمد فى الجزء الجنوبى منه طوال فصل الصيف على هذه الرياح التى تدفع السفن الى باب المندب ، ومن هناك تدفعها الرياح الموسمية الغربية الى الهند (٢) • وأما العودة الى السويس فتكون فى فصل الشتاء فى الفترة ما بين شهرى ديسمبر وفبراير (٣) • وهكذا نجد نظام هبوب الرياح فى هذا البحر يجعل الملاحة من الشمال الى الجنوب فقط فى فصل الصيف ، ومن الجنوب الى الشمال فى فصل الشتاء (٤) • وقد علمت هذه الاحوال البحارة والتجار والمسافرين من البحر المتوسط الى الشرق عبر البحر الاحمر أن أحسن شهور السنة للابحار فيه هو شهرى أبريل ويونيو ، وأحسن وقت للعودة منه هو شهرى يناير وفبراير (٥) • وذكر ابن ماجد أن خير أوقات الخروج من باب المندب وعدن هو أول شهر مايو من كل عام (٦) • وربط الجغرافيون من البحارة المسلمين مواعيد السفر فى هذا البحر بمواسم الرياح ، فقد أورد ناصرى خسرو « انه مكث فى عيذاب ثلاثة أشهر بسبب عدم اقلاع السفينة ، انتظارا لهبوب الرياح الجنوبية (٧) ، » وذكر المسعودى أن التجار والبحارة المسلمين كانوا على دراية بطبيعة هذا البحر وكانت لهم فيه تجارب كثيرة ودلائل وعلامات يرثها الابن عن ابيه قولا وعملا (٨) •

---

(١) Reinaud : Relation des Voyages, Paris 1845, T.I., p. 29. —

(٢) Kammerer : La Mer Rouge à travers les Ages, Paris 1925, p. 16. —

(٣) Clerget : Le Caire, Le Caire 1934, T. II, p. 192. —

(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، تعريب محمد عبد الهادى ابو ريده ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ٣٦٨ .

(٥) Attiya : Crusade, Commerce and Culture, London 1962, p. 176. —

(٦) النوايد فى اصل البحر والقواعد : مخطوطة بالمكتبة الاهلية باريس رقم ٢٢٩٢ ، ورقة ١٧ .

(٧) سفر نامة : ص ٧٣ .

(٨) مروج الذهب : ج ١ ، ص ١١٢ .

وكانت للبحر الاحمر سمعة سيئة عند ملاحى العصور الوسطى نظرا للمخاطر التى كانت تكتنفه والتى كانت تعترض الملاحة عبره حتى أن الملاحين العرب الشجعان لم يكونوا يخافون من المحيط الهندى قدر خوفهم من البحر الاحمر (١) • وتتمثل هذه المخاطر فى الشعاب المرجانية الكثيرة التى تملأ ســواحله والصخور الناتئة المتعــددة التى تنتشر فى أنحائه ، كذلك لوجود دوامات مخيفة فى أماكن متفرقة منه ، فضلا عن العواصف التى تهب عليه (٢) • وكانت أشد مناطقه خطورة تلك التى تمتد ستة أميال عند مدخل خليجى السويس والعقبة والمعروفة باسم « تاران » (٣) ، وذلك بسبب التقاء الرياح التى تهب من ناحية الخليجين فيها (٤) •

ولم تكن المخاطر فى ذلك البحر مخاطر طبيعية فحسب بل كانت هناك مخاطر تتهدد التجار والمسافرين من جانب المتجرمة الذين ملأوا هذا البحر طوال تاريخ العصور الوسطى (٥) • وكان التجرم فى البحر شائعا فى تلك العصور • وكان سلاحا بالنسبة للحكام المسلمين والمسيحيين على حد سواء يستخدمونه ضد الاعداء ، فكانوا يشجعون المتجــرمة ويعطونهم رواتب وامتيازات خاصـــة اذا ما عملوا لحسابهم • فكان هؤلاء المتجرمة يهددون حرية المسافر ويبيعونه فى أسواق الرقيق فيفقد حريته كما يفقد بضاعته والبضاعة المؤتمن عليها وكل متعلقاته فضلا عن

---

(١) Clerget : Le Caire, T. II, p. 192. —

(٢) الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ٥٧ •

(٣) ابن حوقل : صورة الارض ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ٤٦ •
المسالك والممالك ، ليدن ١٨٧٣ ، ص ٣٧ •
ويضيف ابن حوقل أن هذا المكان هو الذى ، غرق فيه فرعون مصر وايده فى ذلك الاصطخرى فى كتابه : المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٩ •

(٤) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهــــد الفاطميين : القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٨٧ •

(٥) Clerget : Le Caire, T. I, p. 191. —

تعرضه للضرب والتعذيب (١) • هذا وقد حكت لنا كتب الجغرافيين والمؤرخين المسلمين حكايات كثيرة عن الكوارث والخسائر التى حلت بالسفن والمسافرين عبر هذا البحر • كذلك تردد صدى هذه الكوارث فى الخطابات المتبادلة بين التجار وأهاليهم خلال رحلاتهم الى بلاد الهند ، وهى الخطابات التى عثر عليها فى جنيزة القاهرة (٢) • ولقد أورد

---

(١) كان المقبوض عليه على يد المتجرمة مسلما كان او مسيحيا أو يهوديا يباع بسعر ٣٣⅓ دينار للرجل . ورد ذلك فى وثائق الجنيزة ، وورد أيضا أن المراة كانت تباع بأربعة وعشرين دينارا . اما الشخصيات الكبيرة وابناء العائلات فكانوا موضع مساومة . وكانوا يعتقون مقابل ديات متفاوتة تراوحت ما بين ٤٠ ومائة قطعة ذهب .

(٢) وثائق الجنيزة هى وثائق خطية كثيرة وجدت فى مصر القديمة وعرفت لعلماء الغرب فى القرن التاسع عشر ووزعت على مكتبات اوروبا وامريكا . وكانت هذه الوثائق محفوظة ، قبل اكتشافها ، فى حجرة خصصت للاوراق المهملة فى معبد الفسطاط اليهودى ووجد بعض آخر من هذه الوثائق فى جبانة البساتين القريبة من المعبد واطلق على المجموعتين اسم وثائق جنيزة القاهرة . معظم هذه الوثائق يرجع تاريخها الى الفترة ما بين القرنين الرابع والسابع الهجريين وقليل منها يرجع الى فترة متقدمة من القرن الرابع الهجرى ، وبسبب استخدام هذه الجنيزة حتى بعد خراب الفسطاط وجدت بها بعض وثائق يرجع تاريخها الى القرن الثامن الهجرى . ويقدر عدد الاوراق التى كانت فى هذه الجنيزة بما يزيد عن الربع مليون ورقة معظمها قطع من كتب عبرية . وقد كتبت غالبية هذه الاوراق باللغة العربية بالحروف العبرية ، وهى تعكس لنا الحالة الاجتماعية والاقتصادية لبلدان البحر المتوسط والشرق فى تلك الفترة ، وبذلك تسد لنا ثغرة هامة لم تسدها كتب التاريخ التى اقتصرت على الاحداث السياسية والعسكرية وحياة الحكام . وقد نشر بعض هذه الوثائق ، ولكن بعضها الآخر لم ينشر ، واهم ما بقى منها دون نشر حتى الآن مجموعتان كبيرتان : المجموعة الاولى خاصة بـ (M. Michael) وهى تتعلق بزجل الاعمال اليهودى والعالم المعروف فى القرن الخامس الهجرى باسم نحرى بن نسيم . الذى قضى معظم حياته ما بين مصر وفلسطين ، وهذه المجموعة تحتوى على ٢٥٠ وثيقة . والمجموعة الثانية وهى مجموعة الاستاذ جوايتين ، المسماة بكتاب الهند وسنتحدث عنها بالتفصيل فى بداية الباب الثالث لاهميتها بالنسبة لهذا الباب اذ تختص بالحديث عن تجارة الهند فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .

هذا وتحوى وثائق الجنيزة على الآتى : وثائق قانونية ، محاضر جلسات عقود بيع ، قروض ، اتفاقات شركان ، مخالصات ، عقود زواج وثائق =

القيسى (١) (ت فى أواخر القرن الخامس الهجرى) انه أجتمع بأبى العباس الحجازى(٢) ، — وكان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة وكان الناس يتحدثون عنه بالعجائب ، وذكر أنه ذهب له فى جملـة من أمواله فى بحر الصين والهند الى بحر القلزم عشرة سفن ولم تنج لـه سوى سفينة صغيرة • وورد فى وثائق الجنيزة أن أصعب الاخطار التى كانت تتعرض لها السفن فى البحر الاحمر وفى المحيط الهندى كانت لحظة دخولها الميناء وخروجها منه ، فكانت تتعرض للاصطدام بالشاطىء وقد تنفلق نصفين ويغرق معظم ما بها • وورد أيضا بهذه الوثائق أن الملاحين كانوا يبذلون قصارى جهدهم للعودة بالسفن سالمة وكثيرا ما نقرأ فيها عبارة •••«ولقد عادت كل السفن سالمة برغم تعرض البعض للاخطار (٣)» وكان سوء الحظ فى بعض الاحيان يلعب دوره فتحدث كوارث للسفن وهى على بعد مسافات قصيرة من الميناء ولذلك كانت توضـع فى السـفينة المصاحف والاحجبة تبركا بها وللمحافظة عليها ، وكانت تكتب على جدران السفينة بعض العبارات تيمنا بها مثل « بسم الله مجريها ومرساها » (٤)• وكانت عملية الابحار والاقلاع تخضـع فى أحيان كثيرة للاستخـارة ، فالاستخارة عند المسلمين واليهود كانت تتوقف على نتيجتها رحـلات كثيرة (٥) •

= طلاق خاصة ، قوائم كتب تعاويذ سحرية ، واجزاء من كتب عربيـة وعبرية .. هذا وقد أورد جواتيين قائمة بمجموعات وثائق الجنيزة واسماء أصحابها واماكن وجودها ، وقام بدراسات كبيرة على هذه الوثائق سنتعرض لجزء منها فى الباب الثالث ، ووضع جواتيين مفتاحا لوثائق الجنيزة فى كتابه : A tentative bibliography of Geniza Documents, Paris 1964.

(١) تحفة الالباب ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ٢١٦٧ ، ورقة ٧٢ ب .

(٢) اهدى ابو العباس هذا الى الافضل بن بدر الجمالى ، من انواع ذخائر الصين ما لا يعرفه له قيمة (تحفة الالباب ، ورقة ٧٣ أ) .

(٣) — Goitein : A mediterranean Society, Leiden 1966, p. 321.

(٤) — Goitein : Op. Cit., p. 324.

(٥) — Ibid, p. 346.

وكانت الملاحة فى هذا البحر تتطلب سفنا من نوع خاص • فكانت سفن المحيط الهندى لا تستطيع سلوكه بسبب صعوبته وكثرة جباله الناتئة فيه وخراب سواحله [١] • وكانت هذه السفن الخاصة بالبحر الاحمر تسمى « الجلاب » وقد أمدنا الرحالة العربى ابن جبير بمعلومات طيبة عن كيفية صنع هذه الجلاب فى كتاب رحلته الشهيرة [٢] ، وذكر أنه لم تكن المركب المسمارى تسير فى هذا البحر ، وأيده فى قوله المؤرخ المقريزى [٣] • ويعلل المسعودى عدم استعمال المسامير فى بناء هذه السفن بالخوف من أن تأكلها مياه البحر [٤] • وقال آخرون أن السبب فى ذلك هو خوف الملاحين من أن تتأثر هذه المسامير بجذب جبال المغنطيس لها [٥] • هذا وكانت مراكب البحر الابيض أكبر من مراكب بحر القلزم • ولم تكن السفن ذات الدفتين موجودة فى غير البحر الابيض ؛ أما التى كانت تجرى فى البحر الاحمر فلم يكن فيها أكثر من طبقة واحدة ، وكانت فى معظم الاحيان ذات شراع واحد [٦] • وقد أفادتنا وثائق الجنيزة أنه كانت تسير فى البحر الاحمر قوارب ، وأن هذه القوارب كانت تقطع مسافة كبيرة فى البحر وتحمل حمولات ثقيلة • فقد ورد فى خطاب منها أن تاجرا كان له فى قارب ٣١ بالة من البضائع وزنها ١٥ر٠٠٠ رطل • وفى رسالة أخرى أن تاجرا له ١٩ باله فى قارب آخر • وورد فى هذه الخطابات ما يفيد أن هذه القوارب لم تكن مغطاه ولذلك لم تكن فى حماية من

---

(١) يقول الخاصكى : « كانت الامتعة القادمة من بحر الهند على سفن السيرافيين والتى تحمل الى مصر تنقل فى مراكب القلزم اذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه ولانه ليس فى سواحله عمارة » — اخبار الصين والهند ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢٢٨١ ، ورقة ٧٣ أ .

(٢) أنظر : رحلة ابن جبير ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) أنظر : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٤) مروج الذهب ، ج ١ ص ١١٣ .

(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ص ٣٦٣ .

(٦) آدم متز : نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

المتجرمة • وورد أيضا فى وثائق الجنيزة اسم نوع آخر من السفن يدعى « القنبر » كانت تسير فى البحر الاحمر ، وأن هذه القنابر كانت تحمل بضاعة ثقيلة وأنها كانت تحمل ركابا أيضا (١) •

أما عن ملكية السفن المتاجرة فى البحر الاحمر فقد أوردت وثائق الجنيزة أن عددا كبيرا من هذه السفن كانت كل واحدة منها ملكا لشخص واحد فقط ، وأن عددا قليلا منها أشترك فى ملكية السفينة الواحدة منها أكثر من شخص •

وأوردت الوثائق كذلك بأنه كانت للسلطان سفنه الخاصة أيضا ، كذلك كانت الشخصيات الكبرى فى الدولة تمتلك سفنا خاصة بها • فهناك سفن تسمت باسم الوظائف التى كان يتقلدها بعض رجال الدولة مثل مركب القائد ، ومركب الحاجب أو الوزير • ومن أكبر الحكام الذين ذكرت لهم سفن فىوثائق الجنيزة هو « ناصر الدولة الحمدانى » (خلال سنوات ٤٥٤ — ٤٦٦ هـ) ، وكان الحاكم الفعلى لمصر ، وكانت له مصالح تجارية كبرى ، وكذلك أخوه « فخر العرب » (٢) • كذلك كان بعض القضـــاة يمتلكون سفنا خاصة بهم ، وكان لبطريق الاسكندرية أيضا سفن قبل الفتح العربى لمصر (٣) • وكان أبناء البيوتات الكبيرة يمتلكون أيضا سفنا تجارية ، وقد ورد فى وثائق الجنيزة أسماء الكثيرين من هؤلاء الاعيان التجار • هذا ولم يكن بين الاقباط كثير من ملاك السفن ، بل كانوا قلة قليلة • أما من اليهود فقد كان لهم نشاط واسع فى هذا الامر حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فى البحرين الابيض والاحمر والمحيط الهندى • ومن الاسماء التى تحكى عنها وثائق الجنيزة : ابن علان ، وابن يونس ، وابن شبلون ، والمفضل (٤) •

---

(١) Goitein : A mediterranean Society, p. 305.

(٢) Goitein : Op. Cit., p. 310.

(٣) Goitein : Op. Cit., p. 311.

(٤) Ibid, p. 311.

وقد تسمت السفن بأسماء أصحابها ، وتسمت أحيانا بأسماء قوادها ، وفى أحيان أخرى حملت أسماءا خاصة مثل : أم ورده ، أم الذهب ، المباركة ، حبيبة الله ، العروسة ، سكينة الجزار ، والزهرة (١) .

وكان لكل سفينة « ريس » يعمل وكيلا لصاحبها ، ويتفق مع التجار عموما ومع الركاب وينظر فى أمر بضائعهم . أما السفن الخاصة بالحكام فكان الحاكم يعين لها من يتجسس على الركاب وعلى بضائعهم . وكان للسفن الكبيرة مثل سفن السلطان اثنان من النوتية (٢) .

ومن مراسم ابحار السفن التجارية فى البحر الاحمر ان يكون جميع الركاب عليها قبل رحيلها بيوم . وتسمى الليلة التى تسبق الرحيل ليلة الوداع ، وكانت تقضى فى الصلاة . وحين تكون الريح شديدة يقضى الركاب ليالى عديدة على ظهر السفينة قبل الرحيل فى انتظار سكونها . وقد ذكر ابن جبير ان الجلبة التى أقلته من عيذاب فى طريقه الى مكة ، وقفت يوما بأكمله أمام ميناء جدة لا تستطيع الدخول فيه بسبب قوة الريح (٣) .

---

(١) — Ibid, p. 312.

(٢) كلمة نوتى هى كلمة من اصل يونانى لاتينى ، وهى نفس الكلمة المشتقة منها فى الانجليزية كلمة (Navy) ، وكان بحارة النيل يسمون نواتية أيضا .

(٣) رحلة ابن جبير : ص ٦٧ .

الاهمية العالمية لتجارة البحر الاحمر

لم تكن تجارة مصر فى البحر الاحمر بعد الفتح الاسلامى الا امتدادا لتجارتها فى هذا البحر منذ أقدم العصور • وان البحر الاحمر من أقدم البحار التى عرفت الانسان ملاحا يركب البحر بقصد التجارة ، ونشأت بين أمواجه خيرة الملاحين العرب والمصريين وغيرهم من سكان الحوض الذى يحتله هذا البحر • وظل البحر الاحمر حتى القرن التاسع الهجرى أهم طرق التجارة فى العالم (١) • وقد تحكمت مصر فى مدخل هذا البحر منذ فجر التاريخ ومنذ أيام الفراعنة ، وأستفادت من هذا التحكم فى فرض نفوذها السياسى والاقتصادى فى منطقة الشرق الادنى عبر فترات التاريخ المختلفة (٢) • ولا بد لنا قبل بدء الحديث عن تجارة مصر فى البحر الاحمر فى الفترة التى حددناها لبحثنا أن نلم المامة سريعة بحالة هذه التجارة قبلها •

ففى عهد الفراعنة الاول فرضت مصر نفوذها على هذا البحر ووصل أسطولها عبره الى بلاد بونط • وقد حكت لنا الملكة حتشبسوت قصة سفر سفنها الى تلك البلاد وسجلتها على جدران معبدها بالدير البحرى عند سفح جبل طيبة فى القرن ١٨ ق • م (٣) • وتسهيلا للملاحة بين

---

(١) الطريقان الآخران هما : الطريق البرى الذى يمر عبر أواسط آسيا حتى بحر ازوف ، وطريق الخليج العربى (أحمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول التجارى فى البحر الاحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٨٧) •

(٢) — Kammerer: La Mer Rouge, pp. 2-3.

(٣) جرت محاولات للوصول الى هذه البلاد منذ الاسرة الخامسة فى عهد الدولةالقديمة ، كذلك تمت رحلات أخرى فى عهد الدولة الوسطى ظهر صداها فى قصة البحار الغريق الذى غرقت سفينته وتحطمت فى البحر الاحمر •

(جورج فاضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣١) •

البحر الاحمر والنيل قام فراعنة مصر بحفر قناة تربط بين النيل وهذا البحر ، وكانت أول تلك المحاولات تلك التى قام بها الملك سيزوستوريس فى الاسرة الثانية عشرة • وربطت هذه القناة فرع النيل الشرقى بالبحر الاحمر مارة بوادى طميلات (١) • وذكر « هيرودوت » أن ملك مصر « نيخاو بن أبسماتيك » — وهو من الاسرة السادسة والعشرين — وجه عنايته الى التجارة فى البحر الاحمر فأبتنى لذلك عمارة على شاطىء هذا البحر وعين لها بحارة من الفينقيين (٢) • وكان نشاط البحارة الفينقيين قد ظهر فى هذا البحر أيام ضعف قوة المصريين (٣) •

وكان للبطالمة نشاط كبير فى تجارة البحر الاحمر ، فقد شجع ملوكهم هذه التجارة ، وأصبح هذا البحر حجر الزاوية فى تجارتهم خلال المائة سنة الاولى من حكمهم (من ٣٠٠ الى ٢٠٠ ق • م) (٤) ، ولذلك قام البطالمة بتأسيس عديد من المستعمرات التجارية والمراكز التى تمثل نقط ارتكاز لتجميع الانتاج من المناطق الخلفية • فأسس « بطلميوس فيلادلفوس ميناء « ميوس هرموس » (أبو شعر القبلى)سنة ٢٧٤ ق•م• عند خليج سفاجة (٥) • وأسس كذلك ميناء « برينيس » عند رأس بنياس

---

(١) ابراهيم نصحى : البحر الاحمر فى عهد البطالمة والرومان ، رحلة كلية الآداب ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٦١ .

(٢) حسين فوزى : حديث السندباد القديم ، الاسكندرية ١٩٤٢ ، ص ١٤ .

(٣) ورد نشاط الفينيقيين فى البحر الاحمر فى كتاب العهد القديم ، حين جهز الملك سليمان أسطولا فى « عيزون جبر » التى كانت تقع بجوار ميناء أيله على ساحل هذا البحر وارسله الى بلاد الهند ليحضر له الذهب من أرض هذه البلاد ووصل هذا الاسطول الى بلدة أوفير فى الهند . (حورانى : العرب والملاحة ، ص ٣٣) .

(٤) صلاح الدين الشامى : التوجيه البحرى ، ص ٨٣ .

(٥)
— Chabanier : Connaissance de La Mer Rouge, (R.G.P., T XV-Paris 1936, p. 106.

سنة ٢٧٥ ق.م. (١) وأسس أيضا ميناء « أرسينوى كليوباتريس » (٢) (أبو شعر البحرى الحالية) (٣) . كما قام باصلاح موانى « ليكوس ليمون » (الميناء الابيض) وهو ميناء القصير الحالى ، وميناء « فيلوتيرا » عند مدخل خليج السويس (القلزم) (٤) .

وكانت الحاصلات تحمل من هـذه الموانى عن طـريق الطـرق الصحراوية الى قفط على النيل ومنها الى داخل البلاد محمـولة على الجمال .

وورث الرومان عن البطالمة سياسة الاتجاه الى البحـر الاحمر وزادوا فى تطلعاتهم رغبة فى الوصول الى الهند ، وكان هدفهم الحصول على منتجات آسيا الجنوبية الشرقية بسفنهم الخاصة .

هذا وقد طاف بالمحيط الهندى أيام حكم الرومان لمصر فى آخـر القرن الثانى الميلادى ملاح يونانى مجهول الاسم من أهالى بلدة بيرينيس — على شاطىء البحر الاحمر قبالة أسوان — وترك أثرا مكتوبا بعنوان « الطواف بالبحر الارتيرى » The Periplus of the Erytrean Sea، (٥)
ويؤكد هذا الكتاب أن الدولة الرومانية أسست لها قواعد بحرية فى عدن وفى مواضع أخرى من بلاد اليمن وفى جزيرة سوقطرى (٦)

---

(١) Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, Paris 1931, T. I, p. 153. —

(٢) سمى هذا الاسم نسبة الى الملـكة ارسينوى كليوباتريس أحب زوجات بطليموس فيلادلفوس . (Schoff : Op. Cit., p. 52).

(٣) يبعد هذا الميناء مساحة كيلو ونصف عن مكان السويس الحالية ، ويقول كاترمير انه يقع عند جبل القديس أنطوان على بعد مسيرة يوم من قلعة القلزم .
(Quatrémere : Memoires Geographiques de Historiques sur l'Egypte, Paris 1811, T. I, p. 155).

(٤) عن القلزم ، أنظر فيما بعد .

(٥) Kammerer : La Mer Rouge, p. 11. —

(٦) يعتبر هذا الكتاب من أهم الوثائق فى تجارة البحر الاحمر فى العالم =

وأزدهرت التجارة بين البحر الابيض وبلاد المحيط الهندى فى عهد الامبراطور « تراجان » حين قام بتحسين الاتصال بين البحرين الابيض والاحمر وقام فى سنة ١٠٦ م بتطهير القناة القديمة التى أهملت منذ عهد البطالمة وحفر فرعا جديدا عند نهايتها الغربية ليوصلها بالنيل عند حصن بابليون • ولقد سهل ذلك الاتصال بين الذراع الغربى (الكانوبى) لدلتا النيل الموصل الى الاسكندرية والمكان الذى تتصل به بحيرة تراجان مع البحر الاحمر ويوجد فيه ميناء القلزم •

وعندما ضعفت دولة الرومان عادت طرق التجارة القـديمة الى نشاطها عبر بلاد العراق تحت حكم الفرس (الساسانيين) . وأصبح للفرس النشاط الاكبر فى التجارة ووصلت سفنهم الى موانى الهند • وأدى هذا الى ضعف نفوذ مصر التجارى فى البحـر الاحمر والمحيط الهندى (١) •

ولقد قاومت بيزنطة أحتكار الفرس لتجارة الهند ، وأعتمدت على حليفتها الحبشة فى تحطيم هذا الاحتكار غـير أن هذه المحـاولة باءت بالفشل (٢) •

وظلت الحرب سجالا بين بيزنطة والحبشة من جهة والفرس من جهة أخرى للسيطرة على تجارة البحـر الاحمـر حتى أشرقت شمس الاسلام فدخل تاريخ تجارة البحر الاحمر مع هذه الاشراقة فى طـور جديد كان العرب فيه هم سادة هذا البحر

= القديم ويصل الى مرتبة مذكرات ماركوبولو وكولمبس وهو الكتاب الذى فتح الطريق للملاحين والتجار العرب الى أعالى البحار . هذا ولقد استفاد مؤلف هذا الكتاب من كتابات من سبقه فى هذا المضمار مثل ثيوفراست وسترابون واراثوستينيس وارتاكيدس وبلينى (احمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٧٠) . — Schoff : Op. Cit., p. 6.

(١) Dubois-Aymé : Mémoire sur les anciennes limites de la Mer Rouge, Paris 1910, p. 7.

(٢) احمد محمد عيسى : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحـر المتوسط (٥٠٠ — ١١٠٠ م) ، مترجم ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

تجارة البحر الاحمر منذ الفتح العربى حتى بداية القرن الثانى الهجرى

كان نشاط العرب التجارى فى البحر الاحمر أقدم من الاسلام وأسبق من قيام الدولة الاسلامية بقرون كثيرة • ولكن نشاط العرب فى هذا البحر ازداد بعد ظهور الاسلام حتى أصبح هذا البحر بحيرة عربية (١) •

فقد قام عرب البحرين قبل الاسلام بالتجارة مع الهند وعرفوا سر الرياح الموسمية (٢) وكانت سفنهم تنقل البضائع من الهند الى موانىء الجزيرة العربية ومنها الى مكة على وجه الخصوص وكانت مكة عاصمة دينية ، وسوقا عاما للعرب فقد كان يسكنها التجار الاغنياء الذين قاموا بدور الوسيط فى التجارة بين الشرق والغرب • ذلك لان موقع مكة فى ملتقى طريقين تجاريين عالميين منذ القدم وهما طريق اليمن والشام ، وطريق اليمن والعراق وفارس جعل منها ملتقى تجارى هام ونقطة بداية سير القوافل التجارية الى مختلف أرجاء شبه الجزيرة العربية • وهذا يفسر قول سترابون عن مكة من أن قاصدها أما أن يكون تاجرا أو مرابيا (٣) •

ولم يغير الفتح العربى لمصر من الوضع التجارى الذى كان سائدا بها خلال حكم البيزنطيين لها ، فقد سارت التجارة فى طريقها المعتاد ونشطت الموانىء المصرية على الشاطىء الغربى للبحر الاحمر (٤) •

---

(١) عرف العرب تجارا وبحارة طريقهم الى الهند وشرق افريقية قبل الاسلام ، ومع ظهور الاسلام كانوا على دراية تامة بالمحيط الهندى ، وكانت لهم رحلاتهم التجارية المنظمة الى الهند وسيلان . وكانوا فى ذلك الوقت سادة أعالى البحار .

— (Coupland : East Africa and its Invaders, Oxford 1956, p. 18).

(٢) Kammerer : La Mer Rouge, L'Abyssinie, T. I, 3e Partie, p. 205.

(٣) De Somogyi : Trade in the Quran and Hadith, (Muslim World, III, No. 2, April 1962, p. 110).

(٤) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, pp. 166.

وقد شجع الاسلام التجارة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه تاجرا قبل أن يبعث • وذكر القرآن رحلتى الشتاء والصيف وكانت أهم أعمال أهالى مكة • وكانت مكة سوقا كبيرا للعرب ، كما كان سوقا عكاظ وذى المجاز سوقين عظيمين للتجارة قبل الاسلام (١) • وفى الاسلام أصبح الحج موسما تجاريا كبيرا للمسلمين ، وقد جلب الى الحجاز فى عهد الرسول الثياب من اليمن ومصر والشام عبر البحر الاحمر (٢) • وكان بين الصحابة عدد قليل من التجار (٣) وساعدت الفتوح الاسلامية العرب على أن ينتشروا ويتاجروا وفتحت لهم أسواقا جديدة للتجارة والكسب •

وقبل الفتح العربى لمصر كان التجار العرب يترددون على مصر ويتاجرون بها ، فكان عمرو بن العاص يتردد على مصر قبل فتحها ولهذا كان يعرف أحوالها • كذلك كان بعض هؤلاء التجار يقومون بنقل متاجر اليمن الى مصر عبر البحر الاحمر • ويؤيد ذلك ما ذكره « الواقدى » عن قصة تاجر عربى أسر فى الاسكندرية وخلصته قوات الفتح العربية حين قامت بفتح هذه المدينة • وكان هذا التاجر قد جاء مع غيره بتجارة من اليمن فى أيام « المقوقس » فباع تجارته ثم أشترى غيرها وخرج مع قافلة كبيرة الى أرض برقة للاتجار فيها ولكنه أسر فى الطريق (٤) •

---

(١) De Somogyi: Trade in Classical Literature, (Muslim World, V. LV, No. 2, April 1965, p. 131).

(٢) ابن تيمية : الحسبة فى الاسلام ، القاهرة ١٣١٨ هـ ، ص ١٧ .

(٣) كان من بينهم عبد الرحمن بن عوف ومحمد بن سيرين ومسلم ابن يسار وأيوب السيختانى ويوسف بن عبيد :
(De Simogyi: — Trade in the Quran, p. 131).

(٤) أورد الواقدى أن اسم هذا التاجر هو امية بن حاتم وهو أخ عدى بن حاتم الطائى ، ولقد أسر فى آخر عهد أبى بكر الصديق .
(الواقدى : فتوح مصر ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ١٦٨٩ ، ورقة ١٣١ ب — ١٣٤ أ) .

وفى عهد الخليفة عمر تم المشروع الكبير الذى ساعد على نشاط تجارة البحر الاحمر وهو حفر خليج أمير المؤمنين (١) •

وأهتم الخليفة عثمان بتجارة البحر الاحمر وأختار ميناء جـدة — التى أنشأها التجار الفرس حوالى منتصف القرن السابع الميلادى — لكى تكون ميناء مكة لخدمة تجارة هذا البحر • كما أهتم بالجار ميناء المدينة وكانت ترسو بها وتزورها سفن الهند والصـين والحبشـة فى عهده (٢) • وأتسعت تجارة مصر فى البحر الاحمر فى ذلك الوقت لزوال دولة الفرس التى كانت تنافس مصر فى هذا الطريق التجارى الهام وتحد من نشاطها •

وفى عهد الامويين ازدهرت تجارة البحر الاحمر والمحيط الهندى ، وأهتم الخلفاء الامويون بتجارة الشرق (٣) وعملوا على انشاء محطات تجارية على الساحل الشرقى لافريقية لتأمين هذه التجارة (٤) • ويشهد على ذلك ما قام به الخليفـة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) من ارسال قوات فى سنة ٧٥ هـ (٥) الى ساحل أفريقية الشرقى حيث أتخذت هذه القوات قاعدة لها فى جزيرة لامو الواقعة فى المياه الساحلية ما بين الصومال وكينيا (٦) • هذا وقد قام الامويون عقب نزول قـواتهم فى

---

(١) أنظر فيما بعد •

(٢) Heyd : Histoire du commerce, Leipzig 1923, T. I, p. 35.

(٣) Wiet : Les Marchands d'épices sous les Sultans Mamlouks, (CHE, Le Caire 1955, p. 81).

(٤) الشاطر بوصيلى : السلطنة الفنجية الاسلامية فى سودان وادى النيل ، مقـال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية ، المجلد ١٨ ، ١٩٧١ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ •

(٥) كان قائد هذه الحملة يسمى موسى بن زبير الخثعمى وقد نجح موسى فى اخضاع الساحل الشرقى الافريقى لنفوذ بنى أمية ، وظل أهـل الساحل موالين لدولة بنى أمية حتى سقوطها
(Enrica Cerulli : Somalia, I, Rome 1957, p. 238).

(٦) هنالك رواية سواحلية مشهورة تحدثت عن اقامة أولى امارة =

أرخبيل اللامو بانشاء عدد كبير من الموانى التجارية على الساحل الافريقى الشرقى لحماية تجارة الشرق فى مياه المحيط الهندى (١) .

ويعكس لنا حالة الازدهار التجارى التى كان عليها البحر الاحمر فى العهد الاموى مقدار ما بلغته مصر من رخاء فى عهد الوالى « قرة بن شريك » (٩٠ — ٩٦ هـ) الذى أرسل الى دمشق يبلغ الخليفة الاموى « الوليد بن عبد الملك » أن خزانته لم تعد تتسع لقبول موارد جديدة ويطلب منه أن يدله عما يفعل فجاءه الرد بأن ينفق الفائض فى بناء المساجد (٢) . كما يذكر لنا ابن عبد الحكم ورود كميات كبيرة من الفلفل الى مصر فى عهد ولاية « أسامة بن زيد التنوخى » سنة ١٠٢ هـ على الخراج (٣)

= ابن مروان على الساحل الافريقى بالقرب من اللامو ويطلق على هذه الرواية اسم وشامى (Wa-Shami) وما شامى (Ma-Shami) وهى تشير الى الشوام الذين اسسوا امارتهم الصغيرة بجوار اللامو : (R. Reusch — History of East Africa, Stuttgart, 1854, pp. 72-73.

(١) اتخذ الامويون لهم قاعدة فى جزيرة زنجبار وقاموا بتعميرها وزاولوا فيها نشاطهم التجارى فى المحيط الهندى
(Sir John Gray: History of Zanzibar, London 1962, p. 12).

(٢) أحمد محمد عيسى : القوة البحرية ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣) يقول ابن عبد الحكم عند حديثه عن خطط الفسطاط عن دار الفلفل : « .. انما سميت دار الفلفل لان اسامة بن زيد التنوخى اذ كان واليا خراج مصر ابتاع من موسى بن مروان فلفلا بعشرين الف دينار كان قد كتب فيه الوليد بن عبد الملك اراد أن يهديه الى صاحب الروم فخزنه فيها فشكا ذلك موسى بن وردان الى عمر عبد العزيز حين ولى الخلافة ، فكتب أن يدفع اليه .

(فتوح مصر واخبارها ، نشر شارلز تورى ، ليدن ١٩٢٠ ، ص ٩٩).

« خليج أمير المؤمنين »

فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب أعيد حفر القناة الموصلة بين البحر الاحمر والنيل ، تلك القناة التى عرفت باسم خليج أمير المؤمنين والتى حفرها الملك « سيزوستوريس » فى الاسرة الثانية عشرة ، وجدد حفرها كل من رمسيس الثانى ونخاو ودارا الاول ثم تراجان • وكانت هـذه القناة تخرج من فم الخليج شمال مصر القديمة متجهة شمالا حتى نهاية القاهرة وتمر بعـد ذلك فى الاراضى الزراعية حيث تجـرى الترعـة الاسماعيلية الى العباسـية بمـديرية الشرقية ثم الى مكـان مـدينة الاسماعيلية الحالية ومنها الى القلزم (السويس) على البحر الاحمر (١) وقد كانت هذه القناة منذ حفرها فى عهد الفراعنة تهمل حينا ويعاد حفرها حينا آخر • وكان الاهتمام بها راجعا الى الرغبة فى تسهيل سير السفن بين البحر الاحمر والنيل •

ولكى نفهم ظروف اعادة حفر هذه القناة القديمة يجب أن نتذكر التغيرات التى طرأت على جغرافية نهر النيل خلال الالفى سنة الماضية • فنهر النيل كان يتفرع شمالى بابليون بمسافة قليلة — حيث موضع القاهرة الحالى تقريبا — الى ثلاثة فروع كبيرة منها فرعى دمياط ورشيد الحاليين أما الفرع الثالث فهو الفرع البيلوزى الذى كان شرقى فـرع دمياط وينتهى بالقرب من مدينة بلوزيم القديمة (الفرما أو طينة الحالية) • وكان فى وسط هذا الفرع تقـريبا بحـيرة واسـعة تتصـل بمـدينة « بوباستيس » القديمة أو تل بسطة الحالية القريبة من الزقازيق • ومن هذه البحيرة كانت تسير قناة نخاو نحو ميناء أرسينوى (السويس) ، ولكنها كانت تنتهى عند البحيرات المرة التى كانت تقع فى الشمال الغربى

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسـلام ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٣٠٣ •

لرأس البحر الاحمر (١) • أما قناة بطليموس الثانى (فيلاد لفوس ٢٨٥— ٢٤٦ ق • م) فقد أمتدت من البحيرات المرة الى البحر الاحمر نفسه عند السويس مارة بمدينة « هيروبوليس » (Heroopolis) التى يظن أنها كانت شمال غربى السويس على نحو خمس عشرة ميلا ، وجنوب شرقى البحيرات المرة على نحو خمسة أو ستة أميال • ويرى كثير من الكتاب أن البحر الاحمر نفسه أو خليج السويس كان يمتد شمالا الى مدينة هيروبوليس • وعندما جفت مياه القناة الطبيعية التى كانت بين البحيرات المرة وخليج السويس الحالى حفر الملك دارا والملك أجزركسيس (فى القرن الخامس ق • م) قناة توصل بين البحيرات المرة والخليج ، وقد أعيد حفرها فى حكم بطليموس الثانى (القرن الثالث ق • م) • وفى أثناء الحكم الرومانى لمصر كان الفرع البيلوزى قد بدأ يجف كما أن القناة بين بوباستيس والبحر الاحمر لم تعد صالحة لملاحة السفن الكثيرة فى العهد الرومانى فأهتم الامبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى (٩٨ — ١١٧ م) باصلاح تلك القناة وتعميقها (٢) ، كما أنه حفر قناة تخرج من النيل بالقرب من المنطقة التى تقوم فيها القاهرة الان وتتقابل مع قناة نخاو عند بلبيس الحالية فى منطقة متوسطة بين بوباستيس والبحيرات المرة • ولكن قناة تراجان هذه أهملت على مر الايام حتى أصبحت غير صالحة للملاحة فى بداية القرن السابع الميلادى (٣) •

ولما فتح العرب مصر فى أوائل ذلك القرن أهتموا باعادة حفر هذه القناة • ويذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب أمر بحفر هذه القناة لتوصل بين النيل والبحر الاحمر ولتسهل حمل الطعام من مصر الى مكة والمدينة • وكان ذلك على أثر الشدة التى أصابت الناس بالمدينة فى عام

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ •
(٢) Wiet: Histoire de la Nation Egyptienne, I. p. 149.
(٣) سيدة كاشف : نفس المصدر ، ص ٣٠٣ •

الرمادة سنة ٢٣ هـ (١) ؛ فحفرت هذه القناة التى سميت بخليج أمير المؤمنين فى نفس العام (٢) ، وكانت تمتد من بلبيس فبحيرة التمساح فمدينة القلزم (٣) • وأستغرقت مدة الحفر ستة شهور ووصلت المؤنة الى الحجاز فى الشهر السابع من بداية الحفر (٤) • وسار فى الخليج أول أسطول من عشرين سفينة تحمل الحبوب الى المدينة ؛ وكانت حمولة المركب الواحدة ثلاثة آلاف اردب (٥) •

ويقال ان عمرو بن العاص فكر فى حفر قناة توصل ما بين البحر الابيض والاحمر لكن الخليفة عمر لم يوافقه على ذلك (٦) •

وعلى الرغم من أن عمر بن الخطاب أمر بحفر هذا الخليج لتسهيل حمل الغلال والطعام من مصر الى الحجاز ؛ فقد أفاد هذا العمل التجارة وظل هذا الخليج مسلكا للتجار وغيرهم طوال عصر الولاة • وكانت السفن تسير فيه الى البحر الاحمر قاصدة الحجاز واليمن والهند • ويبدو أن هذا الخليج لم يكن يعمل طوال أيام السنة ، وأنه يقتصر على فترة فيضان النيل فقط • ويظهر ذلك من الخطاب الذى أرسله « قرة بن شريك » والى

---

(١) أورد ابن عبد الحكم المراسلات التى دارت بين الخليفة عمر والوالى عمرو بن العاص بهذا الخصوص (فتوح مصر ، ص ١٦٢ — ١٦٤). ولما قدمت السفن الحجاز خرج عمر حاجا أو معتمرا فقال للناس سيروا بنا ننظر الى السفن ... ننظر الى السفن التى سيرها الله الينا من أرض فرعون حتى أتتنا . ابن سعيد الاندلسى : الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ ح ، جـ ١ ص ١٥٣) .

(٢) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ، القاهرة ١٣٠٩ هـ ، جـ ٤ ، ص ١٣٠ .

(٣) ابن زولاق : فضائل مصر واخبارها ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٨١٦ ، ورقة ١١٨ .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٢٩٨ .

(قام عمرو بن العاص بتشغيل ١٢٠،٠٠٠ عامل فى حفر هذا الخليج وفى حفر غيره من الترع والقنوات
(Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, London 1901, p. 20).

(٥) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٩٦٠ ؛ المجلد الثانى ، ص ١٥٤ .

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٦٤ .

مصر سنة ٩٢ هـ/٧١٠ م الى نائبه بالقلزم « باسيليوس » طـالبا منه اصلاح السفن التى فى القلزم وأرسال بحارة القلزم سريعا قبل أن تجف مياه قناة تراجان • ونص الخطاب يقول : « لقد أرسلنا اليك عدة رسائل من أجل تطهير واصلاح سفن القلزم وأيضا لمدنا ببحارة السفن الذين فى القلزم • ولقد أخبرناك بهذه المطالب فقط منذ أيام وكتبنا اليك أن ترسلهم قبل أن تجف مياه قناة تراجان ، وحتى هذا اليوم لم ترسـل لنا أيا منهم ، وبمجرد تسلم خطابنا هذا ارسل حالا وبأسرع ما يمكن كل من عندك فى منطقتك منهم ولا تتأخر على الاطلاق ولا تضطرنا لارسال خطاب آخر اليك ، وعليك أن تقدر الموقف تماما وعليك أن تعلم انه فى حالة التأخير واذا جفت المياه عليك أن ترسلهم بسرعة بطريق البر الى صـعيد القلزم وتدفـع لهم تكاليف سـفرهم وممتلكاتهم بواسـطة سعيد (١) »

وظل خليج أمير المؤمنين على أهميته التجارية الى أن أهمل أمره الولاة بعد عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فغلب عليه الرمل وصار منتهاه الى ذنب بحيرة التمساح من ناحية الطور والقلزم (٢) • ثم كانت نهاية هذا الخليج على يد الخليفة العباس أبى جعفر المنصور حين أمر بردمه سنة ١٤٥ هـ (٧٦٥ م) بسبب ثورة محمد ذى النفس الزكية (٣) •

وقد ردم الخليفة المنصور الخليج حتى يمنع وصول المؤن الى الثوار بالحجاز ومن المحتمل أن تكون قد تولدت عند الخليفة العباسى فى ذلك الوقت الرغبة فى تحويل طريق تجارة الشرق من البحـر الاحمـر الى الخليج العربى لتزدهر عاصمة خلافته بغداد • وكان من المحتمل أن يعاد

---

(١) Fahmy: Muslim Sea-power, London 1950, pp. 24-25.
— أورد المؤلف أن هذا الخطاب موجـود ضمن مجموعة الاوراق البردية الخاصـة بتاريخ مصر الاسـلامية بالمتحف البريطانى ويحمل رقم ١٣٤٦ •

(٢) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ، جـ ٤ ، ص ١٣٠ •

(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، القاهرة ١٣٠٣ هـ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ •

حفر الخليج فى عهد الرشيد الذى كان يريد وصـــل البحـــرين الاحمر والابيض لولا أن « يحيى بن خالد بن برمك » خوفه من احتمال وصول البيزنطيين الى مكة والمدينة وقطع طريق الحج عن المسلمين (١) •

وعلى الرغم من ردم خليج أمير المؤمنين فقد ظل طريق التجارة من القلزم عبر برزخ السويس يطرقه التجار طوال عصر الولاة • وكانت البضائع تحمل على الجمـــال عبر الصحـــراء الى النيل ومن النيل الى الاسكندرية (٢) • ويؤيد ذلك الاستمرار ما ذكره الجغرافى ابن خرداذبه عن مرور التجار اليهود الرازانية عبر هذا الطريق (٣) •

---

(١) ذكر المسعودى أن يحيى بن خالد قال للرشـــيد : يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف وذلك ان مراكبهم تنتهى من بحـــــر الروم الى بحر الحجاز فتطرح سراياها مما يلى جدة فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة فامتنع من ذلك .
(مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٣) .

(٢) Heyd : Op. Cit., T. I, p. 40.

(٣) أنظر فيما بعد .

تجار اليهود الرازانية وتجارة البحر الاحمر

لعب التجار اليهود دورا هاما فى تجـارة الشرق الاسـلامى فى العصور الوسطى الاولى ؛ فكانوا يقومون بالترحال من غرب أوروبا الى بلاد الشرق ويعبرون البحر الاحمر الى الهند • ذكر ذلك أبن خرداذبة رئيس ديوان البريد الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى [١] ؛ وأطلق عليهم اسـم الربدانيـة أو الرازانيـة [٢] ، وكانوا يسمون عنـد المسلمين فى القرن الثالث الهجرى باسم مجرد وهو تجار البحر [٣] •

وأمتد نشاط التجار اليهود الرازانية فى الشرق قبل قيام الدولة الاسلامية بمائتى وخمسين عاما وأستمر حتى منتصف القرن الرابع الهجرى • وقد تعلم اليهود التجارة من البابلين — وهى أمة تجـارية قديمة — حين تفرقوا بعد تحطيم أول معـابدهم سنة ٥٨٧ ق • م ، ونزحوا الى بابل • ووجد اليهود أنفسهم فى العصر الهيلنستى والاسلامى أصحاب خبرة تجارية كبرى ؛ وخاصة اليهود الرازانية الذين أحترفوا استيراد تجارة الشرق عبر البحر الاحمر وتوريدها الى بلاد أوروبا • ووجد أولئك التجار الحرية الكافية فى تصريف تجارتهم بسبب وحـدة العالم الاسلامى وعدم وجود أية صعوبة فى التنقل فى أنحاء أمصاره [٤]

وقد أخبرتنا وثائق الجنيزة أنه كانت لليهود سفن خاصة بتجارتهم ، وأنهم كانوا يتاجرون بهذه السفن فى المياه العربية والهندية [٥] •

---

(١) توفى ابن خرداذبة سنة ٣٠٠ هـ —
(Goitein : Jews and Arabs, New York 1955, p. 105).

(٢) Lopez : Medieval Trade in Mediterranean World, London 1955, p. 29.

(٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ص ٣١٣ •

(٤) Goitein : Jews and Arabs, pp. 106-107.

(٥) من الغريب أنه لم يعثر فى هذه الوثائق عن اسم بحار واحـد يهودى فى هذه المياه على الرغم من أنه كان هنالك بحارة يهود (نواتيـة) فى البحر المتوسط ، ويبدو أنهم كانوا يوكلون عنهم من يبحر لهم بسـفنهم فى هذه البحار من البحار المسلمين •

يقول ابن خرداذبة بصدد ذكر اليهود الرازانية : « اليهود الرازانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية ، وأنهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا • يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجه فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الجار وجدة ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدراصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ، ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبوا فى البحر الغربى فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها الى ملك فرنجه فيبيعونها هناك • وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجه فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الارض ثلث مراحل الى الجابية ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ثم يركبون فى دجلة الى الابلة ومن الابلة الى عمان والسند والهند والصين وكل ذلك متصل بعضه ببعض (١) »

ويتضح من نص ابن خرداذبة أن التجار اليهود كانوا يسلكون ثلاثة طرق : الاول منها طريق البحر من فرنسا الى سورية ومن هناك الى العراق والخليج العربى حتى الهند والصين • والثانى عبر أسبانيا وبعد عبور مضيق جبل طارق الى الساحل الشمالى لافريقية حتى مصر فالبحر الاحمر الى الهند • والثالث عبر وسط أوروبا الى أرض الخزر (الاتراك الذين كانوا يعيشون حول بحر قزوين) ، ومن أرض الخزر يعبر الرازانية داخل آسيا حتى يصلوا الى الهند (٢) •

---

(١) المسالك والممالك : ليدن ١٨٨٩ ، ص ١٥٣-١٥٤ .

(٢) Goitein : Jews and Arabs, p. 107.

وكان مركز نشاط التجار اليهود الرازانية فى مدن نربونة ومرسيليا وجنوة ونابلى وبالرمو وغيرها من مدن أوروبا [١] • وكانت للتجار الرازانية سفنهم الخاصة وكانوا أغلب الوقت يقلعون بها من مينائى نيس ومرسيليا •

ويظهر لنا من نص ابن خرداذبة أن أولئك التجار كانوا يتاجرون فى أنواع خاصة من السلع وهى سلع الشرق الغالية الثمن مثل التوابل والحرير والمسك والعود والكافور والعبيد من الجنسين والادوية [٢] • وكانوا يجلبون هذه السلع الى مقاطعة بروفانس بفرنسا [٣] •

وأستمرت تجارة يهود بروفانس قائمة طوال عهد الميروفنجيين ، ولكنها تدهورت فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بسبب انتشار المد الاسلامى وأفتقرت بروفانس تبعا لذلك بعد أن كانت أغنى بلاد الغال بسبب توقف التجارة بها ، كما أفتقر ميناء مرسيليا [٤] • وكذلك أدى قيام الجمهوريات الايطالية التجارية الى القضاء على نشاط التجار اليهود الرازانية [٥] •

---

(١) كانت للتجار اليهود مستعمرات خاصة فى مقاطعة بروفانس جنوبى فرنسا وتركزوا فى مدن مثم بوردووليون فى العصر الكارولنجى
(Pirenne : Les villes du Moyen Age, Paris 1971, p. 17).

(٢) كان أطباء اليهود قد قرأوا كثيرا فى الكتب العربية عن الادوية وقاموا لذلك باستحضارها من بلاد الشرق وأتجروا فيها . أما الرقيق فقد استمرت سفنهم فى جلبه حتي القرن الثانى الهجرى .
(Pirenne : Mahomet et Char lamagne, Paris 1970, p. 66).

(٣) ازدهرت تجارة هؤلاء اليهود فى فرنسا فى عهد دولتى الكارولنجيين والميروفنجيين . وكانت كلمة يهودى Jutaeur تقابل كلمة تاجر mercator فى هذه البلاد .
(Pirenne : La Civilization Occidentale au Moye ı Age, Paris 1933, p. 15).

(٤) Pirenne : Les Villes du Moyen Age, p. 17.

(٥) (أنظر الباب الثالث) .
Goitein : Jews and Arabs, p. 107,

هذا عن اليهود الرازانية ، أما يهود مصر فقد كانوا عنصرا تجاريا هاما فيها منذ زمن بعيد (١) • وكانوا يتاجرون فى داخل البلاد وخارجها ويسهمون برؤوس أموالهم فى تجارة أبناء عمومتهم الرازانية (٢) • هذا وكانت تقيم فى مصر فى تلك الفترة جالية يهودية كبرى أوردا بن زولاق أن عددها قبل الفتح العربى كان ستمائة ألف يهودى ، وذلك حسبما ورد على لسان « عمرو بن العاص » الى الخليفة عمر بعد فتحه مصر (٣) • ولم يبق من هذا العدد بعد الفتح سوى أربعين ألفا كانوا يتركزون فى الاسكندرية ومصر القديمة والفيوم وأسوان (٤) • وكانت تجارة يهود مصر تختلف عن تجارة اليهود الرازانية الا أن كلا من الطائفتين قد لعب دورا هاما فى تجارة مصر فى البحر الاحمر فى ذلك الوقت (٥) •

---

(١) Idris Bell: Jews and Christians in Egypt, London 1924, p. 10.

(٢) Gottheil: Fragments of the Cairo Genizah, London 1927, p 28.

(٣) ابن زولاق : تاريخ مصر ، مخطوطة بالمكتبة الاهليـــة بباريس رقم ١٨١٧ ، ورقة ١٨ أ .

(٤) Mann: The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, Oxford 1920, V. I, p. 13.

Golb Nor man: The Topography of the Jews of Medieval Egypt (Journal of Near Eastern Studies, V. XXIV, Chicago 1965, p. 264).

(٥) Pirenne: La civilization Occidentale au Moyen Ages, Paris 1933, p. 15.

— دور مينائى الفرما والاسكندرية فى التجارة العالمية

لعبت كل من الفرما والاسكندرية دورا هاما فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القدم وحتى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأزدهرت كل منهما بسبب ذلك ازدهارا عظيما • والفرما بلدة قديمة وحصن كبير لمصر من جهة الشرق منذ زمن الفراعنة لانها تقع فى طريق المغيرين على مصر من جهة الشرق (١) • وكانت الفرما محطة لتجار أوروبا وسورية فى تلك الفترة ، ومنها كانوا يتجهون الى القلزم لركوب البحر • وقد ذكر ابن خرداذبة أن التجار الرازانية كانوا ينزلون بالفرما ، وكانوا يحملون تجارتهم منها الى القلزم (٢) • وذكر عنها « المقدسى » بأنها كانت على ساحل بحر الروم وأنها كانت عامرة آهلة عليها حصن ولها أسواق حسنة وأنها كانت مجمع الطرق (٣) • وقد أستمرت هذه البلدة قائمة حتى منتصف القرن الثامن الهجرى (٤) •

---

(١) كان اسمها المصرى القديم هو « برآمن » اى مدينة الاله آمون ومنه اسمها العبرى برمون والقبطى « برما » ومن هذه التسمية جاء الاسم العربى وهو الفرما . وسماها الروم « بيلوز » ومعناها : الوحلة لانها كانت واقعة فى منطقة من الاوحال بسبب تغطية ماء البحر المتوسط لاراضى تلك المنطقة وكانت الفرما تستقى الماء قديما من الفرع البيلوزى . وقد اندثرت هذه المدينة وتعرف آثارها اليوم باسم « تل الفرما » على بعد ثلاثة كيلو مترات عن ساحل البحر المتوسط وعلى بعد ٢٣ كم شرقى محطة الطينة الواقعة على السكة الحديدية التى بين بور سعيد والاسماعيلية .

(محمد رمزى . القاموس الجغرافى ، القسم الاول ، القاهرة ، ١٩٥٣ — ١٩٥٤ ، ص ٩١ ، ٩٢) .

(٢) انظر ما سبق ذكره عن خليج امير المؤمنين .

(٣) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ، ج ١ ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٤) Jean Maspero et Gaston Wiet : Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte, Le Caire 1919, p. 139.

— اورد ماسبيرو أن ابن المدبر اراد ان يحطم ميناء الفرما ولكن سكانه منعوه من ذلك ، كما اورد بأن هذا الميناء استمر قائما حتى منتصف القرن الثامن الهجرى ونقل عن المؤرخ ابى الفداء أن نهاية الميناء كانت فى عهده ، هذا وقد توفى ابو الفداء سنة ٧٣٢ هـ . كذلك أشار بأن كتاب وصف مصر Description de L'Egypte ذكر ان مكان خرائب بيلوز يعرف الآن باسم تل الفرما .

أما الاسكندرية فقد كانت منذ انشائها على يد البطالمة من أهم محطات تجارة العالم وأستمرت كذلك بعد الفتح العربى (١) •

وكانت الاسكندرية قبل الفتح العربى ثانى مدن الامبراطورية البيزنطية بسبب ثرائها ونشاطها التجارى وكانت أعمر موانى البحر المتوسط خلال ذلك العهد (٢) ، ومحطة تجار العالم وخاصة التجار اليهود الرازانية القادمين من مرسيليا وبريتانى •

وبنهاية القرن السادس الميلادى كان بطريرك الاسكندرية أغنى رجل فى مصر ، وكان ذلك بسبب عائد ممتلكاته الواسعة وعائده من التجارة الدولية بين الشرق والغرب (٣) ودليل ذلك ، ما قدمه بطريرك الاسكندرية حنا العطوف المتولى لكرسى البطركية سنة ٦١٢ م من مساعدات مالية وعينية لاصلاح كنيسة القيامة بعد أن خربها الفرس (٤) • وكان لبطريرك الاسكندرية سفن خاصة به كما كانت هنالك سفن خاصة بالكنيسة • فكان للبطريرك مرقص ١٣ سفينة حمولة كل منها ١٠٫٠٠٠ جوال ، ووصلت سفنه الى شواطىء فلسطين وصقلية وشواطىء بريتانى• هذا وقد وجد فى سجلات هذا البطريرك وثائق كثيرة تشير الى دخول الكنيسة وسيطا تجاريا • كما وجدت وثائق كثيرة تشير الى دخول الكنيسة مع الاهالى فى تعامل تجارى ومالى مع عدد كبير من التجار • وورد فى هذه الوثائق أن من كانت تتحطم سفينته من هؤلاء التجار فى

---

(١) Vincent : Op. Cit., p. 65.

(٢) Fahmy : Op. Cit., p. 27.

(٣) George Monks : The Church of Alexandria, (SPECULUM; V. XXVIII, April 1953, p. 349).

(٤) ارسل البطريرك لاصلاح كنيسة القيامة الف قطعة ذهبية والف جوال قمح والف مكيال فول والف رطل بن والف طرد من السمك المجفف والف برميل نبيذ والف عامل مصرى للمساعدة فى اصلاح الكنيسة .
(Monks : Op. Cit., p. 351).

البحار وخاصة فى البحر الاحمر ، وأن من كان يعجز عن بناء سفينة من البحارة كأن يلجأ الى الكنيسة (١) •

هذا وقد أستمر ازدهار مدينة الاسكندرية بعد الفتح العربى • ومما يدل على ثرائها وازدهارها غداة هذا الفتح ما كتبه عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتحها مشيدا بعظمتها ويسار حال أهلها • وكان نص ما كتبه عمرو للخليفة بصدد فتحه الاسكندرية : • « فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بناية وأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك » ، وقيل أنه وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيع البقل الاخضر (٢) •

وقد زار الاسكندرية الرحالة أركولف (Arculf) — أحد حجاج بيت المقدس بعد الفتح العربى لمصر بعشر سنوات (حوالى ٦٧٠ م) وتحدث عن الاسكندرية بأنها ملتقى تجارة وتجار العالم (٣) •

وفى عهد الدولة الاموية أهتم خلفاؤهم بهذا الثغر العظيم ، فنرى الخليفة معاوية بن أبى سفيان يأمر ببناء سفن حربية لحمايتها وحماية التجارة فيها • ويقال أن عمر بن عبد العزيز لما دخل الاسكندرية — وقت أن كان والده أميرا على مصر — أعجب بعظمتها وسعة آثارها وبهاء مرافقها (٤) •

---

(١) Monks : Op. Cit., p. 359.

(٢) ابن سعيد الاندلسى : الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ ح ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ •

(٣) Vincent : Op. Cit., p. 65.

(٤) مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الامصار ، تحقيق سعد زغلول — الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١٠٠ — ١٠١ •

(ولى عبد العزيز بن مروان مصر من مستهل رجب سنة ٦٥ هـ حتى جمادى الآخرة سنة ٨٤ هـ •

(زامباور : معجم الانساب ، ج ١ ص ٣٨) •

وأشتهر ميناء الاسكندرية بمنارتة العظيمة التى كانت تفيد منها كل السفن تجارية كانت ام حربية • وقد لفت هذا المنار انتباه الكتاب والمؤرخين فكتبوا عنه وبالغوا فى وصفه • أورد المسعودى أن البيزنطيين حطموا هذا المنار وأن المرآة ظلت موجودة حتى عهد الخليفة الامــوى الوليد بن عبد الملك • وذكر ناصرى خسرو أنه رأى هذا المنار وأعجب به كذلك يؤكد بنيامين التطيلى « ان المنار حتى أيامه كان يشكل علامة هامة للبحارة القادمين الى الاسكندرية ، وأن البحارة كانوا يشـــاهدونه على بعد مائة ميل من الميناء موقدا بالليل ، وانهم يتوصلون بفضل هدايتــه الى ميناء الاسكندرية » • (١) هذا وقد أشاد كل من ابن حوقل (٢) وابن زولاق بعظمة الاسكندرية فى تلك الفترة (٣) •

(١) Fahmy: Op. Cit., p. 29.

(٢) المسالك والممالك ، ص ٩٩ .

(٣) اورد ابن زولاق ان الرسول صلى الله عليه وسلم مدح الاسكندرية وورد عنها قوله : « الاسكندرية أحد العروسين » (فضائل مصر واخبـــارها وخواصها ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٨١٦ ؛ ورقة ١٣ أ) .

ازدهار القلزم والفسطاط

القلزم ميناء قديم هام يقع على الطرف الشمالى للبحر الاحمر ؛ يبعد مسيرة يوم جهة الجنوب عن الميناء البطلمى القديم ارسينوى كليوباتريس (١) ؛ ويبعد مسافة كيلو ونصف كيلو شمالى مدينةالسويس الحالية (٢) • وترجع أهمية هذا الميناء الى ما قبل الفتح العربى لمصر ؛ فقد ورد اسم القلزم وقلزم مصر أو جسر القلزم فى الكتابات اليونانية القديمة ؛ كما ورد اسم جزيرة كليسما (Klysma) فى الكتاب المقدس (٣) ولأهمية هذا الميناء بنيت خارجه — جهة البحر — قلعة فى العهد البيزنطى ظلت قائمة حتى أواخر القرن السابع الهجرى (٤) • هذا وقد أختلف فى تفسير كلمة القلزم وفى معرفة معناها الحقيقى ؛ ويبدو أن أصل هذه الكلمة ليس عربيا (٥) •

---

(١) Quatrémere: Memoires Geographiques, T. I, p. 177.

(٢) كانت القلزم منطقة عسكرية هامة على البحر الاحمر زمن اليونان والرومان والبيزنطيين ، ولا يزال التل القائم بجوار السويس يعرف باسم قلعة القلزم وفى القرن الرابع الهجرى نشأت قرية صغيرة جنوب مدينة القلزم بكيلو ونصف اسمها السويس وما لبثت مع الايام أن طغت على القلزم وأصبحت هى ميناء مصر الهام على طرف هذا البحر من ناحية الشمال (Rushbrooke: Western Arabia and the Red Sea, p. 102).

(٣) Maspero et Wiet: Matériaux pour servir à la geographie de L'Egypte, p. 149.

(٤) أورد ابو صالح الارمنى (كنائس واديرة مصر ، نشر ايفيتس ، اكسفورد ١٨٩٥ ، ص ٨٨) انه شاهد هذه القلعة ومن المعلوم ان ابا صالح قد توفى سنة ٦٠٥ هـ

(٥) ذكر ابو صالح الارمنى (كنائس واديرة مصر ص ٨٨) بأن معنى القلزم هو (الحبل الذى يستخدم فى ربط الملابس) ، وذكر المقريزى (الخطط جـ ١ ، ص ٢١٢) بأن معناها : (الدواهى والمضايقة) ، واورد بعض المؤرخين بأن هذا الاسم كان يطلق على البحر الاحمر اذ كان يسمى بحر القلزم لانه يقع فى منطقة ضيقة بين سلسلتين من الجبال ، بينما أورد البعض الآخر بأن هذا البحر أخذ اسمه من مدينة القلزم التى تقع على طرفه الشمالى . (Maspero et Wiet: Op. Cit., p. 149).

وأصبح القلزم فى صدر الاسلام ميناء مصر الرئيسى فى البحر الاحمر ، وأدت أعادة حفر خليج أمير المؤمنين الواصل بين الفسطاط والقلزم الى زيادة أهميته نظرا لما يقوم به من الوصل بين مصر والحجاز ولكونه ميناء عاصمة مصر • وقد تأيد ذلك بما عثر عليه من أوراق البردى اليونانية فى القرن السابع الميلادى ؛ وبما نعرفه من بناء بعض سفن الاسطول الاسلامى به فى هذه الفترة على يد الصناع القبط [١] •

وكان تجار الغرب يفدون اليه من الفرما ومنه يركبون البحر الى الجار (ميناء المدينة وقتئذ) ثم الى جدة ومنها الى عدن فى طريقهم الى سواحل الهند • ويذكر اليعقوبى أن القلزم كان ميناء مصر الى الحجاز واليمن • وأن به سفنا كبارا تعبر البحار العالية وأن جل سكانه من التجار الاغنياء [٢] • وذكر « المقدسى » أنه كان يرسل منه مالا يقل عن ثلاثة آلاف جمل محملة بالبضائع كل أسبوع عابرة خليج أمين المؤمنين وذكر أيضا أن القلزم خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج [٣] • وكان يوجد بالقلزم دار للصناعة [٤] ولهذا كانت القلزم قاعدة للاسطول المصرى فى البحر الاحمر فى صدر الاسلام ، ويتضح لنا ذلك من واقع وثائق البردى التى وجدت وترجع الى عهد ولاية « قرة بن شريك » على مصر (٩٠ — ٩٦ هـ) [٥] • واستمرت أهمية القلزم قائمة حتى أواخر

---

(١) احمد دراج : عيذاب ، مقال بمجلة نهضة أفريقية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٥٦ •

(٢) البلدان : تحقيق جاستون فييت ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٩٩ •
(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ج ١ ص ١٩٦ •
(٤) استمرت دار الصناعة بالقلزم حتى زمن الادريسى ، وقد نقل لنا كيف كانت تصنع السفن فى هذه الدار (أنظر : نزهة المشتاق ، ص ١٢٤ ، ١٢٥) •

كذلك أورد لنا المقريزى كيفية صنع سفن القلزم (الجلاب) عند حديثه على مدينة عيذاب (أنظر : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٢) •
(٥) Fahmy: Op. Cit., p. 27.

القرن الرابع الهجرى (١) .

هذا عن القلزم ، أما الفسطاط فقـــــد كانت أهم مراكز مصر التجارية منذ أنشائها (٢) ، ومحطة كبرى لتجارة المـرور بين الشرق والغرب حتى نهاية القرن الثالث الهجرى (٣) .

وقد أهلها لهذه المكانة السامية موقعها على النيل وتوسطهـا بين الوجهين القبلى والبحرى واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل وفضلا عن ذلك فانه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب (٤) .

وكانت السفن ترد الفسطاط فى أعداد كبيرة ، وكان ساحلها كثـير العمارة بالمراكب وأصناف الارزاق التى تصل من جميع اقطار الارض . وفى هذا يقول ابن سعيد المغربى « ان ما يرد على الفسطاط من تاجـر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى فوق ما يوصف وأن بها مجمـع ذلك ومنها يجهز الى سائر البلاد (٥) » . ويتضح مما ذكره المؤرخـون المسلمون فى وصف الفسطاط أنه كانت هناك أماكن مخصصة لرســـو كل نوع من انواع السفن بها . فمثلا كانت المراكب المشحونة بالحبوب ترسو فى موردة الحلفاء من الساحل ، وفى ناحية اخرى منه كانت ترسو

---

(١) فى نص أورده ابن زولاق اشار فيه ان القلزم ميناء تجارى هام فى أيامه . (Wiet et Maspero : Matériaux, p. 149).

(٢) Stanly Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 17.

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 215.

(٤) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٤٠ .

(٥) على بهجت : حفريات الفسطاط ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص ٣٣ (نقلا عن ابن سعيد) .

المراكب المشحونة بالاخشاب المخصصة لبنـــــاء المراكب أو لاشغال التجارة (١) •

وأسهب المؤرخون والرحالة ممن زاروا الديار المصرية فى العصور الوسطى فى وصف عظمة الفسطاط ورخائها الكبير ، فقد حدثنا عنهـا الاصطخرى والمقدسى وناصرى خسرو •

قال الاصطخرى عنها : « هى مدينـة مصر العظمى •• على غاية العمارة والخصب ومعظم بنائها بالطوب طبقات وربما بلغت طبقـــات الدار الواحدة ثمانى طبقات (٢) »

وأورد المقدسى عن الفسطاط قوله : « هو مفخر الاسلام ومتجر الانام وأجل من مدينة السلام • خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامـر الموسم ، ليس فى مصر من الامصار آهل منه ، كثير الاجلة والمشـاريخ عجيب المتاجر والخصائص حسن الاسواق والمعـايش • الى حماماته المنتهى ولقيا سيره لباقة وبها • ليس فى الاسلام اكبر مجالس من جامعه ولا أحسن تجملا من أهله ولا أكثر مراكب من ســـاحله (٣) » • وذكر المقدسى أيضا انه أثناء سيره على ســاحل النيل فى الفسطاط كان يرى الاعداد الهائلة من المراكب الراسية والســائرة (٤) • وذلك دليل على نشاط حركة الملاحة والتجارة فى ميناء الفسطاط بسبب رواج التجـارة العالمية فى ذلك الوقت التى كانت تمر بها ذهابا وأيابا • فى العصر الفاطمى أثناء زيارته لها (٥) •

---

(١) على بهجت : نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .
(٢) المســالك والممالك ، تحقيق جابر الحينى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٩ .
(٣) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ج ١ ص ١٩٧ .
(٤) المقدسى : نفسه ، ص ١٩٨ .
(٥) أنظر فيما بعد .

هذا وقد أورد « ناصرى خسرو » الرحالة الفارسى نفس القول عنها أثناء زيارته لها فى العصر الفاطمى (١) .

ولم تزل الفسطاط مزدهرة الى أن بنى الفاطميون مدينة القاهرة وعمروها فتقهقر حالها وتناقص وأخذ الناس فى الانتقال منها الى القاهرة (٢) . ثم كانت نهاية الفسطاط على يد الوزير « شاور » وذلك حين أمر باحراقها (٣) . هذا وينعى القلقشندى الفسطاط بقوله : « انك اذا نظرت الى خطط الكندى والقضاعى والشريف النسابة لعرفت ما كان الفسطاط عليه من العمارة وما صار اليه بعد ذلك (٤) » .

---

(١) أنظر فيما بعد .

(٢) على بهجت : حفريات الفسطاط ، ص ١٣ .

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 215.

— استعمل فى حريق الفسطاط عشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ، واستمرت النار تأتى على مساكن الفسطاط من اليوم التاسع والعشرين من صفر سنة ٥٦٢ هـ لتمام أربعة وخمسين يوما من ثم تحولت الفسطاط الى تلك الاطلال المعروفة الآن بكيمان مصر (على بهجت : حفريات الفسطاط ، ص ١٦) .

(٤) صبح الاعشى : جـ ٣ ، ص ٣٣٣ .

الباب الثاني

(تجارة البحر الاحمر)

(زمن الطولونيين والاخشيديين)

— تدهور تجارة البحر الاحمر فى العصر العباسى الاول — ازدهار تجارة الخليج العربى وازدهار موانيه ٠

— عودة تجارة البحر الاحمر الى نشاطها السابق فى العصر العباسى الثانى — ثورة الزنج — ثورة القرامطة ٠

× سوء معاملة السلطات الصينية للتجار العرب ٠

× تشجيع الاسرة الزيادية باليمن للتجار الاجانب بارتياد ميناء عدن ٠

— سياسة الطولونيين ازاء تجارة البحـــر الاحمـــر وبلاد الحجاز ٠

— الاخشيديون يواصلون سياسة الطولونيين فى البحر الاحمر وفى بلاد الحجاز

تدهور تجارة البحر الاحمر فى العصر العباسى الاول

حرص العباسيون ، منذ أن أقاموا خلافتهم فى بلاد العراق ، على أن يجعلوا هذه البلاد مركز الثقل السياسى والحضارى فى الدولة الاسلامية (١) • ولتحقيق ذلك كان عليهم ان يحولوا طريق تجارة العالم من البحر الاحمر والبلاد المطلة عليه الى الخليج العربى وبلاد العراق •

ونجح العباسيون فى عصر خلافتهم الاول فى تحقيق هذه السياسة ففقد طريق البحر الاحمر نشاطه وأصبح دوره التجارى ثانويا ، وانتقل هذا النشاط تدريجيا الى الخليج العربى وازدهرت الموانى التى تقع عليه • ومن ثم حلت موانىء هذا الخليج وهى ، سيراف والبصرة والابلة محل مينائى الفرما والقلزم فى استقبال سفن الشرق الاقصى (٢) •

وكان ردم خليج امير المؤمنين على يد الخليفة « المنصور » العباسى سنة ١٤٥ هـ أول الخطوات التى خطاها العباسيون لوقف نشاط تجارة البحر الاحمر • وقد تذرع الخليفة المنصور فى عمله ذلك برغبته فى تجويع الحجاز ليقضى بذلك على ثورة « محمد ذى النفس الزكية » •

فقد أدى ردم الخليج الى تدهور كبير فى تجارة البحر الاحمر وقتذاك ، ويظهر هذا التدهور جليا اذا ما قورن حجم التجارة فى هذا البحر بعد الردم بالحجم الذى كانت عليه زمن البيزنطيين واوائل عهد الامويين • ففى بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) اختفت هذه التجارة الا من أيدى اليهود الرازانية (الريدانية) الذين ظلوا

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, pp. 166-167.

(٢) احمد دراج : عيذاب ، ص ٥٦ •

يسلكون هذا الطريق برغم ردم خليج امير المؤمنين ، وظلوا يعبـــرون برزخ السويس الى البحر الاحمر حاملين بضائعهم على ظهور الدواب ليصلوا الى القلزم ومنها الى عدن ثم الى بلاد الهند والصين (١) .

واقتصر العمل فى مياه البحر الاحمر على عدد يســير من السفن الصغيرة عرفت بسفن القلزم . وكانت تقوم بنقل بضــائع الشرق من عدن الى مصر .

ومما يعكس لنا حالة الركود التى أصابت الملاحـــة والتجارة فى البحر الاحمر فى ذلك الوقت ذلك الوصف الذى وصف به هذا البحـــر البحار العربى الشهير (أبو يزيد الســيرافى) المعاصر لتلك الفتـــرة الزمنية (٢) ، فقد قال عنه أنه بحر مظلم كريه الروايح لا خير فى بطنه ولا فى ظهره (٣) .

وتبعا لما أصاب البحر الاحمر من تدهور فى تجارته أصـــاب نفس التدهور والخمول التجارة المصرية فى موانىء البحر الابيض (٤) .

وفى الوقت الذى تدهورت فيه أحوال التجارة فى البحر الاحمـــر وأصاب الركود موانيها انتعشت التجارة فى الخليج العربى وازدهرت موانىء هذا الخليج وتدفقت المتاجر والسلع على موانىء البصرة والابلة وسيراف (٥) . وحلت هذه الموانىء محل مينائى عدن والقلزم فى استقبال سفن الشرق الاقصى (٦) .

---

(١) احمد عيسى : القوى البحرية ، ص ١٩٠ .

(٢) عاش ابو يزيد السيرافى فى النصف الثـــانى من القرن الثالث الهجرى ومات فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى ، وكان معـــاصرا للمؤرخ الجغرافى العربى المسعودى .

(٣) أبو يزيد السيرافى : أخبار الصين والهند ، سلسلة جامع التواريخ نشر Reinaud باريس ١٨٤٥ ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ .

(٤) احمد عيسى : القوى البحرية ، ص ١٩١ .

(٥) Wiet : Les Marchands d'épices, p. 81.

(٦) احمد دراج : عيذاب ، ص ٥٦ .

وكان ميناء « البصرة » من أهم موانىء العالم التجـارية بسبب موقعه على شط بحر العرب ملتقى الرافدين ؛ وبلغت مدينـة البصرة المرتبة الثانية فى الاهمية بعد بغداد فى عهد الرشيد (١) • فقـد كانت سفن المحيط ترسو فى مياهها وعمرت البصرة آنذاك بالاسـواق التى أمتلات بالمتاجر والسلع وخاصة سلع تجارة الشرق • وكان المربـد « أكبر أسواق البصرة وأعمرها تجارة (٢) »• وقد عاش الجاحظ فى البصرة فيما بين منتصف القرن الثانى ومنتصف القرن الثالث الهجريين حينمـا كانت العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق ؛ وقد وصف البصرة بقوله « — « •• كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ومحطة رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين الى مفاوز الصـحراء الكبرى » — وأضاف الجاحظ عن البصرة قوله بأنها باب بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا (٣) •

وكانت لاهالى البصرة سفن خاصة بهم يتاجرون بها فى أعـالى البحار ويصلون بها الى الهند والصين (٤) •

أما الابلة فكانت ميناءا صغيرا هاما يقع ما بين نهر دجلة ورافده نهر الابلة بالقرب من البصرة وعبادان على الخليج العربى • وكان هذا الميناء يشارك البصرة فى أهميتها التجارية فى استقبال السفن القادمة من الشرق عبر الخليج والتى كانت تحمل سلع الشرق الهـامة (٥) ؛ وفى

---

(١) اسس ميناء البصرة سنة ١٧ هـ فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب . (اليعقوبى : البلدان ، نشر فييت ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٦٧) .

(٢) Navdi Rashid: Industry and commerce under the Abbasids (JPHS, V. I, Karachi 1953, Part II, p. 255).

(٣) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، تحقيق السيد حسن حسنى التونسى ، دمشق ١٩٣٢ ، ص ١ .

(٤) Navdi: Op. Cit., p. 259.

(٥) الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٨١ .

استقبال التجار العاملين فى تجارة الشرق (١) .

أما سيراف (٢) ، فقد بناها الخلفاء العباسيون على الجانب الشرقى من الخليج العربى لخدمة تجارة الشرق ولاستقبال السفن الكبـــرى القادمة من أعالى البحار والتى كان يتعذر عليها دخــول دجلة بسبب الرمال التى كانت تأتى مع مياه هذا النهر وتسد مدخله (٣) .

وغدت سيراف أهم المدن التجارية فى العالم فيمـــا بين القرنين الثالث والرابع الهجريين (٤) ، وصارت محطة للسفن القادمة من الصين والمتجهة اليها من ميناء كانتون (٥) وكانت قريبة الشبه بميناء سنغافورة الحالى من حيث أنها محطة تجميع وتصريف للتجارة العالمية (٦) .

وبلغ أهل سيراف مبلغا كبيرا من الثراء بسبب الازدهار التجارى الذى كانت تعيش فيه آنذاك مدينتهم . فقد ذكر الاصطخرى « أن أهل سيراف كانوا أيسر أهل فارس ، وان منهم من تجاوز ماله ستون مليون

---

(١) زار الابلة فى سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م تاجر بحار من الاندلس يعرف باسم محمد بن معاوية المروانى وينحدر من سلالة الخلفاء الامويين بالاندلس وكان يسكن قرطبة ، وقد جمع هذا التاجر من تجارته فى الهنـــد ٣٠ الف دينار .

(Wiet : Les Marchands d'épice, p. 82).

(٢) تقع سيراف على مسافة ميل من غربى مدينة بندر طاهرى ومسافة ٢٠٠ ميل جنوبى شرقى ميناء بوشير الايرانى الشهير . وما زالت خرائب سيراف موجودة للآن ، ومن الممكن الوصول اليها من بوشير بالسيارة .

(Lamb : A visit to Siraf (JRAS, V. 37, Part I, 1964, p. 2).

(٣) Reinaud : Relation des Voyages, Paris 1945, T. I, pp. 43-44).

(٤) ظلت سيراف مزدهرة حتى نهاية القرن الرابع الهجرى الى ان اخذت فى التدهور وحل مكانها فى القرن الخامس الهجرى ميناء جزيرة قيس (كيش) ودمرت الزلازل — سيراف تماما سنة ٣٦٧ هـ ٩٧٧ م (Lamb : Op. Cit., p. 9) وبعد أن تدهورت أحوال ميناء كيش حل محلها ميناء هرمز التى استمرت مزدهرة حتى الكشوف الجغرافية (Reinaud : Op. Cit., p. 53).

(٥) Wiet : Histoire de L'Egypte Arabe, T. IV, p. 167.

(٦) Lamb : Op. Cit., p. 9.

درهم لم يكتسبها الا من تجارة البحر ، كما ذكر أنهم كانوا منتشرين فى مدن سواحل الخليج كلها (١) » •

كما نبغ أهالى سيراف فى الملاحة فى مياه الخليج ومياه الهند ، وتوارث الابناء عن الاباء أسرار الملاحة فى هذه المياه حتى أصبحت هنالك عائلات فى سيراف تتوارث الملاحة الى شواطىء الهند (٢) • هذا وقد كانت لاهالى سيراف سفن كبرى تختلف عن سفن بحر القلزم وتحتمل السفر فى المحيط الهندى (٣) •

وقد أورد « المسعودى » أنه سافر فى الخليج العربى مع تجار سيراف مرات عديدة ، وأشاد بمهارة البحارة السيرافيين وتحديهم للاخطار التى تعترض الملاحة فى اعالى البحار (٤) •

هذا وقد انعكس صدى هذا النشاط التجارى والبحرى فى تلك الفترة فى الاعمال الادبية التى تركها كتاب ذلك الوقت ممن ركبوا البحر وعملوا فيه •

وأول ما كتب عن هذا النشاط البحرى هو كتاب « صلة الصين والهند » ، الذى كتبه الملاح « سليمان التاجر السيرافى » سنة ٢٣٧ هـ(٥)

---

(١) الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ١٥٤ •

(٢) Sauvaget : Instructions Nautiques Arabes pour mers de L'Inde JA, 1948, T. 236, pp. 16-18.

(٣) Wiet : Les Marchands d'épice, p. 82.

(٤) مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٤٥ •
Freeman-Grenivlle : The East African Coast, Oxford 1962, p. 14.

(٥) قام سليمان برحلات عديدة من سيراف الى الهند والصين وكتب كتاب رحلاته هذا الذى يقع فى جزئين والذى قام بنشره رينو Reinaud بعنوان :
(Relations des Voyages, Paris 1848.)

وقد سلك سليمان فى رحلاته ، كما أورد فى كتابه ، طريق التجارة للهند الذى كان متبعا فى العصر العباسى ، وكان الملاحون يبدأون فيه رحلتهم الى بلاد الهند والصين اما من بغداد والبصرة أو من سيراف حتى ساحل مليار وسيلان وجاوه ثم الى الصين (١) .

وقد أكمل كتاب الصلة مــلاح آخـــر وهو « أبو يزيد حسن السيرافى » (٢) ، وأورد فى كتابه أنه سلك طريقا مغايرا لطريق سليمان (٣) وقد عاصر أبو يزيد المؤرخ الجغرافى المسعودى وكان صديقا له . (٤) وذكر أبو يزيد أن أكثر السفن الصينية كانت تحمل تجارتها من سيراف وتتجه الى مسقط ومنها الى كولون فى الهند ثم كانتون فى الصين . كما أورد ان ملوك الهند والصين كانوا يقرون بأن ملوك العرب هم حكماء الارض وان أول الملوك فى العالم هو خليفة بغداد ويليه فى المرتبة ملك الصين ثم ملك الرومان ثم ملك الهند (٥) . وتحدث أبو يزيد عن مدينـــة « خانفو » بالصين ووصفها بأنها مجتمع التجار وذكر أنه كان بها رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون الى تلك الناحية يرضى عنه ملك الصين ويصلى فى العيـــد بالمسلمين ويخطبهم ويدعو للخليفة العباسى (٦) ..

ومن أهم الكتابات التى تعكس ازدهار التجارة فى الخليج العربى فى ذلك الوقت قصة « السندباد البحرى » التى وردت فى كتـــاب « ألف ليلة وليلة » . وكان السندباد البحرى تاجرا يعيش أيام الخليفـــة

---

(١) Reinaud : Op. Cit., I, pp. 14-15.

(٢) Heyd : Histoire du Commerce, T. I, pp. 28-29.

(٣) Reinaud : Op. Cit., I, p. 53.

(٤) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٠٨ .

(٥) Blanch Tapier : Les Voyageurs Arabes au Moyen Age, Paris, 1937 pp. 37-38.

(٦) ابو يزيد السيرافى : اخبار الصين والهند ، نشر رينو ، ج ١ ، ص ١٤ .

« هارون الرشيد » ؛ وكان يركب البحر من البصرة ويسير فى المحيط الهندى مع تجار الهند ويتاجر فى بلاد الهند • وقد اقتنى السندباد من وراء تلك الرحلات التجارية ثروات طائلة فى الوقت الذى راج فيه طريق البصرة الى بلاد الهند وتعطل طريق مصر • وقد أورد « الزمخشرى » فى كتابه « تاريخ السندباد » (١) سبع حكايات على لسان السندباد تحكى كلها مغامراته وتفاصيل احداث رحلاته فى بلاد الهند والارباح الطائلة التى حققها من وراء تجارة الهند • وبرغم مافى هذه الحكايات من بعض المبالغات والخرافات الا أنها تعكس لنا حالة التجارة البحرية الزاهرة آنذاك بين بلاد الهند وبلاد العراق عبر الخليج العربى (٢) •

ووصلت قمة الكتابة عن الملاحة فى أعالى البحار على يد الملاح العربى « ابن ماجد » واعتبر ابن ماجد نفسه — كما ورد على لسانه فى كتاباته — انه أهم من كتب عن الملاحة والتجارة فى بحار الهند وانه أكثر الناس استفادة من التجارب التى مر بها من سبقه فى هذا المضمار(٣) وقد تحدث ابن ماجد ، الذى عاش فى القرن التاسع الهجرى عن تاريخ

---

(١) الزمخشرى : تاريخ السندباد ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٢٢٨ ، ورقة ١٢ ، ١٣ .

(٢) يقول السندباد فى حكايته الثالثة (ورقة ١٣ أ) : « لما اشتقت الى المتجر شددت الاحمال والثقال والامتعة وسافرت من بغداد حتى وصلت ساحل البحر ومعى من البضايع فنزلت فى البحر مع تجار أخيار وسرنا ايام وليالى مدة من الزمان نبيع ونشترى ونأخذ ونعطى ونحن فى تجارة وربح بلا خسارة » . وأورد السندباد فى حكايته السادسة أنه وصل الى جزيرة سرنديب بالهند وأنه قابل ملكها وحمل منه هدايا الى الخليفة هارون الرشيد . كذلك ذكر السندباد فى حكايته السابعة انه سلم هدايا الى ملك سرنديب من الخليفة هارون الرشيد .

(الزمخشرى : تاريخ السندباد ، ورقة ٣٧ أ) .

(٣) Sauvaget: Op. Cit., pp. 16-18.

الملاحة فى المحيط الهندى وفى البحر الاحمر منذ القرن الثالث الهجرى وحتى عهده فى كتاب « الفوايد فى علم البحر والقواعد » ؛ وتحدث عن الملاحة فى البحر الاحمر أيضا فى ثلاث قصائد شعرية طويلة اطلق على الاولى منها « كتاب الهوية » واطلق على الاخـــــرى اسم « كتاب السبئية أما الثالثة فأسماها (المكية) (١) •

هذا وقد ورد فى كتب هؤلاء الملاحين وفى كتب من أرخوا لهـــذه الفترة ازدهار مدينة بغداد بسبب هذا الرواج التجارى فى مـــوانىء الخليج العربى وأنها اصبحت آنذاك قبلة تجارة العـــالم (٢) • وبلغت بغداد فى عهد الرشيد والمأمون قمة ازدهارها بسبب كثرة العائد عليهـا من تجارة الشرق وبسبب امتلاء أسواقها بسلع هذه التجارة (٣) •

وقد انعكس ازدهار بغداد فى ذلك الوقت فى ذلك الترف الفائق الذى زخر به البلاط فى عهد الخليفة الرشيد والمأمون ، كذلك فى حيـــاة الترف التى عاشتها طائفة من كبار التجار العـــرب والفرس فى ذلك الوقت (٤) ؛ وهم التجار الذين كانوا يعملون فى تجارة أعالى البحـــار

---

(١) Tibbetts, : Arab Navigation in the Red Sea, (GT. 127 (1961), pp. 322-326).

(٢) Heyd : Op. Cit., I, p. 27.

كان فى بغداد سوقان رئيسيان ، اولهما الكرخ على الجانب الايمن من دجلة وثانيهما سوق الثلاثاء على الجانب الايسر منه ، وكانا عامرين بالخيرات وبسلع الشرق فى ذلك الوقت

(Canard : Bagdad au IV Siécle de L'hegrie, ARABICA, Leiden 1962, p. 280).

(٤) كتب الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) كتيبا خاصا بالتجارة اسماه « فى مدح التجار وذم عمال السلطان » ولم يتبق من هذه المقالة سوى صفحتان • وفى هذا المقال يقرر الجاحظ أن تجار بغـداد والبصرة كانوا فى وضع اجتماعى ومالى طيب وانهم كانوا أكثر استقلالا واقل تأثرا بالتغيرات الســياسية

(De Somogyi : Trade in Classical Arabic Literature W.M. vol. LV, No. 2, 1965, p. 131).

وكانوا ينافسون الخلفاء فى ثرائهم (١) • كذلك كان لتجار يهود فارس ثروات ضخمة بسبب هذه التجارة مع الهند • فكان « الجاءون سعديا (Gaon Saadya) » رائد التجار اليهود العراقيين فى الربع الثانى من القرن الثالث الهجرى من اغنى الشخصيات التى عاشت فى العراق فى ذلك الوقت (٢) • وقد أورد الرحالة « بنيامين التطيلى » الذى زار ميناء كيش فى القرن السادس الهجرى ، بأن بها خمسمائة تاجر يهودى كان أجدادهم قبل ذلك يعيشون فى ميناء سيراف عيشة طيبة (٣) • كذلك أورد أن عامل سيراف فى أوائل القرن الرابع الهجرى كان يهوديا اسمه « روزباه » (٤) وقد تركز التجار اليهود فى منطقة الاهواز ، وكانت فى القرن الثالث الهجرى محطة تجارة الشرق لتجار اليهود الرازانية • وعاش تجار اليهود فى « تستر » وأصفهان أيضا وكان لهم فيها نشاط تجارى كبير (٥) •

أما عن السلع التى كانت ترد بغداد فى ذلك الوقت فقد تنوعت

---

(١) كان ابن الجساس جواهرى بغداد ينافس الخلفاء فى الثروة ، ودليل ذلك انه صودرت منه مرة ١٦ مليون دينار وعاد بعد ذلك الى مركزه المالى الاول كأن شيئا لم يكن وأورد التنوخى أن تاجرا عاش فى القرن الرابع الهجرى كان دخله فى العام ٢٠٠ الف دينار ، وذكر أن رصيد تاجر آخر بلغ ٢٠ مليون دينار .
(Navdi: Op. Cit., pp. 259-260).

(٢) Goitein: Jews and Arabs, p. 118.

(٣) Lamb: Op. Cit., p. 9.

(٤) Fischel: Jews in the economic life, pp. 31-33.

(٥) تحدثت المصادر عن بيتين يهوديين كانا على اتصال بالبلاط وكانا من كبار رجال المال والتجارة والصيرفة وهما : بنو سهل ، الاول بيت أبى سعد ابراهيم بن سهل التسترى والثانى بيت أبى نصر هارون بن سهل التسترى ، وينتسب بنو سهل الى مدينة تستر التى كانت فى الثلث الاخير من القرن الثالث الهجرى مركزا تجاريا واقتصاديا هاما . وقد أورد مسكويه انه كان لليهود فيها نصيب كبير من هذا النشاط . وقد نزح هذان البيتان اليهوديان من تستر الى بغداد وسكنا حى اليهود الخاص بهم فى بغداد
(Fischel: Op. Cit., pp. 69-70).

وتعددت مصادرها ، وتأخذ حاصلات تجارة الشرق نصيب الاسد من هذه السلع • فقد كان يرد اليها من الهند : العاج ، الصندل ، الكافور ، العنب • اللؤلؤ ، والتوابل • أما من الصين فكان يرد اليها : الورق ، العقاقير الطبية ، الذهب ، الفضة ، المسك والعطور (١) • فضلا عما كان يرد اليها من بلاد الحجاز من أغنام وابل وخيول عربية •

وهنالك مقالة صغيرة للجاحظ بعنوان « التبصر بالتجارة » أورد فيها قائمة بأسماء السلع التى وردت الى بغداد فى القرن الثالث الهجرى تضم أنواعا عديدة من حاصلات تجارة الشرق (٢) •

وقد استمر تدفق هذه السلع على بغداد وبلاد العراق طوال القرن الثالث الهجرى ، ولكن هذا التدفق توقف فى أواخر هذا القرن بسبب التطورات التى حدثت فى بلاد العراق وادت الى توقف التجارة فى مياه الخليج العربى وعودة النشاط التجارى الى مياه البحر الاحمر •

---

(١) Navdi : Op. Cit., p. 257.

(٢) حقق هذه المقالة السيد حسن التونسى واخرجها فى كتيب بنفس عنوانها ، دمشق ١٩٣٢ م.

(عودة تجارة البحر الاحمر)
الى نشاطها السابق فى العصر العباسى الثانى

عادت للبحر الاحمر أهميته التجارية الاولى فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل القرن الرابع ، وكان ذلك بسبب تعرض التجارة للخطر فى الخليج العربى بسبب قيام ثورة الزنج وثورة القرامطة اللتان نشبتا فى العراق وفى منطقة البحرين • كذلك ادت سوء معاملة السلطات الصينية للتجار العرب الى احجام هؤلاء التجار عن الذهاب الى الصين وقصر نشاطهم التجارى فيما بين الهند والبحر الاحمر فنشطت عدن من جديد • وعملت الاسرة الزيادية التى كانت تحكم اليمن وقتئذ على تشجيع التجار الهنود والصينيين على ارتياد ميناء عدن •

وثورة الزنج كانت من أهم الاحداث التى اتعبت الخلافة العباسية زهاء خمس عشرة عاما وأدت الى تدهور الملاحة فى الخليج العربى ووقف نشاط تجارة الهند والملاحة العالمية بسبب الفوضى التى أثارتها وعمت جنوب العراق (١) • وقد سميت هذه الثورة بهذا الاسم لان صاحبها — الذى ادعى أنه من آل البيت — جمع اليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ فى البصرة وقادهم للثورة ضد اوضاعهم الاجتماعية السيئة (٢) وبدأت هذه الثورة فى عهد الخليفة « المهتدى » العباسى فى سنه ٢٥٥ هـ وانتهت فى عهد الخليفة « المعتمد »• واستمال صاحب الزنج بفصاحته وبلاغته قلوب زنوج البصرة ونواحيها من عمال موانىء الخليج العربى وغيرهم من الدهماء ودعاهم للخلاص من الرق والعبودية فاجتمع اليه منهم عدد كبير وعظم شأنه وقويت شوكته وأغتنى بعد

---

(١) Sauvaget : Op. Cit., p. 19.

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، الجزء الاول ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ١٧ .

فقر (١) • وكانت لصاحب الزنج حروب وغزوات انتصر فيها وازداد مركزه قوة بعد انتصاره وانبث الزنوج عساكره يعيثون فسادا فى غالبية البلاد العراقية والبحرين ، وغطت الثورة منطقة المستنقعات كلها ما بين البصرة وواسط (٢) •

وأدت احداث هذه الثورة الى الفوضى السياسية والاقتصادية فى بلاد العراق ، الامر الذى عطل دولاب العمل فيها وادى بالتالى الى توقف تجارة الشرق بسبب ما كانت تتعرض له سفن التجار من تجرم الزنج فى البحر • هذا وقد استولى الزنج مرة فى ميناء البصرة على ١٩٠٠ سفينة وكان بها قوم من الحجاج ، كذلك استولوا على مائتى سفينة أخرى كانت تحمل دقيقا ونهبوا ما عليها (٣) •

ولما اشتد خطر هذه الثورة هب « الموفق طلحة » أخ « الخليفة المعتمد » لمحاربة صاحب الزنج وللقضاء على ثورته بعساكر كثيفة والتقى جيش الخلافة مع جيش صاحب الزنج فى مواقع عديدة بين البصرة وواسط • ودامت الحرب بين الفريقين سنين عديدة استولى الزنج خلالها على معظم مدن جنوب العراق وموانىء الخليج • وبنى الزنج لهم مدنا وعاصمة لهم سموها « المختارة » • وظلت الحرب سجالا بين الزنج وقوات الخليفة الى أن انتهت أخيرا فى سنة ٢٧٠ هـ بهزيمة الزنج وابادتهم وأسر من بقى منهم وقتل صاحب الزنج وتدمير عاصمته المختارة (٤) •

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٦٧ .

(٢) Zaky Hassan : Les Tulunides, étude de L'Egypte Musulmane à la fin du IXe siècle, Paris 1933, p. 42.

(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٦٩ .

(٤) قتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠ هـ فى عهد خلافة المعتمد على الله احمد يوم السبت الثانى من صفر ، وكان خروجه يوم الاربعاء ٢٦ رمضان سنة ٢٥٥ هـ ، وكانت ايامه اربع عشرة سنة واربعة اشهر وستة ايام (ابن الاثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥) .

— ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة القاهرة ١٣٥٢ هـ ، جـ ٣ ، ص ٢٢ .

وبمقتل صاحب الزنج انتهت هذه الثورة التى عطلت الحياة فى العراق وجلبت الركود الى مياه الخليج والموات الى موانيه (١) ، وكانت سببا فى توالى الثورات والمتاعب على الخلافة العباسية . ذلك لانه ما كادت ثورة الزنج تنتهى حتى اندلعت ثورة اخرى كانت لها آثار سيئة بعيدة المدى على الحياة السياسية والاقتصادية فى الخلافة العباسية وهى ثورة القرامطة . وقد اندلعت هذه الثورة سنة ٢٨٨ هـ (٢) . واستمرت مشتعلة حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (٣) .

والقرامطة كانوا شيعة يعملون على نشر المذهب الاسماعيلى . وقد عرفوا بذلك الاسم نسبة الى كبير دعاتهم « حمدان بن الأشعث » الملقب « بقرمط » (٤) .

وبدأت ثورة القرامطة من بلدة واسط (٥) ، وكان خروجهم فى عهد الخليفة « المعتضد بن الموفق طلحة » (٦) واستولوا سنة ٣١١ هـ على

---

(١) Sauvaget : Op. Cit., p. 19.

(٢) حاول صاحب ثورة القرامطة أن يتفق مع صاحب ثورة الزنج على الاشتراك معا فى ثورة واحدة قبل اندلاع ثورته ولكن صاحب ثورة الزنج لم يرض بشروط صاحبه لذلك لم يتفقا .
(سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٥٠٥ جـ ١ ، ورقة ٢٢٢ أ) .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٤٩ .

(٤) يقال انه سمى قرمط لقصر قامته ورجليه ويرى ايفانو أن « كرامته » كلمة معروفة عند اهالى بلاد العراق الجنوبية ولم تستعمل فى العربية . ومعناها الفلاح أو القروى ، ثم عربت الى قرمط وان حمدان بن الاشعث عرف بهذا الاسم وسمى أتباعه باسمه (محمد جمال الدين سرور : نفوذ الفاطميين فى جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٣١) ولمعرفة تفاصيل حياة حمدان قرمط ، انظر : ابن الاثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٤٧ — ١٤٩) .

(٥) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 106.

(٦) المقريزى : السلوك ، الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ١٧ .

البصرة • ونجح القرامطة فى اقتطاع بلاد البحرين عن الدولة العباسية حيث كان « أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى » أحد قوادهم يعمل على نشر دعوتهم فى هذا الاقليم منذ سنة ٢٨٣ هـ (١) • وقد وجدت تعاليم القرامطة مرعى خصيبا لدى الاهالى وعلى الاخص لدى فلول ثورة الزنج والاعراب الذين كانوا دائما على استعداد للانضمام لاى حركة ثورية ضد العرب أو غيرهم ما دامت تتيح لهم فرصة السلب والنهب (٢) • وزاد خطر القرامطة على العالم الاسلامى حين هاجموا مكة ونهبوا الحجاج وقتلوهم فى المسجد الحرام ثم أخذوا الحجر الاسود وعادوا به الى الاحساء (٣) • وفى سنة ٣٢٣ هـ فرضوا اتاوة على الحجاج يؤدونها اليهم مقابل حمايتهم والمحافظة على أرواحهم (٤) • وبذلك أصبحت الخلافة العباسية عاجزة عن حماية رعاياها من المسلمين وتأمين طريقهم الى بلاد الحجاز فضلا عن عجزها من حماية بلاد العراق نفسها من خطر القرامطة الذين أشاعوا الرعب والذعر بين الناس •

هذا ولم تكن أحداث ثورة الزنجوالقرامطة هما العاملان الوحيدان اللذان اثرا فى تدهور احوال الخلافة العباسية السياسية والاقتصادية ، فقد اضطربت احوال هذه الدولة بسبب سيطرة القواد الاتراك على السلطة وبسبب ما أثاره منصب أمير الامراء من النزاع بين هؤلاءالقواد للاستئثار بهذا المنصب • وقد انتهت هذه الفترة المضطربة بدخول البويهيين بغداد واستئثارهم بالسلطة سنة ٣٣٤ هـ • وكانت هذه

---

(١) تمكن ابو سعيد الجنابى من الاستيلاء على مدينة « هجر » عاصمة بلاد البحرين بعد حصار دام سنتين واتخذ مدينة « الاحساء » عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التى اسسها فى هذه البلاد سنة ٢٨٦ هـ .
(محمد جمال الدين سرور : نفوذ الفاطميين ، ص ٣١ ، ص ٣٢) .

(٢) محمد جمال الدين سرور : نفس المصدر ، ص ٣١) .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن فى اخبار اليمن ، تحقيق محمد عبد الله ماضى ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٣٠ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ٣٦ .

الاحداث كفيلة باثارة الاضطرابات فى الدولة وشل نشاطها التجارى
هذا وقد ساءت فى ذات الوقت معاملة السلطات الصينيةللتجار ال
الامر الذى ادى الى توقف هؤلاء التجار عن ارتياد موانى الصين و
نشاطهم التجارى على الهند والبحر الاحمر • وقد ادى ذلك الى ع
النشاط الى ميناء عدن (٣) •

وكان حكام الصين فيما سبق ، يعاملون التجار العرب معاملة د
ولهذا تردد التجار العرب على موانيهم وخاصة على ميناء كانتون (
كذلك على مدينة « خانفو » التى كانت مجمع التجار (٤) ، وكانت تد
هذه المدينة سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان و
الهند بالسلع والامتعة المتنوعة •

ويرجع المؤرخون تغير معاملة السلطات الصينية للتجار العرب
الانقلاب الذى قام به فى مدينة خانفو ثائر من غير البيت الحاكم ي
« ببانشوا » واستولى عليها سنة ٢٦٤ هـ ، وكان هــذا يكره الاج
وكان ميالا الى سفك الدماء ، فلما قام بالثورة قتل من المسلمين والي
والنصارى والمجوس سوى من قتل من أهل الصين مائة وعشرين
رجل كانوا قد نزحوا الى هذه المدينة وصاروا تجارا فيها (٥) •

---

(١) ...avaget : Op. Cit., pp. 19-20.
(٢) احمد دراج : عيذاب ، ص ٥٦ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٠٨ .
(٤) الخاصكى : أخبار الصين والهند مخطوطة ، ورقة ٢٤ ب .
— أطلق عليها المســـعودى اسم خانقوا (مروج الذهب ، ج
...ص ١٣٧) .

(٥) الخاصكى : اخبار الصين والهند ، مخطوطة ، ورقة ٢٥ أ .
(أورد المسعودى ان عدد من قتل فى ثورة بانشوا وصل الى ٢٠٠
— مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٣٨) .

وكان خراب مدن الصين على يد هذا الرجل الذى استمر فى اثارة الرعب وسفك الدماء مدة طويلة الى أن تغلب عليه فى آخر الامر صاحب البلاد الاصلى • ووقعت بسبب ذلك حروب عظيمة فى الصين الامر الذى ادى الى حدوث فوضى كبيرة فى البلاد والى انتشار المجاعات فيهـــا واستقلال امراء الاقاليم باماراتهم (١) • وعن تعرض التجارة والتجار لاخطار احداث الصين يقول أبو يزيد السيرافى : « وامتدت يد حـكام الصين الى ظلم من قصدهم من التجار من نواخـــدة العرب وارباب المراكب فألزمــوا التجـــار مالا يجب عليهم وغلبوهم على أموالهم وأستجازوا ما لم يجر الرسم به قديما فى شىء من أفعالهم الامر الذى أدى الى أمتناع السفن والربابنة والادلاء بسيراف وعمان عن الذهاب الى بلادهم (٢) » ، وأقتصر نشاط التجار العرب بسبب ذلك على البحـر الاحمر وعاد النشاط ، فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، لميناء عدن من جديد •

وكان يحكم اليمن آنئذ الاسرة الزيادية (٣) التى استغلت الموقف لصالحها وعملت على تشجيع التجار الهنود والصينيين على ارتياد ميناء عدن لتحقيق المكاسب الهائلة من وراء تجارة الشرق ألتى عادت لتمـر

---

(١) ابو يزيد السيرافى : أخبار الهند جـ ٢ ، ص ٦٥ .
المسعودى : مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ١٣٩ .
(٢) اخبار الصين والهند ، جـ ٢ ، ص ٦٧ .
(٣) حكمت الاسرة الزيادية بزبيد باليمن من سنة ٢٠٤ هـ حتى سنة ٤١٢ هـ ، واختط محمد بن عبد الله بن زياد مدينة زبيد بامر الخليفة المأمون فى شعبان سنة ٢٠٤ هـ واتخذوها حاضرة لهم (الواسعى : البدر المزيل للحزن فى فضل اليمن ، القاهرة ١٣٤٥ هـ ، ص ٢٣) .

بعدن ثغر بلادهم الهام (١) • وقد بلغت عدن قمة أزدهارها فى عهد أبى الجيش أسحق (٢) ؛ وشاهد ذلك ما أورده « عمارة اليمنى » عن ثراء اسحاق هذا اذ يقول عنه : « رأيت مبلغ ارتفاع اعمال ابى الجيش اسحق بن ابراهيم بن زياد سنة ٣٦٦ هـ من الدنانير ألف الف عشريا خارجا عن ضرائبه على مراكب الهند من الاعداد المختلفة • والمسك والكافور والصينى والصندل وخارجا عن ضرائب العنبر على السواحل بباب المندب وعدن وأبين والشحر وغير ذلك ، خارجا عن ضرائبه على معادن اللؤلؤ وعن ضرائبه على صاحب مدينة دهلك • وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر تهاديه وتستدعى مواصلته » (٣) • وذكر « ابن المجاور » أنه كان يرسل فى كل عام تحت جبل « صيرة » بعدن ما بين سبعون وثمانون مركبا يحصل منها رسوم ما قيمته ستون الف دينار سنويا (٤) •

---

(١) كانت بلاد اليمن فى حوزة العباسيين بعد ان انتقلت اليهم الخلافة وصار الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم واتخذوا صنعا عاصمة لهم ، وحدث اضطراب فى هذه البلاد بسبب ذيوع الدعوة الشيعية بين أهلها فاختار الخليفة المأمون لولايتها محمد بن عبد الله الزيادى سنة ٢٠٤ هـ ، لما كان يعرف عنه من قوة وحزم وحكم هذا الوالى اليمن مع المحافظة على ولائه للخلافة العباسية ونجح فى جعل ولاية اليمن وراثية فى أبنائه من بعده تدين بالطاعة للعباسيين .

(محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ٦١) .

(٢) حكم اسحق من سنة ٢٩١ هـ حتى سنة ٣٧١ هـ .

(زامباور : معجم الاسرات ، ج ١ ص ١٧٩) .

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، نشر هنرى كاسل كى ، لندن ١٨٩٢ ، ص ٦ .

(٤) تاريخ ابن المجاور ، تحقيق لوفجرن فى كتابه :

Arabische Texte zur Kenntnis der stadt Aden in Mittelater, I, Leiden 1936, p. 65).

سياسة الطولونيين ازاء تجارة البحر الاحمـر وبلاد الحجاز (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ)

لم يكن أحمد بن طولون حين حكم مصر فى عهد الخليفة المعتمـد على وفاق مع أخيه الموفق احمد • فقد عمل الموفق على القضاء على حكم ابن طولون ، الامر الذى جعل ابن طولون يتصرف من جانبه بما يدعم مركزه فى داخل البلاد وخارجها فقام بمحاولة استدراج الخليفة المعتمد الى مصر ليستفيد من تأييده له فى صراعه ضد أخيه وليظهر بمظهر المدافع عن الخلافة • ولما أفسد الموفق خطة ابن طولون فى نقل كرسى الخلافة الى مصر وقام بعزله وبتولية غيره عليها • رد ابن طولون من جانبه بخلع الموفق عن ولاية العهد فى اجتماع دينى عقده بدمشق • كذلك قام بتجريد حملة عسكرية الى الحجاز لتدعيم موقفه ضد الموفق ولاحـراز شرف السيادة على الاماكن المقدسة • ولكن الهزيمة التى لحقت بقوات ابن طولون فى مكة ولعنه من فوق المسجد الحرام اثر تأثيرا سيئا على مركزه فى الشام الامر الذى ادى الى خروج بعض عماله عليه والى هزيمـة قواته فوق أراضيها •

وكان أحمد بن طولون قد ولى مصر فى ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ هـ (١) وتغلب على الصعوبات التى قابلته فيها واستغل لصالحه الخـلاف بين الخليفة المعتمد واخيه الموفق احمد واستطاع بعطاياه وهداياه ان يحافظ على مركزه فى مصر (٢) • وحين قسم الخليفة المعتمد ادارة الدولة بين

---

(١) ولى ابن طولون مصر فى ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ هـ من قبل الخليفة العباسى المعتز بالله محمد وظل واليا عليها فى عهد خليفته المهتدى محمـد (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) وفى عهد المعتمد على الله أحمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) • (زامباور : معجم الانساب ، جـ ١ ، ص ٤٢) •

(٢) سيدة كاشف : احمد بن طولون ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١١٥ •

ابنه المفوض جعفر وأخيه الموفق أحمد اعترف به الخليفة نائبا عن ابنه جعفر فى حكم مصر وكانت نصيبه فى الاقطاع واضاف اليه فضلا عن ذلك ولاية الخراج • ولقد استغل الموفق طلحة فرصة حرب الزنج وضعف أخيه المعتمد وابنه جعفر وفرض وصايته على أخيه الضعيف واصبح الحاكم الفعلى لدولة الخلافة (١) •

وقد وقع الخلاف بين ابن طولون والموفق احمد بسبب أن الموفق كان فى حاجة الى اموال كثيرة للقضاء على ثورة الزنج ، ولم يكن دخل الاقاليم الشرقية التى كان الموفق صاحب اقطاعها بكاف لسد نفقات تلك الحرب الطاحنة ومن ثم أرسل يطلب الاموال من مختلف ولايات الدولة بما فيها مصر برغم أنها من اقطاع جعفر (٢) • وقد قام ابن طولون بارسال بعض المال الى الموفق ولكن هذا المبلغ لم يرضى الموفق فكتب الى ابن طولون كتابا شديدا يلومه فيه ويعنفه أشد العنف (٣) • وأمر الموفق ، فى نفس الوقت ، القائد « موسى بن بغا » الوصى على اقطاع جعفر بتجريد حملة ضد ابن طولون وعزله عن ولاية مصر وتعيين « أما جور الخادم » بدلا منه (٤) • وامتثل بغا لأمر الموفق وسار

---

(١) « .. كان المعتمد مستضعفا وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره وكانت دولة المعتمد عجيبة الوضع وكان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة للمعتمد الخطبة والتسمى بامرة المؤمنين ولاخيه طلحة الامر والنهى وقوة العساكر ومحاربة الاعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والامراء . وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته » (سيدة كاشف : أحمد بن طولون ، ص ٥٤ ، نقلا عن ابن الطقطقى) .

(٢) Zaky Hassan : Les Tulunides, p. 58.

(٣) ارسل ابن طولون مع نحرير رسول الموفق مبلغ مليون ومائتى ألف دينار فضلا عن بعض الطلبات الاخرى.
(Zaky Hassan : Op. Cit., p. 59.)

(٤) Zaky Hassan : Op. Cit., p. 60.

بحملته ضد ابن طولون ، لكن هذه الحملة لم تؤد الغرض الذى قامت من أجله وتوقفت عند الرقه بسبب الخلاف الذى نشب بين أفرادها ، وبذلك فشلت المحاولة العسكرية الوحيدة لاخضاع ابن طولون الامر الذى قوى مركزه فى مصر وثبت سلطانه فيها •

وقد رد ابن طولون على الموفق فى سنة ٢٦٦ هـ بضرب عملة جديدة سك أسمه عليها الى جانب اسم الخليفة ولم يورد بهـا أسم الموفق ، وكانت النقود فى عهد الخليفة المعتمد تضرب فى مصر حتى ذلك العام بأسم الخليفة وأسم أخيه الموفق • وقصر ابن طولون ذكر أسم الموفق فى خطبة الجمعة بوصفه وليا للعهد بعد جعفر المفـوض • ولم يحذف ابن طولون اسم الموفق من الخطبة الا فى سنة ٢٦٨ هـ ، وبذلك قضى على كل اعتراف من جهته بالموفق (١) •

والملاحظ أن أحمد بن طولون ظل دائما معترفا بالخليفة العباسى المعتمد ، وكان حريصا كل الحرص على حصر النزاع بينه وبين الموفق أحمد واخراج الخليفـة من دائرة هذا النزاع (٢) • وكان مرد حرص ابن طولون على ارضاء الخليفة ذلك النفوذ الدينى الذى مازال يتمتع به الخليفة آنذاك (٣) •

ويورد « ابن سعيد الاندلسى » أن ابن طولون زيادة فى اظهـار ولائه للخليفة أراد أن يخرج بقواته الى بغداد ليخلص الخليفـة من سيطرة أخيه عليه عملا بيمين البيعة له ولكن رجال المشورة أثنوه عن

---

(١) سيدة كاشف : ابن طولون ، ص ١٠٧ •
(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV. p. 120.
(٣) ابن سعيد الاندلسى : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق زكى حسن وشوقى ضيف ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٢٧ •

ذلك (١) • وقد شجع ابن طولون الخليفة العباسى على الخروج الى مصر وربما قصد بذلك أن ينقل مركز الخلافة العباسية الى مصر (٢) لـكن الموفق أعاد الخليفة الى بغداد وأحبط خطة ابن طولون (٣) • وكان ابن طولون قد توجه الى الشام فى سنة ٢٦٩ هـ لاستقبال الخليفة (٤) •

وأستصدر الموفق أحمد بسلطانه على أخيه قرارا بعزل ابن طولون واعتباره مغتصبا للسلطة وخارجا عن الخلافة وعقد ولاية مصر لاسحق ابن كنداج (٥) • كذلك أجبر الموفق أخيه المعتمد بالكتابة لكل حكام الدولة بلعن ابن طولون على المنابر (٦) •

وقد رد ابن طولون على الموفق بعقد اجتماع دينى فى دمشق فى ذى القعدة سنة ٢٦٩ هـ حضره الفقهاء والقضاة وأقروا فيه بحنث الموفـق

---

(١) ــ ابن سعيد الاندلسى : المغرب فى حلى المغـرب ، تحقيق زكى حسن وشوقى ضيف ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٢٧

(٢) سيدة كاشف : احمد بن طولون ، ص ١١٦ .

(٣) خرج ابن طولون الى الشام لاستقبال الخليفة واتجه صـوب الرقة ، ولكن عيون الموفق أبلغوه الخبر فأرسل الموفق الى اسحق بن كنداج يأمره باللحاق بالخليفة ورده الى بغداد ، وقد قام اسحق بذلك وعاد الخليفة شبه سجين فى شعبان سنة ٢٦٩ هـ (سيدة كاشف : ابن طولون ، ص ١٠٧ ، ١٠٨) .

(٤) ارسل ابن طولون الى الخليفة خطابا وهو فى دمشق جاء فيه : « وقد منعنى الطعام والشراب والنـوم خوفى على أمير المؤمنين • اطال الله بقـاءه ــ من مكروه يلحقه واصبحنا بأصحاب أمير المؤمنين فى رده.ومقارعه لحنث الايمـان المؤكدة له فى اعناقنا وقـد اجتمع عندى مائة الف عنان مؤلفة قلوبهم مجتمعة آراؤهم شديد بأسهم وانا أرى لسيدى أمير المؤمنين ــ أدام الله عزه بالنصر والتمكين ، الانجذاب الى مصر ، فان أمره [illegible] بعد الامتهان الى نهاية العز ولا يكن فيه ما يخافه فى كل لحظة منه عليه » . (ابن سعيد الاندلسى : المغرب ، ص ١٢٦ ، ١٢٧) .

(٥) Zaky Hassnn : Op. Cit., p. 88.

(٦) كانت صيغة لعنه كالآتى : « اللهم العنه لعنـا يفل حده ويتعس جده واجعله مثلا للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين » (سيدة كاشف : ابن طولون ، ص ١٠٩ ، نقلا عن ابن سعيد) .

بالبيعة التى فى عنقه لاخيه وخلعه لذلك من ولاية العهد (١) •

هذا ولم يكتف ابن طولون بذلك بل جهز فى نفس العـام حملـة عسكرية ولى عليها اثنين من قواده وأرسلها الى مكة لتدعيم موقفه ضد الموفق واحراز شرف السيادة على الاماكن المقدسة • وكان عدد أفراد هذه الحملة متواضعا وتكون من ٤٧٠ فارس وألفى راجل (٢) • وحمل جيش ابن طولون معه الاموال الطائلة لشراء ولاء أهل الحجاز وما أن وصل الجيش الى مكة حتى فر من أمامه « هارون بن محمد » واليها من قبل الخلافة وأستولت قوات ابن طولون على مكة ووزع قواد الجيش الاموال والهبات على الاهالى (٣) •

وما أن أستقرت قوات ابن طولون فى مكة حتى أرسل والى مكـة الى الموفق يطلب النجدات ، فأرسل اليه جيشا بقيادة جعفر الناعمورى استطاع أن يوقع الهزيمة بقوات ابن طولون بفضل معاونة أهل خراسان له (٤) • وفى أعقاب الهزيمة أستولى قائد قوات الموفق على مبلغ مائتى ألف دينار كانت مع جيش ابن طولون ، كما قـرىء كتاب الخليفـة فى المسجد الحرام بلعن ابن طولون (٥) •

وقد كان لهزيمة قوات ابن طولون فى مكة ولعنه فوق منبر المسجد الحرام أثر كبير على مركزه فى الشام اذ خرج عليه بعض عماله • كمـا

---

(١) كتب فى ذلك كتاب ورد فيه ان ابا احمد قد خلع الطاعة وبرىء من الذمة فوجب جهـاده على الامة ، وشـهد على ذلك جميع من حضر الا ثلاثة ، هم القاضى بكار بن قتيبة ومحمد بن ابراهيم الاسكندرانى وفهد ابن موسى •
(سيدة كاشف : ابن طولون ، ص ١٠٩) •

(٢) Zaky Hassan : p. 89.

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٣٢ •

(٤) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٤٥ ، ٤٦ •

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ، ص ١٣٢ •

ثار ضده « يازمان الخادم » والى المصيصة وأوقع الهزيمة بقواته فى الشام (١) • وقرر ابن طولون العودة من الشام الى مصر سنة ٢٧٠ هـ بسبب مرضه الذى أودى بحياته (٢) •

وقبل أن يترك ابن طولون دمشق أعاد بناء قبر الخليفة الاموى معاوية بن أبى سفيان الذى هدمه العباسيون ورتب على هذا القبر قراءا يقرءون عليه القرآن • وكان هذا ردا على عداء الموفق له وفى نفس الوقت عملا أراد به أن يمتص غضب أهل الشام بعد الهزيمة التى لحقت به على أرضهم (٣) •

وقــد أهتم ابن طولون بدعم اقتصــاد مصر ، فأهتم بالزراعــة والصناعة والتجارة وقلل من اعتماد اقتصاد مصر على الخلافة (٤) • وقد لقيت التجارة منه اهتماما خاصا وخاصة تجارة البحر الاحمر • ولتنشيط تجارة هذا البحر قام باصلاح موانيه وتسهيل الوصول اليها والخروج منها • وقام بتوسيع ترسانة الجزيرة ، وأعد أسطولا عظيما لخدمة هذه التجارة ولحماية سفن التجار من أخطار التجرم فى البحر (٥) • وقد أورد المدائنى « أن قيادة هذا الاسطول كانت فى ايدى « أبى كامل شجاع ابن أسلم » رئيس الترسانة البحرية ، وقد أمره ابن طولون الا يدخــر وسعا فى زيادة قطع هذا الاسطول ليحمى حدود البلاد ويحمى تجارتها

---

(١) ابن ســـعيد الاندلسي : المغـــرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) وصل ابن طولون الى الفسطاط فى جمادي الآخـــرة سنة ٢٧٠ ووافته المنية ليلة الاحد لعشر خلون من ذى القعــدة ـــ (سيدة كاشف : ابن طولون ، ص ١١٢) .

(٣) Zaky Hassan : Op. Cit., p. 89

(٤) Bernard Lewis : The Fatimids and the route to India, (Revue de la Faculté des Sciences Economie d'université d'Istanbul V. II, Istanbul 1949-1950, p. 51).

(٥) Fahmy : Muslim Sea Power, p. 43.

فى البحار • ومن المعروف أن ابن طولون خلف عند وفاته أسطولا قوامه مائتى سفينة مزودة بأحسن العتاد (١) •

وأستفاد الطولونيون من عائد التجارة اذ فرضـــوا ضرائب على التجارة الداخلية وأخرى على التجارة الخارجية التى تمـــر بالموانىء والبلاد الواقعة على الحدود المصرية سواء أكانت ترد عليها ام تصـــدر منها (٢) • وكان يجبى عن تجارة الشرق والغرب رسوم كثيرة بسبب كثرة السفن التى كانت ترد الى البلاد ماره بين الشرق والغرب• وشاهد ازدهار التجارة فى هذا العهد ما أورده ابن خرداذبه عن استمرار نشاط التجار اليهود الرازانية فى تجارة الشرق فى أيامه ، هذا وقد عاش ابن خرداذبه أيام ابن طولون (٣) • ولنترك الحديث للارقام للتدليل على أزدهـــار التجارة آنذاك • ويتضح من هذه الارقام أن الطولونيين قد حصلوا من رسوم التجارة سنة ٢٩٦ هـ مبلغ مليون دينار (٤) •

وبسبب انتقال مركز التجارة العالمية الى مصر وازدهار تجـــارة البحر الاحمر فى العهد الطولونى وفدت الى مصر فى ذلك العهد ، عناصر تجارية لاستغلال أموالها وخبراتها فى التجارة العالمية ، وكانت أغلب هذه العناصر من التجار الفرس • وقد أستوطنت الفسطاط جالية عظيمة من تجار فارس منذ القرن الثالث الهجرى ، وأسهمت هذه الجماعة بنصيب موفور فى ازدهار مصر التجارى فى ذلك العهد (٥) وبالاضافة الى ما تحقق

---

(١) Ibid, pp. 44-45.

(٢) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٤٠ •

(٣) Zaky Hassan : Op. Cit., p. 238.

(٤) أشار لمبارد أن قيمته ذهبا آنذاك بلغ ثمانية آلاف كيلو جرام : (Lombard : L'or musulman du VII^e et XI^e siècle - AESC, 1947, No. 1, p. 149).

(٥) حسن احمد محمود : حضارة مصر الاسلامية (العصر الطولونى)، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٤٧ •

لهذه الجالية من مكانه مالية فقد أصبحت تتمتع أيضا بمكانة اجتماعية مرموقة [١] • وكان أكبر تجار ذلك الوقت واكثرهم مالا فى مصر رجل من أصل فارسى وهو « أبو بكر محمد بن على الماذرائى » [٢] •

كذلك وفدت الى مصر فى العصر الطولونى أعداد كبيرة من تجار يهود فارس الذين كانوا يعملون فى تجارة الشرق عبر الخليج العـربى بسبب تعطل هذا الطريق وعودة تجارة الشرق الى طريقها الاول [٣] • وقد أوردت لنا وثائق الجنيزة بعض أسماء هؤلاء التجار الذين نزحوا فى القرن الثالث الهجرى الى مصر من العراق وايران وبلاد ما وراء النهر ؛ وهو ما يتضح من أسمائهم مثـل : السمرقنـدى ، والنيسـابورى ، والتسترى ، والبغدادى ، والبصرى [٤] •

كما برز من بين المصريين عدد من كبار التجار ، كانوا لا يقلون غنى أو ثروة عن تجار الشرق ، وكان منهم من يعمل فى تجارة الشرق بجانب

---

(١) اخذ احد قضاة الفسطاط مرة ثلاثين شاهدا من تجار الفـرس فى احد القضايا الهامة وكان لا يؤخذ للشهادة اصلا الا من وصل الى مركز مرموق فى البلاد .
(آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣) .

(٢) ينتمى الى اسرة الماذرائيين التى كانت صاحبة النفوذ الاكبر فى مصر فيما بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الاخشيدية . وهـذه الاسرة اسرة فارسية الاصل تنسب الى ماذرايا او مادرايا وهى قرية من اعمـال البصرة وقيل من اعمال واسط . ولم تصل هذه الاسرة الى الثروة والسلطان الا بسبب نزوح كثير من افرادها الى مصر ولسنا نعرف تماما متى كان خروج اول عضو منها الى هذه البلاد والراجح انه وفد الى مصر فى حاشية واليها احمد بن طولون . ولما لقى فيها الرخاء والنجاح استدعى اليه من العـراق نفرا من افراد اسرته وتبعهم آخرون واتيح لبعض اعضاء هـذه الاسرة ولاية طائفة من الوظائف الرئيسية فى مصر (سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٧ ، ٣٨) .

(٣) Fischel : Jews in economic life, p. 70.

(٤) Goitein : Jews and Arabs, pp. 113-114.

اشتغاله بالتجارة المحلية • وكان أشهر تجار مصر فى ذلك الوقت التاجر « محمد الجوهرى » صديق ابن طولون والذى كان له وكلاء كثيرون فى أسواق الشرق كلها (١) •

وعمل ابن طولون نفسه فى التجارة لحسابه الخاص ، اذ حسن له بعض التجار العمل فى التجارة فدفع لهم مرة خمسين ألف دينار ليتاجروا له فيها (٢) •

وانعكس الرواج الاقتصادى الذى اصابته مصر فى عهد الطولونيين بسبب ازدهار تجارة الشرق والبحر الاحمر فى ذلك الوقت ، على عملتها القوية آنذاك • فقد سك أحمد بن طولون دينارا ذهبيا خاصا به ومستقلا عن الدينار العباسى فى سنة ٢٦٦ هـ • وعرف هذا الدينار باسم « الدينار الاحمدى » ، وكان مساويا فى قيمته ودرجة نقاوته للدينار العباسى ، اذ كانت نسبة النقاوة فيه تتراوح ما بين ٩٦٪ ، ١٠٠٪ وقد وصل وزن غالبية الدنانير الذهبية المصرية التى وصلت الينا والتى يرجع عهدها الى تلك الفترة الزمنية الى ٤ر١٥ جرام و ٤ر١١ جرام ، وكان متوسط الوزن ٤ر١٣٢ جرام (٣) ، وتثبت لنا نقاوة هذا الدينار ، بدون شك ، ارتفاع المستوى الاقتصادى فى مصر فى عهد الطولونيين نتيجة للسياسة الاقتصادية الحكيمة التى اتبعها الطولونيون فى دولتهم المستقلة (٤) •

كذلك تحدثنا الارقام المالية التى وصلتنا من المصادر التاريخية عن ذلك العصر على مدى متانة اقتصاد مصر فى عهد الطولونيين • ففى عام

---

(١) حسن احمد محمود : حضارة مصر الاسلامية (العصر الطولونى) ص ٢٤٦ •

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٦ ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٥٠٥ ، ورقة ٢٠٦ أ •

(٣) Ehrenkrutz: Byzantine Tetartera and Islamic dinars, (JESHO, Part II, 1964, p. 187).

(٤) Ehrenkrutz: **Studies** in the Monetary history of the Near East in **Middle Age** — (JESHO, II, 1959, p. 150).

٢٥٤ هـ الذى تولى فيه ابن طولون ولاية مصر أرسل الى الخليفة فى بغداد خراجا قدره ٧٥٠٫٠٠٠ دينار ، وبعد توليه الحكم بأربع سنوات ارتفع الخراج الى ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار ، ثم وصل الخراج أقصاه فى عهده الى ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ دينار (١) .

وقد خلف ابن طولون عند وفاته ثروة طائلة ، أجمع المؤرخون على أنها بلغت عشرة ملايين دينار نقدا عدا ما خلفه من أشياء أخرى عالية القيمة (٢) .

كما برز ازدهار مصر الاقتصادى فيما حدثتنا عنه المصادر عن ذلك الثراء الفاحش الذى عاش فيه « خمارويه » ثانى حكام بنى طولون والذى تجلى فى قصره الفخم الذى أقام به أشجارا صناعية من الذهب والفضه وجعل فيه بحيرة ملأها بالزئبق . كذلك فى ذلك الجهاز الفخم الذى جهز به أبنته أسماء « قطر الندى » عند زواجها من الخليفة المعتضد . وقد شاهد المؤرخ اليعقوبى ذلك الثراء الذى كانت تعيش فيه مصر حين زارها سنة ٢٩٢ هـ وذكر ذلك فى كتابه البلدان (٣) .

ولم يقتصر ثراء مصر فى ذلك الوقت على السلطان وبلاطه ، فقد عاش الشعب أيضا هذا الرخاء . وقد أزدهرت الفسطاط والقطائع أيام الطولونيين وأمتلأت أسواقها بالخيرات وعمرت بمختلف أنواع السلع ، وقد شهد بذلك الاصطخرى وابن حوقل اللذان زاراها فى هذه الفترة (٤) . كذلك ازدهرت مدينة الاسكندرية بسبب عودة نشاط تجارة الشرق الى

---

(١) محمد عيسى : القوى البحرية ، ص ٢٥٦ .

(٢) ابن زولاق : تاريخ مصر : مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٨١٧ ، ورقة ٤٢ أ — سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوطة ، جـ ٦ ، ورقة ٢٠٨ أ .

(٣) انظر : البلدان ، نشر فييت ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٢٤٣ .

(٤) Clerget: Le Caire, I., p. 120.

موانيها وأحتلت المكانة التى كانت لبغداد (١) .

ويحكى لنا « البلوى » الذى أرخ لابن طولون جهود هذا الحاكم فى توفير الرخاء فى البلاد بقوله : « وكان شغله واهتمامه باسعاد بلده وسائر ما بعد بلدانه وكان يسعى فيما يرخص الله جل اسمه به أسعارهم وجميع ما يباع فى بلده وسائر بلدانه . فكان الرخص به عاما فى كل بلد من سائر الاطعمة وكان السبيل به أمنا والارزاق ببركته دارة والنعمة من الله جل وعلا على سائر الناس مترادفة متكاثفة (٢) » .

---

(١) Heyd : Op. Cit., I, p. 40.

(٢) سيرة احمد بن طولون : نشر محمد كرد على ، دمشق ١٩٣٩ ، ص ٣٦٤ .

(الاخشيديون يواصلون سياسة الطولونيين)
فى البحر الاحمر وفى بلاد الحجاز (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ)

استطاع محمد بن طغج الاخشيد ، بعد أن ولى مصر ، أن يدعم مركزه فيها وأن يتغلب على المصاعب التى واجهته ، وأن يعمل على دعم اقتصاد البلاد وتنمية مواردها ، وقد نهج الاخشيد مع الخلافة العباسية نفس نهج الطولونيين معها ، واستطاع باستمرار ولائه لها أن يوسع سلطانه فى مصر والشام وأن تكون له الولاية على الحرمين الشريفين •

وقد ولى محمد بن طغج مصر مرتين ، الاولى فى سنة ٣٢١ هـ ، ولم تستمر مدتها أكثر من شهر (١) ، والثانية سنة ٣٢٣ هـ حتى وفاته (٢) • وعاصر الاخشيد ، فى سنوات ولايته على مصر ، عهد الاضطراب الذى ساد الخلافة فى بغداد وعرف بعهد « امرة الامراء » (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ) • وتولى فى هذا العهد مقاليد الامور فى بغداد عدد من الامراء والقواد الاتراك أستطاعوا أن يسلبوا السلطة من الخلفاء : الراضى والمتقى والمستكفى (٣) •

وقد أصطدم الاخشيد سنة ٣٢٨ هـ بأمير الامراء « ابن رائق الخزرى » حين ظهرت أطماعه فى بلاد الشام • ودخل معه فى حرب أنتهت بينهما بالصلح (٤) • وما لبث أن مات ابن رائق سنة ٣٣٠ هـ فأنتهى بموته

---

(١) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٦٩ — ٧٤ •

(٢) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٦١ — ٦٣ •

(٣) ولى الخليفة الراضى الخلافة من ٣٢٢ — ٣٢٩ هـ ثم اعقبه المتقى من ٣٢٩ — ٣٣٣ هـ ثم المستكفى الذى حكم من ٣٣٣ حتى ٣٣٤ هـ (زامباور : معجم الانساب ، جـ ١ ، ص ٣) •
— عن عصر امرة الامراء انظر : محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٦١ — ٦٣) •

(٤) كانت شروط الصلح بين الطرفين أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمال الرملة وعلى أن يدفع الاخشيد له جزية سنوية قدرها مائة واربعون الف دينار • وقد اضطر الاخشيد لذلك بسبب رغبته فى التفرغ لمواجهة الغزو الفاطمى من ناحية الغرب (محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٥٤ ، ٥٥) •

هذا الصدام وأسترد الاخشيد ما كان قد أخذه ابن رائق من بلاد بدون قتال (١) •

وأصبح الاخشيد بعد خلاصه من ابن رائق أقوى حكام ولايات الخلافة • ونجده يستقل بحكم ولايته استقلالا ذاتيا فيضرب السكة باسمه الى جانب اسم الخليفة (٢) • وقد حرص الاخشيد على أن يظل محافظا على ولائه للخليفة العباسى ، رغم ضعف سلطته ، وقد عرف الخلفاء للاخشيد هذا الولاء وجازوه عليه • فسرعان ما جاء الاخشيد تقليد الخليفة المتقى له بالولاية حين ولى أمر الخلافة بعد الراضى بالله • ويبدو أن الخلفاء العباسيين كانوا ينظرون بعين الرضا للحكم القوى الذى أقامه الاخشيد فى مصر ذلك لانهم كانوا فى حاجة الى وال مخلص قوى يساعدهم فى فك أسر القواد الاتراك لهم • كذلك هم فى حاجة الى هذا الوالى القوى فى مصر بالذات للدفاع عن الخلافة العباسية التى تعرضت لخطر الغزو الشيعى من ناحية الغرب من جانب الفاطميين •

وتؤكد لنا الاحداث التى وقعت فى سنة ٣٣٢ هـ صدق حدسنا ، وذلك حين قام الخليفة المتقى بطلب النجدة من الاخشيد فى صراعه مع أمير الامراء « توزون » • فقد خرج الخليفة الى « الرقة » غاضبا وأتصل بالاخشيد ليساعده فى الخلاص من عدوه • وسارع الاخشيد للقاء الخليفة بالرقة ، وقام بذات الدور الذى سبق أن قام به أبن طولون مع الخليفة المعتمد حين خرج الى الرقة غاضبا من تسلط أخيه الموفق أحمد

---

(١) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٥٥ •

(٢) كانت الدنانير المضروبة فى عهد الاخشيد حتى سنة ٣٢٩ هـ تحمل اسم الخلفاء الراضى (من ٣٢٣ حتى ٣٢٨) والمتقى (سنة ٣٢٩) وابتداءا من سنة ٣٢٩ نقش الاخشيد اسمه على السكة مع اسم الخليفة كما يظهر ذلك فى الدنانير الاخشيدية التى وصلت الينا ويرجع تواريخ ضربها الى سنوات : ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ هـ •
(سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٩٠) •

عليه • وقد عرض الاخشيد على الخليفة المتقى أن يسير معه الى مصر والشام ليكون هو ورجاله فى خدمته أو أن يقيم بالرقة على أن يمده الاخشيد بالمال والرجال للدفاع عن سلطان الخلافة (١) • لكن المتقى ، لاسباب أخفاها فى نفسه ، رفض عروض الاخشيد وآثر العودة الى بغداد (٢) • هذا وقد حصل الاخشيد من المتقى ، نتيجة ابداء هذه العواطف الطيبة نحو الخلافة ، على تقليد بولايته مصر وتقليد لابنه مدة ثلاثين سنة (٣) وقد أقر الخليفة المستكفى ذلك التقليد حين ولى أمر الخلافة سنة ٣٣٣ هـ ، كما أقر من بعده الخليفة المطيع لله سنة ٣٣٤ هـ (٤) كذلك حصل الاخشيد على ولاية اليمن والحرمين الشريفين • وقد أورد ذلك ابن سعيد حين تحدث عن اتساع سلطان الاخشيد فكتب يقول : « ان محمد بن طغج ما زالت همته تعلو وسعادته تعينه الى أن ملك مصر والشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن » (٥) • وقد أشار الاخشيد فى خطابه الى امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٣٢٥ هـ بتقليده أمر مكة فضلا عما كان تحت يده من البلاد وقال : « ••• هذا الى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة فانا لو لم نتقلد غيرها لكان بشرفها وعظم قدرها وما حوت من الفضل توفى على كل مملكة لانها محج آدم ومحج ابراهيم وارثه ومهاجره ومحج سائر الانبياء وقبلتنا وقبلتهم

---

(١) قال الاخشيد للخليفة المتقى : « يا امير المؤمنين انا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الاتراك وفجورهم وغدرهم فالله الله فى نفسك . سر معى الى مصر فهى لك وتأمن على نفسك » (محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة ، ص ٤٥ ، نقلا عن السيوطى) •

(٢) عاد الخليفة الى بغداد فى المحرم سنة ٣٣٣ هـ فعزله توزون وسمل عينيه وحبسه ونادى بابنه عبد الله خليفة وسمى بالمستكفى بالله محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٤٥) •

(٣) قال الخليفة للاخشيد : قد وليتك اعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك او نوجور (سيدة كاشف ، مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٨٥ ، ٨٦ نقلا عن ابن سعيد) •

(٤) سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٨٧ — ٨٩ •

(٥) المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف وزكى حسن ، ج ص ٤٤ •

عليهم السلام (١) • وقد ذكر ابن ظافر الازدى والكندى أن الخليفة المتقى عقد للاخشيد على مصر والشام والحرمين (٢) •

وأشار القلقشندى عند حديثه عن « المدينة المنورة » أيام الاخشيد فذكر أن الاخشيد كان على علاقة طيبة مع واليها الحسن بن طاهر (٣) • وأشار بأن الحسن قد رحل الى مصر فى عهده وأقام بها وأقطعه الاخشيد ما يغل فى كل سنة مائة ألف دينار • وأضاف بأن الحسن ترك بالمدينة أبنه « طاهر » الذى توفى سنة ٣٢٩ هـ ؛ وخلفه من بعده ابنه « محمد » الملقب بمسلم الذى كان صديقا « لكافور الاخشيدى » • وأنهى القلقشندى حديثه عن علاقة الاخشيديين بولاة المدينة بقوله : « لما اختل أمر الاخشيدية دعى مسلم هذا للمعز الفاطمى صاحب أفريقية (٤) » • ويستدل من هذه العبارة الاخيرة أن مسلما هذا كان يدعو للاخشيديين قبل أن يأفل نجمهم ويحتل مكانتهم الخلفاء الفاطميون •

ولقد ظلت السيادة للاخشيديين على الحرمين الى أن أستولى بنوبويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فشاركوهم هذه السيادة ؛ ثم عمل البويهيون على ألا يكون للاخشيديين نفوذ فى بلاد الحجاز • وقام الخلاف سنة ٣٤٢ هـ بين أمير الحج المصرى وأمير الحج العراقى على الخطبة للامير البويهى أو للامير الاخشيدى ؛ وتطور النزاع الى نشوب القتال

---

(١) ابن سعيد : المغرب ، جا ، ص ١٦٩ . — القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ١٣ .

(٢) سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٣) — وهو من الاشراف الحسينيين الذين ولوا أمر المدينة وينتسبون الحسين حفيد الرسول الكريم .

(٤) صبح الاعشى : ج ٤ ، ص ٢٩٨ .
(القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٩٨) .

بين أنصار كل منهما ، فلما أنهزم المصريون أقيمت الخطبة لمعــز الدولة ابن بويه (١) .

على أن تلك الهزيمة لم تقض نهائيا على نفوذ الاخشيديين بمكة والمدينة ، فقد ولى الخليفة « المطيع » كافور الاخشيدى بلاد الحجاز بالاضافة الى مصر والشام وصار يدعى له بمقتضى هذه التولية على منابر البلاد مع الخليفة العباسى . ثم دعى بعد وفاة كافور للحسن بن عبيد الله ابن طغج الاخشيد (٢) .

ولنا هنا ان نتساءل عن القيمة الفعلية لولاية الاخشــيديين على الحرمين وهل حقق الاخشيديون من وراء هذه الولاية ، مكاسبا سياسية أو دينية أو أقتصادية أم انها كانت مجرد ولاية رسمية صورية ؟ ولنـــا أيضا أن نتساءل فى حالة ما اذا كانت هذه الولاية مجرد ولاية رسمية صورية عن اسباب سعى الاخشيديين ورائها واصرارهم عليها وانفاقهم الاموال الطائلة من أجلها ودفاعهم عنها بالسلاح اذا ما أقتضت الضرورة ذلك مثلما حدث فى سنة ٣٤٢ هـ حين حاول البهويهيون أن ينتقصوهم أياها ؟

الحقيقة أنه من الصعب الاجابة على هذه التساؤلات ذلك بسبب قلة ما وصل الى ايدينا من معلومات تتعلق بسياســة مصر تجـاه بلاد الحجاز . واذا ما حاولنا الاجتهاد فى الرد فاننا يجب أن نضع نصب اعيننا الحقيقة الماثلة وهى ان حكم مكة والمدينة فى ذلك الوقت ، كان فى يد الاشراف ــ الحسنين والحسينيين وان السيادة الفعلية على هذه البلاد كانت لهم وأن هؤلاء الاشراف خضعوا اسميا للخلفاء العباسيين أو لمن يقلدهم اولئك الخلفاء حكم هذه البلاد بسبب الصلات التى كانوا

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٨٢ .
ــ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٩٨ .
(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢١

يرسلونها اليهم (١) وكان هؤلاء الاشراف على استعداد للدعاء من فوق منابر الحرمين لاى حاكم مسلم قوى يستطيع أن يجزل لهم العطاء ، وما كان هذا الدعاء ينقص شيئا من سيادتهم على اماراتهم •

والحقيقة الثانية ان الاخشيديين ارادوا ، مثل غيرهم من سائر حكام الولايات ، أن يحققوا من وراء ولايتهم على الحرمين السمعة والمكانة الدينية الطيبة فى العالم الاسلامى وان يحصلوا بذلك على شهادة لهم بالسلطان الواسع الذى حققوه (٢) •

واذا جاز لنا أن نستنتج فى مجال بحثنا ، وهو يهتم فى المقام الاول بتجارة مصر الاسلامية ، انه ليس من المستبعد أن يكون الاخشيديون ، ومن قبلهم الطولونيون قد سعوا من وراء تحقيق سيادتهم على بلاد الحجاز الى حماية طريق تجارة المرور فى البحر الاحمر ، وهذه الحماية يستطيع أن يكفلها لهم أمراء الحجاز اذا هم دانوا لهم بالولاء •

هذا وقد شهد عهد الاخشيديين نشاطا هائلا فى تجارة الشرق ، ذلك ان نشاط التجار العرب والفرس واليهود الذى كان قائما فى البحر الاحمر زمن الطولونيين أزداد واتسع نطاقه فى عهد الاخشيديين ولم يتأثر وضع هؤلاء التجار بتغير واجهة الحكم فى البلاد (٣) • كذلك وفد على مصر فى ذلك العهد ، بعض تجار سورية اليهود وقاموا بدور هام فى تجارة المرور بين مصر والشرق وكون بعضهم ثروات طائلة من وراء هذه التجارة • ويذكر ابن خلكان أن « يعقوب بن كلس » وصل الى مصر قادما من سورية سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ — ٩٤٣ م) وأقام بالفسطاط

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٢٦ •
(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣ •
(٣) سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٢٧٩ •

وأشتغل بتجارة الشرق ، وأتصل بكافور الاخشيدى حين بدأ فى الثراء وأصبح يعرف بأسم « تاجر كافور » • وكان من فرط ثقة كافور به أنه كان يستشيره فى كل أمور البلاد الاقتصادية والمالية والسياسية (١) •

وكانت أسواق الفسطاط فى عهد الدولة الاخشيدية تزدحم بحاصلات تجارة الشرق ، وشاهد على ذلك ما أورده المقريزى فى خططه عن امتلاء حوانيت هذه الاسواق بهذه الحاصلات (٢) • كذلك تلك الحادثة التى أوردها « ابن زولاق » وذكر انها حدثت فى عهد كافور • فقد ذكر أن نارا عظيمة حدثت فى عهد كافور وأنها أحرقت مليون وسبعمائة ذراع من البضائع والاقمشة من سوق البزازين الى قيسارية العسل ، وأن اشتعال هذه النار أستمر لمدة يومين وهى على حالها حتى دب الرعب فى قلوب الناس فركب كافور فيهم ونادى أن من أحضر قربة ماء لاطفاء الحريق له مائة درهم ، فجاء الناس بنحو عشرة آلاف قربة وأطفأوا النار (٣) •

وكان « العنبر » من أهم سلع تجارة الهند التى كانت رائجة سوقها فى مصر فى عهد الاخشيد ، وقد أشتهر الاخشيد بحبه للعنبر وكان أكثر ما يهدى اليه فى الاعياد ، وكان اذا ما جاءت هذه الاوقات التى يهدى اليه فيها أخرج من خزائنه العنبر الى التجار فيشتريه الذين يهدونه اليه فيحصل له الثمن الوافر ثم يعود العنبر اليه • وأقام الاخشيد سنين كثيرة يعمل هذا ، وقيل أنه أجتمع عنده من العنبر قناطير • وقد أحترق فى سنة ٣٤٣ هـ فى دار أبى الفضل بعقبة ابن الخليج لجارية أم أولاده

---

(١) Fischel: Jews in economic life, pp. 47-48.

(٢) عن رخاء الفسطاط أيام الطولونيين والاخشيديين ورواج أسواقها انظر الخطط للمقريزى ، طبعة بولاق . ١٢٧ هـ ، ج ١ ، ص ٣٣٠ — ٣٣٣

(٣) ابن زولاق : تاريخ مصر ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ١٨١٧ ، ورقة ٤٤ ب ، ٤٥ أ .

عنبر كثير كان يشم على بعد ، كما ورد أن الاخشيد لما مات خلف وراءه من العنبر ٨٠٠ رطل (١)

هذا وقد بلغت ثروة بعض تجار مصر الذين عملوا فى تجارة البحر الاحمر فى بداية العهد الاخشيدى درجة عظيمة حتى أن أحدهم وهو « عنان بن سليمان البزاز » خلف وراءه عند وفاته ثروة طائلة صادر منها الاخشيد نحو مائة ألف دينار (٢) • كذلك كان أقتصاد البلاد متينا بسبب عائد هذه التجارة على البلاد وشاهد ذلك احتفاظ دينار مصر فى ذلك العهد بنقاوته التى كان علينا أيام الطولونيين ، برغم الظروف السيئة التى مرت بالبلاد فى أواخر أيامهم • فقد كانت نسبة الذهب الخالص فى هذا الدينار ٩٦٪ وهى نفس النسبة التى كان عليها الدينار المصرى أيام الطولونيين (٣) •

وقد وصلت تجارة البحر الاحمر ، مع نهاية دولة الاخشيديين على مصر وفتح الفاطميين لها ، الى ذروة ازدهارها ، الامـــر الـــذى أدى بالفاطميين الى زيادة الاهتمام بهذا البحر وبتجارته التى أصبحت فى عهد دولتهم أهم موارد الدخل فى البلاد

(١) ابن سعيد الاندلسى : المغرب ، ص ١٨٦ — ١٨٧ •
(٢) سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٢٨٠ •
(٣) Ehrenkreutz: Studies in the Monetary history, pp. 152-153.

الباب الثالث

الفاطميون وتجارة البحر الاحمر
(٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ)

ـ ازدهار تجارة البحر الاحمر فى عهد الفاطميين من واقع وثائق الجنيزة .
ـ تجارة الكارم زمن الفاطميين .
ـ سياسة الفاطميين ازاء الحجاز واليمن .
ـ سياسة الفاطميين التجارية وأثرها على نشاط الحركة التجارية بين مصر وأوروبا .
ـ أزدهار مينائى عدن وعيذاب فى العهد الفاطمى .
ـ رخاء مصر الاقتصادى فى العصر الفاطمى نتيجة رواج تجارة البحر الاحمر ومظاهر هذا الرخاء .
ـ الحروب الصليبية وأثرها على الحركة التجارية بين مصر وأوروبا .

(أزدهار تجارة البحر الاحمر فى عهد الفاطميين)
من واقع وثائق الجنيزة

فى الوقت الذى أتضحت فيه معالم العلاقات التجارية بين دول العالم الاسلامى المطلة على البحر الابيض المتوسط وبين المدن التجارية الاوروبية فى العصور الوسطى بفضل مجموعات الوثائق الهامة التى احتفظت بها دور الارشيف الخاصة بهذه المدن فى ايطاليا وفرنسا وأسبانيا (١) ، فان معالم تجارة البحر الاحمر لم تتضح تماما بعد بسبب افتقارها الى مثل هذه الوثائق • وبرغم أن وثائق الجنيزة ألقت لنا بعض الضوء على هذه التجارة فى العصرين الفاطمى والايوبى الا أننا ما زلنا فى حاجة الى الكثير من الوثائق حتى تتضح لنا الصورة الكاملة لهذه التجارة الهامة فى تلك العصور •

وقد احتفظت دور أرشيف المدن التجارية فى ايطاليا وفرنسا وأسبانيا ببعض الوثائق العربية التى تتعلق بصلة بلادها التجارية مع الدول الاسلامية المطلة على البحر الابيض المتوسط (مصر والشام والمغرب) خاصة من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فصاعدا (٢) • وقد أقتصرت العلاقات بين الجانبين على العلاقة التجارية ذلك لانه لم يكن بين هذه البلاد وبعضها فى العصر الوسيط سوى هذا النوع من العلاقات •

---

(١) احمد دراج : الوثائق العربية المحفوظة فى دور الارشيف الاوروبية (مصر الاسلامية) مقال من ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس — ابريل ١٩٦٩ ج ١ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٢٦ .

(٢)
Goitein : Letters and Documents on the India Trade in Medival Times, (Islamic Culture, London 1963, V. 37, No. I, p. 188).

— نشر بعض هذه الوثائق الا أن عددا كبيرا منها ما زال محفوظا فى دور الارشيف الخاصة بهذه المدن .
(احمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١٢٦) .

ولحسن الحظ تجمع لدينا فى خلال العشرين عاما الماضية مجموعة من الوثائق تتعلق بتجارة مصر فى البحر الاحمر وفى المحيط الهندى زمن الفاطميين والايوبيين ، وهى مجموعة الوثائق العربية اليهودية الناطقة باللســان العــربى والمكتوبة بالخط العبرى والمعــروفة باسم وثائق الجنيزة (١) •

والجزء الاكبر من هذه المجموعة الذى يخدم تجارة البحر الاحمر هو ذلك الجزء الذى كشفه المستشرق جواتيين المتخصص فى دراسة هذه الوثائق (٢) • فقد قام جواتيين بفحص مجموعة وثائق الجنيزة المحفوظة فى مكتبة جامعة كمبردج بانجلترا وعثر أثناء بحثه على مجموعة وثائق تتعلق برحلات تجارية الى الهند عبر البحر الاحمر قام بها تاجر ليبى من بلدة لبدة يدعى « يوسف اللبدى » • وواصل هذا الباحث دراسته عن نشاط هذا التاجر فى مجموعات وثائق الجنيزة الاخرى الموجودة فى مكتبة جامعة أكسفورد فعثر على وثائق تخص هذا التاجر وينحصر تاريخها ما بين سنتى ٤٩١ — ٤٩٢ هـ (٩ نوفمبر ١٠٩٧ — ١٨ أغسطس ١٠٩٨ م) كذلك عثر على أربعة وثائق أخرى تخصه من اماكن متفرقة ، وكان هذا بداية الكشف عن وثائق تجارة الهند عبر البحر الاحمر (٣) • وواصل

---

(١) Goitein : Letters and Documents, pp. 188-190.

(٢) تخصص جواتين فى دراسة القانون وقام بتدريســـــه فى بعض جامعات الولايات المتحدة الامريكية وفى جامعة كمبردج بانجلترا ، وبدأ عمله فى وثائق الجنيزة بحثا عن مواد قانونية تخص المسلمين واليهود ولعمل دراسة مقارنة بين التشريعين الاسلامى واليهودى ، وبينما هو يعالج مجمـــوعة الوثائق الموجودة فى جامعة كمبردج توصل الى اللحظة التى اكتشف فيهـا قضية التاجر يوسف اللبدى التى تتعلق بتجارة الهند فواصل دراسته لهذه التجارة من خلال وثائق الجنيزة وقام بنشر المقالات والكتب الواردة ضمن قائمة المصادر والمراجع التى نوردها فى آخر هذا البحث — انظر قائمـــة المصادر •

(٣) Goitein : A mediterranean Society of the High Middle Ages. New York 1967, I, pp. 7-8.

جواتيين استكمال أبحاثه عن المزيد من الوثائق التى تتعلق بهذا الموضوع فتوصل (حتى أبريل ١٩٦٣) الى العثور على ٣١١ وثيقة من هذه الوثائق ، وهى كل ما أحتوت عليه الجنيزة من وثائق خاصة بتجارة الهند عبر البحر الاحمر (١) •

وكان للفظ تجارة الهند التى وردت فى وثائق الجنيزة مدلولها الواسع ، فهى تعنى العلاقات التجارية والاسفار الطويلة من موانى البحر الاحمر فى الغرب حتى شواطىء سومطره وأندونيسيا فى الشرق فى عهد دولة الفاطميين • وكل وثائق الجنيزة التى تتعلق بتجارة الهند هذه هى عبارة عن خطابات متبادلة غالبيتها مرسلة من عدن أو من بعض بلدان جنوب الجزيرة العربية ومن موانى البحر الاحمر ، أو من موانى الهند الى عاصمة مصر وبالعكس • وهنالك خطابات أخرى مرسلة من عدن الى الهند وبالعكس ، أو من مكان ما فى الهند الى مكان آخر فى الهند أيضا • كذلك هناك خطابات متبادلة بين شبه الجزيرة العربية وموانى البحر الاحمر • وجميع هذه الرسائل تعكس مدى ازدياد النشاط التجارى مع الهند فى هذه الآونة عبر البحر الاحمر والمحيط الهندى • والامر المدهش أن جميع هذه الخطابات وجدت طريقها فى النهاية الى جنيزة الفسطاط برغم أن الكثير منها ظل مدة فى الهند (وجو الهند لا يسمح بحفظ الاوراق) ، ثم أرسل منها الى الفسطاط (٢) • وبرغم أن الرحلة عبر المحيط الهندى والبحر الاحمر حتى الفسطاط كانت تستغرق وقتا طويلا وكانت تملأها الاخطار الا أن هذه الخطابات وصلت

---

(١) احتفظ جواتيين لنفسه بحق نشر هذه الوثائق التى اطلق عليها حتى الان اسم مجموعة كتاب الهند (India Book) وهو لم يقم بنشر هذا الكتاب حتى الان برغم انه وعد بنشرها منذ اكثر من خمسة سنين وذلك فى مقدمة آخر كتبه .
(A mediterranean Society of the High Middle Ages).

(٢) لمعرفة تفصيلات اكثر عن هذه الخطابات وعن اماكن وجودها الان انظر الملحق رقم (٣) والوثائق المرفقة فى آخر هذا البحث .

سالمة ، كذلك وصلت أكثر من نسخة لعدة خطابات ، الامر الذى يدلنا على أن حرص هؤلاء التجار على وصول خطاباتهم سالمة كان يدفعهم الى كتابة أكثر من نسخة منها •

ونسمع من وثائق الجنيزة عن الحنين الى الوطن ، والخوف من مخاطر المحيط الهندى • كما نجد فيها ذكر الهدايا والبضائع المتنوعة التى كان يرسلها التجار وهم فى الهند الى أسرهم أو أقاربهم ، وتبدأ هــذه الهدايا والبضائع بالتوابل وتنتهى بملابس الصين وأوانيه الغالية الثمن أو بخادمة هندية صغيرة يرسلها زوج الى زوجته • ومن هذه الوثائق نعرف أيضا أن التجار لم يكونوا يصطحبون معهم زوجاتهم فى رحلاتهم التجارية الى الهند ، وأنهم كانوا يتغيبون عنهم سنين طويلة الامر الذى أدى الى زواج بعض هؤلاء التجار من نساء يمنيات أو هنديات • وعلى كل فهذه الرسائل تعطينا صــــورة طيبة عن الحالة الاجتماعية لهؤلاء التجار عبر أعالى البحار (١) وتوضح لنا طريقة التعامل فيما بينهم وأيضا نظام المشاركة فيما بينهم • كذلك تفيدنا بأن التاجر فى تجارة الهند كان يقدم وهو فى طريق عودته منها تقريرا عن رحلته فى عدن ويقوم بتسجيله عند القاضى • كذلك كان يقوم بكتابة تقرير فى حالة غرق السفينة وضياع ما فيها فى أقرب محكمة تنتهى اليها رحلته وفى هذا التقرير عليه أن يورد نوع البضاعة المفقودة وعددها وأسعارها •

---

(١) كانت سطور هذه الرسائل تنحصر فى العادة ما بين ٤ الى ١٦ سطر ، واول جزء فى الرسالة كان يبدأ بالتحية عادة ، اما الجزء الرئيسى منها فكان يتحدث عن خبر وصول البضاعة او ضياعها بسبب تحطم السفينة او القرصنة . وبعد ذلك يسرد المرسل فى خطابه الخطوات التى سيتبعها فيما بعد وفقا لظروفه . وقبل ختام الخطاب يتحدث المرسل عن اخبــــار رحلته وعن اموره الشخصية فى اختصار احيانا وبالتفصيل احيانا اخرى وفى آخر الخطاب يذكر الهدايا والبضائع المرسلة .
(Goitein : Studies in Islamic History and Institutions, Leiden 1966, p. 334).

وتروى لنا بعض وثائق تجارة الهند تفاصيل بعض القضايا القانونية المتعلقة بهذه التجارة ، وأهم هذه القضايا : (١) قضية يوسف اللبدى (ت ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م) وبها تفصيل لرحلاته التجارية الى الهند ، كذلك رحلات عائلته من بعده التى نستطيع أن نتابعها من خلال وثائق الجنيزة لمدة قرنين ونصف من الزمان (١) • (٢) قضية عائلة مضمون بن بندار وهو صاحب سفينة وشاهبندر التجار فى عـدن (توفى سـنة ٥٥٦ هـ/ ١١٥١ م) • (٣) قضية ابراهيم بنيشو ، وهو من المهدية بتونس وأقام فى الهند فيما بين سنتى (٥٢٧ و ٥٤٤ هـ/١١٣٢ — ١١٤٩ م) • وتعتبر الخطابات المتبادلة بينه وبين عملائه وعائلته من أهم وثائق تجارة الهند • وكان ابراهيم هذا يمتلك مصنع فخار فى الهند ، وبعد عودته أقام بعدن عدة سنين الى أن مات هنالك ابنه الوحيد ، فعاد الى الفسطاط ليزوج ابنته الوحيدة لاحد أقربائه •

(٤) قضية حلفون بن نيثانيال الدمياطى ، التاجـر بالفسـطاط وصاحب السفارات الكثيرة والمعرفة الواسعة ، وكان له مركز أجتماعى كبير بالفسطاط ، ونستطيع من خلال وثائق الجنيزة أن نتتبع نشـاطه التجارى الواسع ما بين مصر والهند واليمن والمغرب والاندلس (من سنة ٥٢٩ هـ حتى سنة ٥٤١ هـ/١١٢٥ — ١١٤٦ م) •

(٥) وهنالك قضايا تخص تجارا آخرين مسلمين ويهود وردت فى خطابات تجارة الهند ومنهم : —

أ — عروس بن يوسف ، وهو من المهدية بتونس وكان يتاجر فى البحرين الاحمر والمتوسط فى الربع الاول من القرن السادس الهجرى •

---

(١) أورد جواتين تفصيلا عن حياة يوسف اللبدى وعن الرحـلات التجارية التى قام بها الى الهند فى مقاله :

(From the Mediterranean to India, Documents on the trade to India, South Arabia and East Africa from the 11th and 12th Centuries, SPECULUM, vol. XXIX, 1954, pp. 191-195).

ب — آبو ذكرى كوهين السجلماسى ، وكان قد قام برحلات طويلة الى الهند فى الفترة ما بين ٥٣٧ — ٥٥٣ هـ/١١٣٢ — ١١٤٨ م •

ج — أثنى عشر تاجرا تسلموا خطاباتمن أهاليهم بالفسطاط وهم فى رحلتهم الى الهند •

د — مئات من صغار التجار المسلمين واليهود الذين عملوا فى تجارة الهند ، ومن المسلمين بلال بن جرير حاكم عدن سنة ٥٤٥ هـ/١١٤٠ م ، ورامشت (١) الذى انقذ عدن من حصار ملك كيش (٢) والمدفون فىمكة سنة ٥٤٥ هـ/١١٤٠ م ، والذى أشتهر بتحقيقه أرباح هائلة من تجارة الهند (٣) •

ومعظم هذه القضايا ورد ذكرها فى رسائل فى الفترة فيما بين سنة ٤٧٣ وسنة ٥٥٥ هـ/ (١٠٨٠ — ١١٦٠ م) ، وبعض منها ورد ذكره فى رسائل ترجع الى ما بين سنة ٥٥٥ وسنة ٦٣٨ هـ/١١٦٠ — ١٢٤٠ م (٤) •

هذا وتحتوى وثائق تجارة الهند على معلومات هامة عن البضائع المتبادلة بين بلاد المحيط الهندى والبحر المتوسط ، وعن أسعارها فى البلاد المختلفة ، ووسيلة النقل ، والمكوس المقررة عليها ، وتفاصيل عن أهمية هذه السلع • ويظهر من هذه القوائم الخاصة بالسلع ارتفاع كمية التوابل المجلوبة من الهند واحتلالها المكانة الاولى فى هذه التجارة

---

(١) اصل رامشت هذا من سيراف وعمل فى تجارة الهند وارسل فى احد رحلاته الى الهند احد مساعديه من عدن الى كانتون فعاد من رحلته ومعه بضائع قيمتها ٥٠٠ الف دينار .
(Wiet : Les Marchands d'épice, p. 83).

(٢) عن حصار ملك كيش لعدن — انظر فيما بعد :

(٣) يوجد فى مكة نقشان يخصان رامشت هذا . احدهما يرجع تاريخه الى سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م وهو يتصل بتأسيسه بيمارستان بها والاخر مؤرخ سنة ٥٣٤هـ/١١٤٠ م وورد لقب (ناخوداه) أمام اسمه وذكر فى هذا النقش انه قام بكسوة الكعبة بحرير استورده من الصين سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م •
(Wiet : Les Marchands d'épice, p. 83).

(٤) Goitein : Studies in Islamic History, pp. 336-338.

العالية (١) • أما عن بقية السلع المجلوبة من الهند فيدخل فيها الحديد والصلب اللذان كانا يستعملان فى صناعة السيوف • وكانت الملبوسات الهندية وخاصة الملبوسات الحريرية الغالية الثمن ضمن واردات سلع الهند • كذلك كانت تستورد الاوانى الصينية والاخشاب اللازمة لصناعة السفن •

كما نلمس من خلال وثائق الجنيزة روح المخاطرة فى الرحلات التجارية عبر البحر الاحمر والمحيط الهندى • فعلى الرغم من أن السفن التجارية كانت تبدأ رحلتها فى البحر الاحمر فى مجموعات وفى مواسم معينة الا انه كان هنالك من التجار من كان يخاطر بالخروج بسفينته بمفرده متاجرا لحسابه الخاص أو لحساب غيره • كما أن أعدادا كبيرة من صغار التجار كانت تغريهم تجارة الشرق فيسهمون فيها بمبالغ بسيطة ، ويوكلون عنهم من يسافر ويتاجر لحسابهم متقاسمين معه الربح والخسارة • وكان التاجر الميسور الحال يصطحب خادما معه أو أكثر من خادم حين يقوم بالرحلة بنفسه ، وكثيرا ما كان ينيب السيد خادمه عنه فى القيام بالرحلة خوفا من مخاطرها (٢) •

ويتضح لنا أيضا من هذه الوثائق أن قوافل السفن التجارية كانت تبدأ رحلتها سويا وتسير فى مجموعات متقاربة من بعضها بسبب خطر التجرم الماثل فى مياه البحر الاحمر • وقد تردد صدى هذا الخطر فى الرسائل المتبادلة بين التجار ، وفيها نسمع عن السفن التى تتحطم والبضائع التى تفقد مع أصحابها • وكانت السفينة الكبيرة المتجهة الى بلاد الهند تصحبها سفينة أخرى صغيرة ، وهذه السفينة الصغيرة كانت اما لصاحب السفينة الكبيرة أو لشركائه • وعلى الرغم من أخطار التجارة

(١) Goitein : Studies in Islamic History, p. 341.
Ibid, p. 341.

(٢) Goitein : Studies in Islamic History, pp. 344-345.

فى البحر الاحمر فقد ظلت قوافل السفن التجارية تواصل رحلاتها الى الهند فى اعداد هائلة . ولم يكن الخوف من مخاطر هذا البحر تحول دون الرغبة فى تحقيق المكاسب الهائلة من وراء هذه الرحلات التجارية .

وكذلك عرفنا من وثائق الهند انه كانت هنالك موانىء كثيرة ترسو فيها السفن ؛ وانه كانت لكل سفينة موانيها الخاصة ؛ وأن معظم السفن كانت تتجنب بقدر الامكان الرسو فى الموانىء حتى لا تدفع الكثير من المكوس (١) .

كما ثبت لنا من واقع هذه الوثائق انه لم يكن ينقص تجارة الشرق القيادة الواعية ؛ فقد حـدثتنا وثائق الجنيزة كثيرا عن شخصية شيخ التجار « شاهبندر التجار » ، تلك الشخصية التى كان بيدهـا تنظيم تجارة الهند وتنظيم الرحلات التجارية عبر البحر الاحمر (٢) .

ومن هذه الوثائق أيضا لمسنا روح التعاون التام التى كانت سائدة بين كل من يشتغل فى هذه التجارة من كافة الاديان (٣) .

---

(١) Fischel: The Spice Trade in Mamluk Egypt, (JESHO, V. I, 1958, pp. 161-162).

(٢) Goitein: Op. Cit., p. 345.
ـعن هذه الشخصية انظر الباب الخاص بالنظم .

(٣) Goitein: From the Mediterranean, p. 91.

تجارة الكارم زمن الفاطمين

تنسب تجارة الكارم الى «الكارمية» ، وهم ، كما حدثتنا عنهم وثائق الجنيزة ، فئة من كبار التجار أشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الاقصى فى التوابل وما اليها من السلع الاخرى ، وكان مركز نشاطهم الأول فى المحيط الهندى (١) • وقد كان المحيط الهندى ، منذ القدم ، هو السوق التجارى الكبير الذى كانت تتجمع فى موانيه سلع الشرق الاقصى والهند وغيرها (٢) • وقد اتخذ تجار سلع الشرق قواعد لهم فى موانىء ساحل الهند الغربى وفى الخليج العربى وعند مدخل البحـر الاحمـر الجنوبى (٣) • وبرغم أن تاريخ نشأة طائفة تجار الكارم لم يتحدد بعد فانه من المعروف أن هذه الجماعة نشـأت فى المحيط الهنـدى أو على الشاطىء الغربى للهند وأنها وجدت هناك فى بداية الامر على صورة ما ثم تطورت مع الزمن ومع التقدم الحضارى ، وصار هذا الاسم هو ما تعرف به هذه الجماعة وتوارثه من جاء بعدهم أو من تحولت اليه السيطرة التجارية فى أسواق الهند وغيرها (٤) •

وآخر الدراسات عن نشأة تجارة الكارم هى الدراسة التى قام بها المستشرق جواتيين ، من واقع وثائق الجنيزة ، وأثبت فيها نشاط هؤلاء التجار فى عهد الفاطميين مؤكدا بذلك ما سبق أن أشار اليه القلقشندى

---

(١) Goitein : New Lights on the beginning of the Karim merchants, (JESHO, V. I, 1958, p. 175).

(٢) Goitein : From the Mediterranean to India, Documents on the Trade to India, South Arabia, p. 120.

(٣) Goitein : Studies in Islamic History, p. 349.
— اورد جواتيين ان سفن الكارم كانت تتردد على أكثـر من عشرين ميناء على ساحل الهند الغربى •

(٤) الشاطر بصيلى : الكارمية ، مقـال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ١٣ لسنة ١٩٦٧ ، ص ٢١٧ •

فى حديث عابر عن نشاطهم فى ذلك العهد (١) . كذلك أثبت جواتيين من واقع هذه الوثائق ، أن التجار اليهود شاركوا فى تجارة الكارم طوال عهد الفاطميين جنبا الى جنب مع التجار المسلمين مخالفا بذلك القول السائد بأن تجارة الكارم قد أقتصرت فقط على التجار المسلمين (٢) .

وقد ورد ذكر كلمة « كارم » و « الكارم » صراحة فى خطابات من الجنيزة ترجع الى العهد الفاطمى ، وهذا يدل دلالة واضحة ومؤكدة على وجود هذه التجارة فى عهد الفاطميين . وقد استخدمت هذه الكلمة فى عهد الفاطميين بمعنى السلع أو البضائع التى يتجر فيها أولئك التجار ونسبوا اليها ، وبمعنى التجار أنفسهم . ومن الخطابات التى ورد فيها المعنى الاول الآتى : —

---

(١) ذكر القلقشندى وهو بصدد حديثه عن اهتمام الفاطميين بالاساطيل وحفظ الثغور ما نصه « انه كان للفاطميين اسطول بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب فيحميهم الاسطول منهم وكانت عدة هذا الاسطول خمسة مراكب ثم صارت الى ثلاث وكان والى قوص هو المتولى لامر هذا الاسطول وربما تولاه امير من الباب ويحمل اليه من خزائن السلاح ما يكفيه .

(صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٥٢٠) كذلك عند حديثه عن فندق الكارم بالفسطاط ذكر ان المكوس كانت تؤاخذ على واصل التجار الكارمية من البضائع فى بحر القلزم — من جهة الحجاز واليمن وما والاهما وذلك بأربعة سواحل بالبحر المذكور اولها من ساحل عيذاب حيث يتوصل الى قوص بالبضائع ومن قوص الى فندق الكارم بالفسطاط فى بحر النيل » (صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٢) .

(٢) New lights on the beginning of the Karmi, pp. 175-185.

(١) خطاب « محروس اللبدى ([1]) » من عدن الى أحد أبنائه الذى كان يعيش عند خاله فى القاهرة فى الوقت الذى كان فيه مبحرا من الهند فى طريق عودته منها بعد أن مكث بها وقتا طويلا • ولحسن الحظ فقد وصلت الى ايدينا نسختين من هذا الخطاب ([2]) •

ففى احدى فقرات الخطاب التى يتحدث فيها محروس عن بعض قطع الكريستال التى اشتراها وسلمها فى عدن الى مضمون كبير تجارها ليرسلها بدوره الى القاهرة مع أحد تجار الكارم المتوجهين اليها ووردت فى الخطاب نص العبارة الآتية (•••• ينفذها فى الكارم مع من يرى) •

(٢) هنالك جزء من خطاب أستخدم ظهره مسودة لعدد من السلع ، هذا الخطاب أرسله أبو ذكرى كوهين التاجر الكارمى الى صهره محروس اللبدى ، ونظرا لاهمية ما ورد فى هذا الخطاب عن الكارم فانى أثبت هنا ما جاء به فى هذا الصدد • يقول الخطاب : (••• أما الكارم فقد وصلنى منه كتاب من عند صهرى محروس من سواكن يحكى أنه ٣ آلاف عدل

---

(١) ذكر جواتيين ان محروس هذا يدعى محروس بن يعقوب من بلدة لبدة بليبيا وكان صاحب سفينة ناخوداه ويقيم فى عـــدن وعاش فى الربع الاول من القرن السادس الهجرى وكان مركز نشاطه فى عـــدن • وكان محروس هذا دائم السفر مع مضمون شيخ التجار اليهـــود فى عدن وكانت اخت محروس هذا متزوجة من ابى ذكرى كوهين شيخ التجار اليهـــود بالقاهرة . وقد ارتبطت العائلتان بروابط قديمة فى العـــــراق وفلسطين والمغرب . كما كان محروس هذا يحضر احيانا الى القاهرة ليقوم بتصريف امور عائلته فى الوقت الذى يكون فيه صهره مسافرا الى الهند .
(Goitein : New Lights on the beginning of the Karmi, p. 176).

(٢) Giitein : New lights, p. 177.

— نسختى الخطاب موجودتان برقمى :
134-5 India collection of Goitein, MS. University Cambridge, T. S. 16.345 and British Museum, Or., 5542.

(باله) وقد خرج فى الكارم من أصحابنا اليهود ٧ محروس (ستة أسماء أخرى) لا غير) (١) •

ويستخلص جواتيين من هذا الخطاب الحقائق التالية : —

أ — ان هذا الخطاب كتب فى العشرينات أو فى الثلاثينات من القرن السادس الهجرى •

ب — أن وكيل الكارم اليهودى وشيخ تجارهم يخبر شريكه الذى كان فى ذلك الوقت فى عدن بحجم التجارة التى حملها الكارم فى ذلك العام وبأسماء أصدقائهم التجار الذين وصلوا سالمين الى سواكن فى طريق عودتهم الى مقر اقامتهم (مصر أو المغرب) •

جـ — كذلك أستدل من الخطاب أن الكارم لم ينزلوا بعدن فى تلك السنة ولكنهم ساروا مباشرة من الهند الى سواكن أو من بعض الموانى اليمنية • هذا وقد لاحظ جواتيين من وثائق يرجع تاريخها الى سـنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م أن بعض السفن كانت تسير رأسـا الى الشـاطىء الافريقى دون أن تمر بعدن ، وربما كان ذلك نظاما بحريا متبعا فى ذلك الوقت أو بسبب حالة البحر ، وكان ذلك أمرا عاديا فى ذلك الوقت •

د — يرجع جواتيين أن الخطاب أرسل من ميناء عيـذاب وكان السفر منها الى عدن متبعا آنذاك (٢) •

(١) Goitein : Studies, p. 354.
— أورد جواتيين ان هذه الوثيقة محفوظة ضمن مجموعته المسـماة بمجموعة الهند (India Book). برقم ٢٢١ من مجموعة المتحف البريطانى برقم : Or. 5549.

(٢) Goitein : Studies, p. 355.

(٣) هنالك رسالة اخرى هامة تتعرض لذكر الكارم وهى تحتوى على تفاصيل شيقة وهامة وترجع الى نفس الفترة الزمنية التى نتحدث عنها • وهذه الرسالة لرجل سافر من ساحل ملبار الغربى فى طريق عودته الى زوجته فى القاهرة ويخبرها فيها أنه أرسل اليها خادمة سوداء عمرها ست سنوات وعددا من أساور من الزمرد وحريرا هنديا أحمرا واناءا من البرنز وأبريقا ، وأن هذه الهدايا ستصلها — حسبما جاء على لسانه : (وأنا ان شاء الله أنفدهم صحبة مانياح الراجع فى الكارم) •

وفى ختام هذه الرسالة يذكر مرسلها أنه سوف يرسل مع شخص يدعى أبو سرور الدوانقى « سفرتين للمائدة » وأشياء أخرى ويعد بارسالها فى الكارم بقوله : (ان شاء الله تصل اليك فى الكارم مشحونتان) [١] •

(٤) وفى خطاب أرسل حوالى سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م من الاسكندرية الى عدن (أو ربما الى ميناء آخر فى المحيط الهندى) يقول المرسل فيه : (وما كنا غير أن ننتظرك فى كارم السنة ••• وقد وصل خطابك) [٢] •

(٥) وفى خطاب أرسله تاجر من أحد موانى جنوب شرقى الهند الى القاهرة معاصر للتاجر مضمون يذكر فيه لزوجته أنه مرسل اليها بعض توابل الشرق وبعض الفواكه و ٧ ١/٢ رطل من الجوز ويفاخر بقوله عنها : (ما فى الكارم مثلها) [٣] •

---

(١) Goitein : New lights, p. 179.
— هذه الوثيقة موجودة برقم ٢١٤ ضمن مجموعة جواتين •

(٢) Goitein : New lights, p. 184.

(٣) هذه الوثيقة موجودة برقم ١٧٦ ضمن مجموعة :
India Book : MS. Jewish Theological seminary of New York, EN. Adler Collection, 2739, fol 16.
Goitein : **Studies**, p. 356.

(٦) وفى خطاب يرجع الى تلك الحقبة الزمنية مرسل من حاكم دهلك يفيد فيه بقوله الى (أن مراكب الكارم) التى كانت فى حماية الاسطول الفاطمى لم تكن دائما بمنأى عن هجوم متجرمة البحر الاحمر [١] .

(٧) وعن وصول تجار الكارم الى عيذاب نقرأ خطابا أرسل (فى سنة ٥٣٥ هـ/ديسمبر ١١٤٠ م) من القاهرة الى عيذاب ترد فيه العبارة التالية الخاصة بالكارم : (وجميع من خرج من أصحابنا فى الكارم بأتم السلام) [٢] . ومرسل هذا الخطاب هو أبو ذكرى كوهين وكيل التجار اليهود بالقاهرة الذى ضمت وثائق الجنيزة الكثير من خطاباته . وفى احدى هذه الخطابات الهامة المرسلة من عدن الى شريك له فى مصر يذكر أنه ارسل اليه بضاعة فى الكارم ، ونص العبارة التى وردت فى الخطاب هى : (... وصدر فى الكارم المبارك) [٣] . ونلحظ أنه لم يرد فى سياق الكلام فى هذه الرسالة اسم التاجر الذى أرسلت البضاعة اليه ، ويبدو انه فى نهاية القرن السادس الهجرى كان أصحاب البضائع يعهدون ببضائعهم الى تجار الكارم ويتركون لهم حرية الاتجار فيها .

وهنالك خطاب واحد فقط من خطابات الجنيزة ورد فيه اسم الكارم بمعنى التجار ، وقد كتب هذا الخطاب فى الثلاثينات أو الاربعينات من القرن السادس ، كتبه التاجر العدنى يوسف بن ابراهيم الى شخص غير معروف ، وفى هذا الخطاب يبدى مرسله ألمه وحزنه لما أصاب صديقه أبا عمران بن نفيع الذى غرق فى مياه البحر الاحمر مع سفينته ، ويتمنى

---

(١) Goitein : Studies, p. 357.

(٢) لم يورد جواتين نص العبارة كاملا بسبب سوء حالة هذه الوثيقة .

(٣) هذه الوثيقة موجودة برقم ٢٢٩ ضمن مجموعة : India Book, University Library, Cambridge, Or. 1080 J. 182.

فى ختام خطابه وصول بقية التجار سالمين بقوله : (أرجــو أن مولانا وجميع الكارم يكونوا أدركوا عيذاب ان شاء الله (١) •

ولقد توصل كل من آشتور (Ashtor) وجواتيين (Goitein) الى الحقائق التالية عن تجارة الكارم فى العهد الفاطمى من واقـــع دراستهما لوثائق الجنيزة (٢) •

١ — إنه مع بداية القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أصبحت كلمة (الكارم) شائعة فى بيوت القاهرة • فان اية امرأة يكون زوجها مسافرا فى المحيط الهندى كانت تتوقع فى اى وقت وصول هدايا اليها منه فى (الكارم) •

٢ — ان جماعة الكارمية خلال القرن السادس الهجرى لم تظهر على انها جماعة تعمل لحسابها الخاص ولكنها كانت مجموعة من الملاحين النواخدة أو أصحاب السفن الذين يسافر التجار فى سفنهم ويرسلون معهم بضائعهم تحت حمايتهم الخاصة او تحت حماية وكلاء عنهم • وان بعض هؤلاء — النواخدة لم يكونوا يمتلكون السفن التى يعملون عليها بل كانوا عمالا فيها •

٣ — كانت سفن الكارمية فى العهد الفاطمى تحمل كميات أقل من التوابل من تلك التى حملتها السفن فى عهد المماليك وبرؤوس أموال اقل منها •

---

(١) هذه الوثيقة موجودة برقم ٢٢٧ ضمن مجموعة : —
India Book, MS. Jewish Theologic al Seminary of New York, E.N. Adler Collection, Geniza, Misc. 4.

(٢) Ashor : The Karimi merchants, (JRAS, April 1956, pp. 53-54).
Goitein : New lights on the beginning of the Karmi merchants pp. 180-182.

٤ — كانت سفن الكارمية ترسو فى ميناء عدن وهى فى طريقها الى الهند ، وكانت احيانا تمر بها مرورا عابرا ؛ وكان ذلك يتوقف على حالة البحر والرياح أو الظروف السياسية (مثل حصار عدن اثناء هجوم ملك كيش عليها) •

٥ — كان التاجر الكارمى يرسل فى العادة عند وصوله الهند خطابا الى عائلته يخبرهم فيه انه مرسل لهم بضائع ثمينة (لا يوجد مثلها فى الكارم) ؛ وهذا يظهر لنا أيضا ان تجار الكارم كانوا يشتهرون بنقل البضائع العالية المستوى المرتفعة القيمة •

٦ — ان حمولة احدى سفن الكارم وصلت الى ٣٠٠٠ بالة فى احد الاعوام وأن — بضائع احدى سفنهم قدرت بمبلغ مليون ونصف دينار الأمر الذى يظهر لنا ارتفاع أسعار بضائع الكارمية وعظم ثروات تجار الكارم (١) •

٧ — لم يحتكر التجار الكارمية حتى عام ٥٤٥ هـ/١١٥٠ م تجارة الهند بل كان يوجد آخرون من غير تجار الكارم يعملون فى هذه التجارة • وقد بلغ عدد السفن المملوكة لغير تجار الكارم حوالى مائتى سفينة كانت تنقل البضائع من والى العهد وكان الكارم يعملون عليها (٢) •

---

(١) وكانت هذه البضاعة مشحونة لحساب الشريكين بلال بن جرير الاهوازى (أو الاوحدى) الذى كان فى سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م حاكما لجنوب اليمن ثم صار بعد ذلك وزيرا والثانى هو مضمون كبير تجار اليهود فى عدن •

(٢) (Goitein : New lights, p. 181).

٨ ـ كانت حكومة الفاطميين تقوم بحماية تجار الكارم فى البحر الاحمر (١) ، وكانت فى بعض الاحيان تعهد الى عدد من التجار بالقيام بهذه الحماية لغيرهم من التجار (٢) • وبرغم هذه الحماية التى كان يقوم بها عدد من السفن يتردد لنا من وثائق الجنيزة صدى صرخات استغاثة التجار من خطر متجرمة البحر الاحمر •

٩ ـ أنه من عهد الفاطميين كان التجار اليهود يشتركون مع التجار المسلمين جنبا الى جنب فى تجارة الكارم (٣) ، بل كانت هنالك مشاركة بينهما فى بعض الاحيان • وقد أفادتنا وثائق الجنيزة بأن غالبية التجار اليهود أنخرطوا فى تجارة الشرق وأن اعدادا كبيرة منهم أستقرت زمن الفاطميين فى مصر واليمن وفى الهند نفسها ، وأن عددا كبيرا منهم كون ثروات طائلة من وراء تجارة الكارم مثل « بنو سهل » (٤) •

وفى أحدى الوثائق نرى تاجرا يهوديا من المغرب كان يعمل فى الكارم وهاجر الى سيلان واستقر بها فى سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م • • كذلك أوردت لنا هذه الوثائق أن غالبية تجار عدن فى القرن السادس الهجرى كانوا من التجار اليهود النازحين اليها من بلاد المغرب (٥) •

---

(١) سندنا فى ذلك ما اورده القلقشندى فى كتابه الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٥٢٠ •

(٢) من الاشخاص الذين عهدت اليهم الحكومة الفاطمية بهذه الحماية مضمون (مأمون). كبير تجار اليهود فى عدن فقد أخذ موافقة الحكومة على حماية السفن والقوافل التى يملكها او يشرف عليها •
(Goitein : Op. Cit., 181).

(٣) وهذا يدحض الرأى القائل بأن هذه الطائفة كانت تتكون فقط من التجار المسلمين وان على من اراد ان يدخل فيها كان عليه ان يدخل الاسلام وان يستقر فيه ـ انظر : صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٥٢ ، ص ١٢ ـ ١٤ •

(٤) Fischel : Jews in the economic life, p. 75.

(٥) Goitein : Arabs and Jews, p. 115.

ونضيف الى هذه الحقائق التى توصل اليها كل من آشتور وجواتين عن تجارة الكارم فى العهد الفاطمى من واقع دراستهما للوثائق الحقيقتين التاليتـين وهما : —

(١) أنه أشترك فى تجارة الكارم تجار يهود ومسلمون، من أصل مغربى ، وشاهد ذلك وجود أسماء كثيرة لعائلات من أصل مغربى كانت تعمل فى تجارة الهند (١) كذلك ما أشارت اليه هذه الوثائق من أن موانى البحر الاحمر والجزيرة العربية والهند كانت تموج بأعداد كبيرة من التجار المغاربة الذين قدموا من أقاليم المغرب ومدنه مثل برقة وجبل نفوسه وطرابلس والقيروان والمهدية وتلمسان وفاس وجربه ودرعا (٢) • وقد شجع الفاطميون ، بعد أن أنتقلوا الى مصر ، أعدادا كثيرة من تجـار المغرب ، وخاصة من أبناء قبيلة كتامه على الهجرة الى مصر ، رغبة فى الاستفادة من خبرتهم فى التجارة ودفعوا بهم الى تجارة الهند • وقد جاءت الى مصر فى سنة ٤٠٠ هـ أعداد كبيرة منهم ، ونقرأ فى وثائق الجنيزة أسماء كثيرة لهذه العائلات المغربية التى كانت تعمل فى تجارة الهند (٣)

(٢) أن الفاطميين استفادوا من نشاط بعض تجار الكارم فى نشر الدعوة الاسماعيلية • فقد خدمت التجارة فى البحـر الاحمر والمحيط الهندى الدعوة الاسماعيلية وأدت الى انتشارها فى بلاد اليمن والهند وخاصة فى عهد الخليفة المستنصر • ففى عهد هذا الخليفة قام التجـار الكارمية بمجهود كبير فى نشر الدعوة الاسماعيلية فى بلاد الهند حتى أن أهالى تلك البلاد لم يكونوا يفرقون بين الدعاة الاسماعيلية والتجـار

(١) Goitein: Letters and Documents, p. 200.
(٢) Goitein: Studies, p. 342.
(٣) Goitein: Letters and Documents, p. 200.

المصريين وكانوا يطلقون على الاسماعيلى منهم اسم « بوهرا » وهى كلمة معناها « تاجر البهار » فى لغة هذه البلاد (١) .

أما عن اسم « الكارمية » فاننا لم نصل حتى الان الى تفسير جازم لتسمية هؤلاء التجار بهذا الاسم . ويبدو أنه اسم عام لانـــه ليست هنالك كلمة فى اللغة العربية بهذا المعنى . وقد تعددت محاولات تفسير هذه التسمية ، فقد نقل كترمير ما أورده القلقشندى من أن هذا الاسم مأخوذ عن (الكانم) وهى منطقة من السودان الغربى تقع بين بحـــر الغزال وبحيرة تشاد وان هذا الاسم انتشر بين من أشتغلوا بتجـارة البهار بعد ان وقع فيه تصحيف واصبح كارم (٢) . ومما يحبط هـــذا الرأى هو أنه ليس لدينا ما يدل على أن تجار الكانم قــد استقروا فى مصر للاتجار فى بضائع الشرق من توابل وغيرها الا نص القلقشـــندى فحسب (٣) . ويفترض « ليتمان » أن هذا الاسم قد أخذ عن متاجــر التجار نفسها ، اذ وجد أن لفظة (Kuararima) الامهرية تعنى «الحبهان» وهو من التوابل التى تاجروا فيها ثم حرفتهذه الكلمة واصبحت (كارم) واطلقت على هؤلاء التجار (٤) .

والتفسير الجديد لكلمة (كارم) الذى أورده جواتيين مفاده أن أصل هذه الكلمة ليس عربيا ولكنه هنديا ، ذلك لان لغة جنوب الهنـــد (التامل) توجد بها كلمة (كاريام) (Karyam) وهى تعنى فيما تعنى من أشياء اخرى ، « الاعمال » او « الاشـــغال » ولما كانت

---

(١) Lewis, B : The Fatimides and the route to India, p. 53.

(٢) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص ٦ .

(٣) Wiet : Les Marchands d'épice, p. 87.

(٤) صبحى لبيب : نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

أعمال أهالى الساحل الغربى من الهند مع تجار الشرق الاوسط تتعلق بالتجارة فمن المحتمل ان يكون اصحاب السفن او التجار الذين عملوا فى ذلك المضمار قد عرفوا أو أطلق عليهم اهالى الهند هذا الاسم (١) .

وجاء مع هذه التفسيرات تفسير جديد آخر ، وهو أكثر قبولا من غيره ، أورده الاستاذ الشاطر بصيلى فى مقال له عن الكارميه (٢) . ورد فى ذلك التفسير أننا اذا اقتطعنا لفظة (كارم) قسمين لوجدناه يتكون من (كار) فى المقطع الاول ، ثم (يم) فى المقطع الثانى ، و (كار) معناه الحرفة او العمل او التجارة او الوظيفة ... الخ و (يم) معناه المحيط أو البحر البعيد الشواطىء او النهر الكبير ثم سقط حرف الياء من (كاريم) فأصبحت (كارم) ، وأن معنى الكلمة حسب هذا التفسير — هو حرفة التجارة فى البحار . وقد أورد المفسر ان هذا اللفظ يرجع فى أصوله الى لغة هندية على الجانب الغربى من الهند ، وان لفظ (كار) و (يم) موجودتان فى صورة أو أخرى فى اللغة المصرية القديمة ، وان لفظ (كار) ما زال متداولا حتى اليوم بمعنى الحرفة أو العمل (٣) .

هذا وقد استدل الباحث من تفسيره لتجارة الكارم على أن هذه التجارة قديمة سابقة أيضا على العصر الفاطمى ، وقد ظل نشاطها فى المحيط الهندى واستمرت عدن مركزا لنشاط تجارها حتى انتقل مركز تجارة العالم من المحيط الهندى الى البحر المتوسط وانتقلت مراكز

---

(١) Goitein: Arabs and Jews, p. 115.

(٢) انظر مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ١٣ لسنة ١٩٦٧ ، ص ٢١٧

(٣) الشاطر بصيلى : الكارمية ، ص ٢٢٠ .

تجارة العالم الى شواطىء هذا البحر • وكان من الطبيعى ان يتخـــــذ العاملون فى هذه التجارة مراكز لهم على مقربة من هذا البحر ، ولهــذا جاء هؤلاء التجار الى مصر واتخذوا منها موطنا لهم فى نهاية القــــرن السادس الهجرى سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١م (١) •

وكان الفلفل والبهار من أهم سلع تجار الكارم • وبالاضافة الى هاتين السلعتين الهامتين ، تاجر الكارمية فى سلع اخرى مثل الحاصلات الزراعية ، الملبوسات ، الحرير الخام ، الخشب ، الدقيق ، السـكر ، الاسلحة ، أدوات الزينة وبضائع اليمن الغاليـــة الثمن • واحتفظت التوابل طوال الوقت بمكان الصدارة فى تجارة الكارمية وكانت اليمن وبخاصة عدن مركز تجار الكارم ونقطة الانطلاق الرئيسية لهم فى العهد الفاطمى • وكانت توابل الهند تصل الى اليمن اما على أيديهم أو على أيدى تجار الهند ، وكانوا فى كلتا الحالتين يجمعونها فى عدن ومنهـــا يصدرونها الى عيذاب • وكان ذلك يتم فى مواسم معينة من الســنة ، ويعتبر يوم وصول قوافل الكارمية الى مصر حدثا هاما تؤرخ به الاحداث فى البلاد (٢) •

وقد حدثتنا المصادر العربية عن الطـــريق البحرى الذى كانت تسلكه السفن التجارية من اليمن الى مصر وأفادتنا بأن ميناء عدن كان أهم الموانى ما بين المحيط الهندى والبحر الاحمر فى العهدين الفاطمى والايوبى (٣) • وكانت عدن فى ذلك الوقت من اكبر مراكز التجـــارة والنقل فى العالم ، ومن عدن كانت البضائع تنقل بالسفن عبر البحـــر الاحمر الى الساحل الغربى على الشاطىء المصرى حيث يوجد مينـــاء

---

(١) الشاطر بصيلي : نفس المصدر ، ص ٢١٧ •

(٢) Fischel : The Spice Trade in Mamluk Egypt, (JESHO, V. I, pp. 161-162).

(٣) ابن جبير : رحلته ، ص ٦٣ •

عيذاب • وكان هذا الميناء ملتقى ومحط اتجار الكارمية وكانوا يفضلون الرسو به بسبب سهولة الدخول فيه والخروج منه ، كذلك كانوا يرسون فى ميناء القصير بسبب قربه من مدينة قوص التى تنقل اليها السلع بواسطة الجمال • واحتلت مدينة قوص المرتبة التالية فى الاهمية بعد القاهرة فى العهد الفاطمى ، ذلك لانها بفضل تجارة الشرق اصبحت أهم مراكز مصر التجارية فى ذلك العهد (١) • ومن قوص كانت السلع تنقل عبر النيل الى فندق الكارم بالفسطاط بواسطة السفن التى كان يمتلكها الكارمية (٢) •

---

(١) ابن جبير : رحلته ص ٦١ .
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

سياسة الفاطميين ازاء الحجاز واليمن

أستفاد الفاطميون من ولاء بلاد الحجاز السياسى لهم فى دعم خلافتهم واعلاء شأنهم امام منافسيهم العباسيين اصحاب السيادة على الحرمين ، كذلك فى تأمين مصالحهم التجارية فى البحر الاحمر . كما استفادوا أيضا من ولاء بلاد اليمن السياسى والمذهبى لهم فى تأمين تجارتهم فى هذا البحر وتدعيم علاقتهم التجارية مع اليمن (١) .

وفضلا عن اهتمام الفاطميين بفرض سيادتهم على بلاد الحجاز لتدعيم خلافتهم فى صراعها مع الخلافة العباسية ، فقد أدرك الفاطميون أهمية بلاد الحجاز ، وبلاد اليمن خاصة بالنسبة لتجارة البحر الاحمر . وقد لمس الدعاة الاسماعيلية مدى ازدهار تجارة الشرق فى بلاد اليمن فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وخاصة فى ميناء عدن .

وكانت بلاد اليمن قد دخلت فى حوزة العباسيين ، بعد أن انتقلت الخلافة اليهم ، وصار الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم ، وساد فيها ، مع مطلع القرن الثالث الهجرى ، حكم بنى زياد الذين احتفظوا بولائهم للخلافة العباسية . وكان لضعف بنى زياد ، فى القرن الرابع الهجرى ، أثر كبير فى نجاح الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن . وقد قام دعاة الشيعة بالدعوة للفاطميين فى بلاد اليمن وخاصة الداعية « ابن حوشب » الذى بذل جهدا كبيرا فى سبيل نشر هذه الدعوة (٢) . وشارك امراء صنعاء

---

(1) Lewis: The Fatimides and the route to India, p. 51.

(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٧٤

من بنى يعفر (١) دعاة الاسماعيلية فى بلاد اليمن فى نشر الدعوة للخليفة الفاطمى وخاصة اميرهم عبد الله بن قحطان • واستطاع بنو يعفر أن ينشروا الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن ، بعد أن لقى دعاتها الكثير من العنت والاضطهاد على يد انصار العباسيين ، منتهزين فى ذلك ضعف الخلافة العباسية وتنافس امراء اليمن الموالين لهذه الخلافة • وقام بنو يعفر باحلال اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة محل الخليفة العباسى الامر الذى مهد السبيل لازدياد النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن •

وبلغ نفوذ الفاطميين ذروته فى بلاد اليمن فى عهد اسرة الصليحيين التى تلت فى الحكم بنى يعفر ، فقد إستمرت الدعوة فى اليمن للفاطميين بفضل ولائهم لهم وظل نفوذ مصر وطيدا فى اليمن فى عهد على الصليحى (٢) • وابنه المكرم احمد وزوجته السيدة الحرة وابنها عبد

---

(١) بدا حكم بنى يعفر فى صنعاء سنة ٢٤٧ هـ ، وحكم منهم عدة أمراء الى ان كانت امارة عبد الله بن قحطان التى بدات سنة ٣٥٢ هـ . وقام ابن قحطان سنة ٣٧٩ هـ بالاستيلاء على زبيد حاضرة بنىزياد وامر بقطع الخطبة عن الخليفة العباسى فى جميع البلاد التى تحت سيطرته واقامها للخليفة الفاطمى العزيز واستمر الحال كذلك حتى وفاته سنة ٣٨٧ هـ ، الامر الذى مهد السبيل لازدياد النفوذ الفاطمى ببلاد اليمن .

(انظر : محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٧٩) .

(٢) كان حامل لواء هذا الولاء رائد اسرة الصليحيين الداعى ابو كامل على بن محمد الصليحى (٤٢٩ — ٤٧٣ هـ) فهو الذى قام بنشر دعوة الفاطميين فى جميع ارجاء اليمن وقضى على بقايا دولة بنى زياد الموالية للعباسيين والتى أقامها المولى نجاح فى زبيد . وكتب على الصليحى سنة ٤٥٣ هـ الى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى يستأذنه فى اظهار دعوته فاذن له وارسل له الهدايا وقام على الصليحى على اثر هذا الاذن من الخليفة الفاطمى بنشر الدعوة له فى سائر اليمن ولم تمض سنة ٤٥٥ هـ حتى كان قد نجح فى نشر الدعوة للفاطميين فى جميع ارجاء اليمن وحكم الصليحى اليمن بصفته نائبا عن الخليفة الفاطمى وحرص هو وخلفاؤه من بعده على الحفاظ على هذا الولاء لحكام مصر الفاطميين . (بامخرمه : تاريخ ثغر عدن ، جـ ٢ ليدن ١٩٣٦ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ — ابن الديبع : قرة العيون باخبار اليمن الميمون ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٥٨٢١ ، ورقة ١٤ أ)

المستنصر (١) •

ولم يكن للشدة التى أصابت مصر فى عهد الخليفـــة المستنصر الفاطمى أى أثر فى اليمن ولم يتزعزع مركز مصر فيها • وكان ذلك بفضل استمرار ولاء السيدة الحرة للبيت الفاطمى واخلاصها فى هذا الولاء • كذلك لم يتأثر هذا الولاء للفاطميين بعد وفاة الخليفة المستنصر (٤٨٧هـ) بسبب الخلاف الذى وقع بين ابنيه نزار والمستعلى بالله ، وظــــل الصليحيون على ولائهم للخليفة المستعلى الذى انتهى الصراع لصالحه كذلك ظلت السيدة الحرة على اخلاصها للخليفة الآمر بالله وبايعت بعد وفاته ابنه الطيب ولم تبايع للخليفة الحافظ منافسة فى الخلافة (٢) • وبرغم نجاح الحافظ فى تولى الخلافة الا أن السيدة الحرة لم تبايعــه واعتبرت أمامته باطلة على الرغم من المحاولات التى بذلها دون جدوى لكسب ودها (٣) • ولما يئس الخليفة الحافظ من ولاء السيدة الحــرة له ورآها تنشر الدعوة لمنافسه الطيب فى اليمن والحجاز استعان بآل زريع بعدن فى الدعوة له والقضاء على حكمها • وكان بنو زريع يحكمون عدن

---

(١) كان الولاة الصليحيون يرضخون لاوامر الخلفاء الفاطميين حتى فى امورهم الخاصة فقد اذعنت السيدة الحرة على سبيل المثال لرغبة الخليفة الفاطمى فى تزويجها من الداعى سبأ بن أحمد رغبة فى توثيق الصـــلة بين أمراء اليمن ودعاتها وعدم اثارة عوامل الخلاف بينهم حتى لا يتعرض النفوذ الفاطمى للخطر فى هذه البلاد .

(ـــ محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٩١ ، ٩٢ •)

(٢) لما قامت حركة الخارجين على الدعوة الاسماعيلية ببـــلاد اليمن سنة ٥٠٤ أرسل الخليفة الآمر الى السيدة الحرة الداعى على بن ابراهيم ابن نجيب الدولة سنة ٥١٣ هـ ليكون عونا لها ضد اعدائها . واشترك ابن نجيب الدولة مع السيدة الحرة فى ادارة شئون اليمن وصار من كبار الدعاة فى تلك البلاد ومنفذا لسياسة الفاطميين بها .

(محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١٠٠)

(٣) اهتمت الملكة الحرة بأمر الدعوة الطيبية وعينت الذئيب بن موسى الوادعى داعيا مطلقا وذلك فى الشطر الاول من دور الستر وانفصلت بذلك عن مصر نهائيـــا (حسن سليمان محمود : الصليحيون فى اليمن وعلاقتهم بالفاطميين فى مصر ، رسالة دكتوراه ، القاهرة ٥١ ـــ ١٩٥٤ ، ص ١٧٤)

من قبل الصليحيين وكانوا على ولاء للخلفاء الفاطميين • واستفاد بنو زريع من الخلاف الواقع بين الخليفة والسيدة الحرة فأعلنوا خروجهم عن طاعة الصليحيين واستقلالهم بعدن مستندين الى تأييد الخليفة الحافظ لهم • وقام بنو زريع بنشر الدعوة للفاطميين ، الا ان هذا البيت تقلص سريعا ولم يحفظ لمصر نفوذها فى بلاد اليمن (١) • وسرعان ما انتهى النفوذ الفاطمى تماما وتلاشى من هذه البلاد بزوال الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ ، وبارساله حملة اليها بقيادة أخيه توران شاه ليقضى على النفوذ الفاطمى بها •

ويتضح لنا من ذلك ان الفاطميين حرصوا كل الحرص على فرض ولائهم السياسى والمذهبى فى بلاد اليمن لتأمين تجارتهم فى البحر الاحمر وتدعيم علاقتهم التجارية مع هذه البلاد •

اما بالنسبة للحجاز فقد حرص الفاطميون على فرض ولائهم السياسى عليه لدعم خلافتهم واعلاء شأنهم امام العباسيين باعتبارهم اصحاب السيادة على الحرمين ، واستتبع تحقيق هذا الهدف السياسى الهدف التجارى وهو حماية مصالحهم التجارية فى البحر الاحمر الذى تتحكم الحجاز فى ساحله الشرقى •

ولم يكن يدر بخاطر العباسيين ، بعد أن تقلدوا زمام الحكم ، أن الاحتفاظ بالسيادة على مكة والمدينة سيكون له أثر فى وثوق رعاياهم من المسلمين باحقيتهم فى الخلافة ، فلما طمع الفاطميون فى السيطرة على هاتين المدينتين ظهرت من ثنايا النزاع بينهم وبين العباسيين على امتلاك الاراضى المقدسة بالحجاز نظرية جديدة تتضمن ان امير المؤمنين الحقيقى هو من استطاع بسط نفوذه على الحرمين المكى والمدنى (٢)وكان

---

(١) حسن سليمان : الصليحيون فى اليمن ، ص ١٧٧ •
(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣ •

العلويون فى هذا النزاع على الاراضى المقدسة هم الخصم الثالث الذى استفاد من النزاع بين الطرفين ؛ اذا استقل امـراء الاشراف من بنى الحسن بمكة كما استقل بالمدينة امراء الاشراف من بنى الحسين واصبح هؤلاء الامراء سادة الحرمين •

وقد تحقق للفاطميين السيادة على الحجاز فى الفتـرة الاولى من خلافتهم بمصر لما كانت عليه الخلافة العباسية وقتذاك من ضعف تجلى فى تهديد القرامطة لها ولمس أهل الحجاز ضعف الخلافة العباسـية فيما قام به القرامطة من الاغارة على مكة وانتزاع الحجر الاسود من مكانه بالكعبة ؛ كما لمسوا قوة الفاطميين فى تحقيق القرامطة لرغبتهم فى اعادة الحجر الاسود الى مكانه • وفضلا عن ذلك فقد كانت الصـدارة بمكة وقتذاك لاشراف الحسنيين ؛ وهؤلاء وان كانوا سنة الا أنهـم يربطهم بالفاطميين شرف الانتساب الى على وفاطمة ؛ ومن ثم شـجع الفاطميون قيام حكم الاشراف فى مكة وهؤلاء بادروا من جانبـهم بالاعتراف للفاطميين بالسيادة على الحرمين (١) •

بدأ اهتمام الفاطميين بأمر الحجاز منذ خـلافة المعز لدين الله الفاطمى بالمغرب ؛ فقد رأى هذا الخليفة على أثر ما بلغه من وقـوع نزاع بين بنى الحسن وبنى جعفر بن أبى طالب أن يعمل على حسـم الخلاف بينهم ، فأنفذ اليهم مالا ورجالا وفقوا بينهما ، وقام رسـل الخليفة الفاطمى بآداء دية قتلى بنى الحسن سنة ٣٤٨ هـ مما كان له أحسن الاثر فى نفوسهم • ولما تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨هـ بادر جعفر بن محمد بن الحسين فاستولى على مكة ودعى للمعـز على منابرها ، فبعث اليه المعز من المغرب بتقليده الحرم وأعمـاله (٢) •

---

(١) احمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الاحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٦٨ ؛ ص ١٩٥ •

(٢) حكم جعفر من سنة ٣٥٨ هـ حتى سنة ٣٧٠ هـ ، ويعتبر مؤسس اسرة بني فليته الهواشم التى كانت موالية للفاطميين
(De Gaury: Rulers of Mecca, London 1951, p. 59).

وأقيمت كذلك الخطبة للمعز بالمدينة المنورة ، وحذف اسم الخليفة العباسى المطيع لله من الخطبة فى كل من مكة والمدينة • وعمل المعز ومن خلفه من خلفاء الفاطميين على تثبيت سلطتهم على هاتين المدينتين بالاموال التى صاروا يرسلونها اليهما • فقد انفذ المعز سنة ٣٥٩ هـ أموالا واطعمة كثيرة الى الحجاز ، وأرسل كذلك صلة لامير مكة • واستمرت هذه الصلة قائمة يرسلها الخلفاء الفاطميون الى هذا الامير ، وكانت تقدر بنحو ثلاثة آلاف دينار شهريا فضلا عن الخيول والخلع التى كانت ترسل اليه مرتين فى العام (١) وقد غالى الخلفاء الفاطميون كذلك فى الصرف على قافلة الحج الى الاراضى المقدسة ، وأورد المقريزى أن المنفق من قبل الفاطميين فى كل عام تسافر فيه قافلة الحج مائة وعشرين الف دينار منها ثمن الطيب والحلوى والشمع عشرة آلاف دينار ونفقة الوفد المسافر اربعون الف دينار ، وقيمة الحمايات والصدقات ونفقات حفر الابار وغير ذلك من الامور المتصلة بسلامة القافلة ستون الف دينار • وأورد ان النفقة فى أيام الوزير اليازورى قد زادت عن كل سنة ووصلت الى مائتى ألف دينار الأمر الذى لم يحدث مثله من قبل (٢) وكانت كسوة الكعبة ترسل مرتان فى كل عام (٣) كذلك كانت ترسل مع

---

(١) ناصرى خسرو : سفرنامة ، تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) المقريزى : الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٤ .
— كسى الفاطميون الكعبة بالحرير الابيض ، وكانت تعمل بدار الخرنفش (عن الكسوة فى العهد الفاطمى ، انظر محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، القاهرة ١٣٢٩ هـ ، ص ١٣٤ — ١٣٦) .

(٣) ناصرى خسرو : سفرنامه ، ص ٦٦ (كان العباسيون يرسلون كسوتين للكعبة فكانت تكسى الديباج يوم التروية حتى السابع والعشرين من رمضان وتكسى قباطى القطن يوم عاشوراء — القلقشندى صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٦) .

الكسوة أستار ضريح الرسول (١) •

وظل اخلاص ولاة مكة للخلفاء الفاطميين قائما طالما كانت عطاءاتهم لهم متصلة ، وكان الخلفاء الفاطميون يدركون تلك الحقيقة جيدا •وكان أشراف مكة على يقين من أن حاجة كل من الفاطميين والعباسيين اليهم تفوق حاجتهم الى هذه المساعدات والاموال • ومن هذا المفهوم تأرجحت السيادة على الحرمين الشريفين والسيطرة على بلاد الحجاز بين القاهرة وبغداد • وكانت مظاهر هذه السيادة تتمثل فى الدعاء للخليفة من فوق منابر مكة وفوق جبل عرفات يوم الحج وتعليق الكسوة الشريفة • وكان على كل من الخليفة الفاطمى والعباسى أن يبذل قصارى جهده وأن يتفوق على خصمه لتحقيق مظاهر السيادة هذه ؛ وكان هذا التفوق يعتمد على مدى قوة كل من الخليفتين فى بلاده سياسيا وأقتصاديا (٢) •

ظلت مظاهر السيادة هذه تقام للخليفة المعز فى كل من مكة والمدينة لاستمراره فى سياسة العطاء لولاة كل من المدينتين حتى وفاته سنة ٣٦٥هـ وانقطع هذا العطاء فى عهد ابنه العزيز من بعده ، فانقطعت بالتالى الخطبة له • وارسل العزيز سنة ٣٦٧ هـ جيشا جعل قيادته لأمير الحج ادريس بن زيرى الصنهاجى ، وهزم هذا الجيش قوات الشريف جعفر الذى هرب الى البادية ، واستولى ادريس على مكة والمدينة وأقام الخطبة للعزيز فوق منبر الحرمين • وما أن عادت الحملة العسكرية الفاطمية من الحجاز حتى عاد جعفر الى ولاية مكة ومنع الدعاء للعزيز فى الخطبة واستمر الامر كذلك حتى وفاته سنة ٣٧٠ هـ • وخلف الشريف جعفر ابنه عيسى الذى حكم مدة اربع عشرة عاما (من

---

(١) كانت هذه الاستار تتكون من ٤٤ قطعة من الحرير الابيض مع مثيلتها من الكتان الابيض ، وكانت زخرفة هذه الكسوة تتوقف على حالة مصر المالية .

(٢) احمد دراج : ايضاحات جديدة ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

٣٧٠ — ٣٨٤ هـ) ؛ ولم يكن نفوذ مصر مستقرا فى بلاد الحجاز طوال عهد العزيز بسبب تذبذب ارساله المساعدات الى هذه البلاد • فنرى ان الشريف عيسى يسمح فى عام ٣٨٠ هـ لامير الحاج العراقى بأن يدعو لعضد الدولة بن بويه من على منابر مكة ؛ بسبب ارسال البويهيين الاموال والغلات اليه • وأدى هذا الامر الى أن يرسل الخليفة العزيز الفاطمى فى نفس العام حملة عسكرية الى الحجاز ضيقت الحصار على أهلها ؛ ونجحت هذه الحملة فى تثبيت نفوذ مصر بالحجاز واقامة الدعوة للخليفة العزيز الفاطمى وقطعها عن الخليفة العباسى والامير البويهى فى كل من مكة والمدينة (١) •

أما عن المدينة فقد تولى ولايتها أمير من بنى الحسين هو طاهر بن مسلم الذى أعلن ولاءه للفاطميين ، وظل على هذا الولاء حتى وفاته سنة ٣٨١ هـ • وسار من بعده ابنه الحسن بن طاهر ؛ ولقبه مهنى ، على نهجه فى سياسة الولاء للفاطميين والدعاء لهم من على منابر المدينة (٢) •

وفى مكة توفى الشريف عيسى سنة ٣٨٤ هـ وخلفه أخوه الاصغر أبو الفتوح الحسن بن جعفر الذى حكم طوال ٤٥ عاما (٣) • وعاصر هذا الوالى كلا من الخليفة الحاكم بأمر الله والخليفة الظاهر وامتد حكمه حتى أوائل عهد الخليفة المستنصر وكان الشريف ابو الفتوح ، فى بداية عهده ، مخلصا فى ولائه للخليفة الحاكم بأمر الله ، حتى انه اظهارا لهذا الولاء سار فى سنة ٣٩٠ هـ الى المدينة وازال عنها أمرة بنى مهنى حين

---

(١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : نفس المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣) حكم الشريف ابو الفتوح من سنة ٣٨٤ حتى سنة ٤٣٠ هـ حكما متواصلا ما عدا فى الفترة ما بين سنتى ٤٠١ — ٤٠٣ هـ حيث انتزع الحكم منه داود بن عبد الرحمن بن عبد الله من البيت السليمانى .
(De Gaury : Op. Cit., p. 60).

بلغه طعنهم فى نسب الفاطميين ، وجمــــع بذلك بين امارة المدينتين المقدستين • غير أن هذا الشريف لم يحتفظ طويلا بامارته للمدينة بسبب استعادة بنى مهنى لها واعلان ولائهم للفاطميين • وخرج ابو الفتوح عن ولائه للخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ ؛ بل انه أعلن نفســـه خليفة ، وكان ذلك نتيجة اغراء الوزير ابى القاسم حسين بن على المغربى وتشجيعه على ذلك • غير ان ابا الفتـــوح لم يلبث ان عاد الى طاعة الخليفة الحاكم بامر الله واعلن طاعته له بعد ان ثبت له فشل مشروعه ، فقبل الخليفة الفاطمى منه ذلك وعفى عنه واعاده الى امارته على مكة • وعمل ابو الفتوح ؛ منذ عودته الى مكة ، على اقامة الدعوة للخليفـــة الحاكم بأمر الله كما قام بنقش اسمه على السكة ؛ ولم يعاود بعد ذلك خروجه عن طاعة الفاطميين • ولما مات الخليفة الحاكم بأمر الله (سنة ٤١١ هـ) خطب أبو الفتوح لابنه الظاهر ؛ كما خطب من بعده لابنـــه المستنصر سنة ٤٢٧ هـ ، وظل على ولائه للفاطميين حتى وفاته ســـنة ٤٣٠ هـ (١) • ثم خلف ابو الفتوح ابنه محمد شكر (٤٣٠ — ٤٥٣ هـ) ، وتمكن من بسط نفوذه على المدينة واقام الدعـــوة للمستنصر بالله فى الحرمين ؛ واستمر واليا على المدينتين ومخلصـــا للفاطميين حتى وفاته سنة ٤٥٣ هـ • وقد توفى محمد شكر دون أن ينجب أولادا يتولون امارة مكة من بعده فزال بوفاته نفوذ بنى سليمان بمكة ، واستقل بامارة مكة محمد بن جعفر بن أبى هاشم (رئيس الهواشم) بعد ان حارب بنى سليمان وهزمهم سنة ٤٥٤ هـ واخرجهم من الحجاز الى اليمن • واعلن محمد بن جعفر ولاءه للفاطميين واقام الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى • وبسبب اضطراب احوال البلاد فى عهد المستنصر وتوقف مساعدات مصر الى الحجاز فى بعض السنوات تذبذب ولاء بنى هاشم ما بين الفاطميين والعباسيين فكانوا تارة يخطبون للمستنصر الفاطمى وتارة اخـــرى

---

(١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٦ ، ٢٧ •

للقائم بأمر الله العباسى (١) . وفى عام ٤٥٥ هـ عهد الخليفة المستنصر الى على بن محمد الصليحى داعيه باليمن بارسال حملة الى مكة لاستعادة نفـوذ بها فاستجاب الصليحى لذلك (٢) . ونجح فى اسـتعادة النفوذ الفاطمى على الحجاز بعد هزيمة محمد بن جعفر وهربه الى الصحراء ومن ثم عادت المعونات المصرية الى أهل الحجاز (٣) . ولم يلبث أن عاد محمد بن جعفر الى مسرح الاحداث . مستغلا الظروف السيئـة التى مرت بها مصر بسبب الشدة العظمى ورحيل القوات اليمنية ، فاستولى على مكة وحذف اسم المستنصر من الخطبة ، ودعى للخليفة القــائم بأمر الله العباسى الذى ارسل اليه ثلاثين ألف دينـار (٤) . وقام ابن جعفر بغزو المدينة وأزال عنها امرة بنى مهنى وجمع بين الحرمين وجعل الدعاء على منابرها للخليفة العباسى . وهكذا ادار هذا الوالى ظهـره للقاهرة وظل على ولائه للخليفة العباسى القائم بأمر الله . ولما تـوفى الخليفة القائم بأمر الله وانقطعت الاموال والصلات التى كانت تصـله من بغداد اعاد محمد بن جعفر الدعاء للمستنصر الفاطمى . غير انه ما ان ارسل له الخليفة العباسى الجديد (المقتدى بأمر الله) الاموال حتى بادر بالغاء الدعاء للمستنصر الفاطمى واعاد الدعاء للعباسيين . وظـل هذا الامير متلونا فى ولائه حتى وفاته سنة ٤٨٧ هـ . ونهج ابنه قاسم من بعده نفس نهجه فى اقامة الخطبة للعباسيين ، وأرسل اليـه كل من الخليفة المستظهر وابنه المسترشد بالله العباسيين الخلع والامــوال فضمنا بذلك الدعاء لهما . وتوفى الشريف قاسم فى سنة ٥١٨ هـ فخلفه ابنه فليتة الذى ورث عن والده ولاءه للعباسيين بسبب استمرار صلاتهم

---

(١) De Gaury: Op. Cit., pp. 60-61.

(٢) المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ٦٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون باخبار اليمن الميمون ، مخطوطة ، ورقة ١٤ أ .

(٤) De Gaury: Op. Cit., p. 61.

له حتى وفاته فى سنة ٥٢٧ هـ . أما ابنه هاشم الذى حكم من بعـــده فقد تذبذب فى الدعاء بين الخليفة الحافظ الفاطمى والخليفة المستنجـد بالله العباسى ؛ وحذى حذو هاشم ابنه قاسم الذى آلت اليه امارة مكة سنة ٥٤٩ هـ حتى وفاته سنة ٥٥٦ هـ . وولى بعده الامير عيسى بن فليته الذى زالت فى عهده دولة الفاطميين من مصر (١) .

(1) Ibid, pp. 62-63.

سياسة الفاطميين التجارية واثرها على

نشاط الحركة التجارية بين مصر وأوروبا

كان التسامح الدينى هو طابع سياسة الخلفاء الفاطميين ازاء أهل الذمة ، فأطلقوا لهم الحرية فى شتى مظاهرها ، واستغل الكثيرون منهم هذه الحرية فى الميدان الاقتصادى • كما فتحت البلاد أبوابها للتجار الاجانب يفدون عليها من أوروبا والشرق حاملين سلعهم الغالية القيمة والعظيمة المنفعة (١) • وأدت سياسة التسامح الدينى التى انتهجها الفاطميون ازاء التجار الاوروبيين الى تسابق تجار المدن الايطالية التجارية الى اسواق مصر ، وحصلوا من الخلفاء الفاطميين ، عن طريق المعاهدات التى عقدتها دولهم معهم ، على تسهيلات تجارية فى داخل البلاد وعلى بعض الامتيازات (٢) •

وقد ظلت مصر بعد الفتح العربى ، كما كانت من قبل ، مقصدا للتجار الاوروبيين فى طلبهم لمنتجات الشرق الاقصى التى كانت تتدفق عليها ، كما ظلت محط مرور هؤلاء التجار فى طريقهم من بلادهم الى الشرق الاقصى طلبا لسلع الشرق الفائقة القيمة • وكانت الحركة التجارية بين مصر وأوروبا تقوم على اكتاف جماعات اليهود الرازانية حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) • وكان هؤلاء التجار يجيدون لغات البلاد التى كانوا يحلون بها سواءا فى الشرق أو فى الغرب وبذلك لم تعترضهم عقبات فى البلاد التى كانوا يحلون بها (٣)

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٠
(٢) احمد دراج : عيذاب ، ص ٥٨ .
(٣) Pirenne : Histoire économique et sociale du Moyen Age, Paris, 1969, p. 10.

وفى ظل الخلافة الفاطمية مارست مصر استقلالها الاقتصادى كما مارست استقلالها السياسى ، وأطلق الخلفاء الفاطميون يدهم فى عقد المعاهدات التجارية مع الدول فى الشرق والغـرب • وكان الخلفـاء الفاطميون يدركون أهمية التجارة لهم فى تحقيق هدفين أساسيين : أولهما تدعيم وتنمية اقتصاد بلادهم والاستفادة من دخل تجارة المرور عبر الاراضى المصرية فى تدعيم هذا الاقتصاد ، وثانيهما اتخاذ التجارة وسيلة لفرض الولاء السياسى والمذهبى فى بلدان العـالم الاسـلامى لخدمة معركتهم على السيادة مع العباسيين • وتحقيقها لهذه السياسة المزدوجة عقد الفاطميون عددا كبيرا من المعاهـدات التجـارية مع دول الشرق والغرب (١) •

أما عن معاهداتهم مع الغـرب ، فقـد كان الفاطميون ، وهم فى أفريقية ، على صلات تجارية طيبة مع مدن ايطاليا التجارية وبخاصـة أمالفى والبندقية (٢) • وقد عمل الفاطميون ، بعد أن فتحوا مصر ، على استمرار هذه العلاقات التجارية مع المدن الايطالية وعلى نمائها • وقد لقت هذه الرغبة من الجانب الاسلامى رغبة مماثلة من جانب الاوروبيين • ذلك لان هذه الفترة (منتصف القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى) شهدت فى أوروبا بداية عصر اليقظة الاقتصادية فى المدن المطـلة على الشاطىء الاوروبى فى البحر الابيض المتوسط • وأدت هذه اليقظة الى نمو هذه المدن وتطورها فى طريق الحكم الذاتى وقيام « القومونات » أو الجمهوريات فى هذه المدن (٣) • وأدت هذه اليقظة الى أن يستعيد

(١) B. Lewis : The Fatimides and the route to India, p. 52.

(٢) Ibid, p. 52.

(٣) لفظ قومون هو ترجمة حرفية لكلمة (commune) وكان استعمالها فى العصور الوسطى للدلالة على المدن الايطالية التجارية وكذلك المـدن الفرنسية التى استطاعت بفضل ثروتها الاقتصادية الجديدة ان تحصـل على براءات تخولها الهيمنة على شئونها الداخلية وان تصبح الحكومة فيهـا بيد غير ارباب الاقطاع اى طبقة التجار وارباب المهن • =

البحر الابيض المتوسط المكانة الاقتصادية التجارية اسابقة التى كانت له زمن الامبراطورية الرومانية (١) ، وأن يتحول مركز التجارة العالمية عن المحيط الهندى الى هذا البحر • وقد أخذت المدن الايطالية مثل أمالفى والبندقية وجنوه طريقها الى التطور أسرع من غيرها من مدن البحـــر الابيض ونجحت القومونات بها ثم تبعتها بعد ذلك مدن أقليم بروفانس (بفرنسا) ومدن أسبانيا (٢) •

هذا وقد تطلعت هذه المدن الايطالية التجارية فى عصر بدء قيام القومونات بها لعقد صلات تجارية طيبة مع الدولة الفاطمية أكبر قـــوة سياسية وأقتصادية فى حوض البحر المتوسط آنذاك • ودخلت ، بناءا على ذلك ، العلاقات التجارية بين الشرق والغرب فى عهد جديد وحلت الجهود الدولية فى التجارة محل الجهود الفردية بعد أن دخلت المـــدن الايطالية التجارية مع الحكومة الفاطمية فى علاقات تجارية دولية تنظمها المعاهدات المعقودة بين الخلفاء الفاطميين وحـــكام هـــذه القومونات

وقد نظمت المعاهدات التجارية المعقودة بين الجانبين الاوروبى والاسلامى طريقة التعامل وطريقة التمثيل بينهما ، كذلك تضمنت الحقوق والامتيازات والاعفآت الممنوحـــة لكل طائفـــة من طـــوائف التجـــار والجمهوريات (٣) • وأدى هذا التحول فى التعامل التجارى الى تقلص

= (فيشر : تاريخ اوروبا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٩٧ ، حاشية رقم (٥)) .

ـــ وقد اطلق القلقشندى هذا الاسم وهو صاحب الترجمة الحرفيـــة له حيث ورد ان ديوان الانشاء المملوكى بالقاهرة استعمل هــــذا اللفظ فى مخاطبة حكام مدينة جنوة الايطالية .

(انظر : صبح الاعشى ، جـ ٨ ، ص ٤٦) .

(١) احمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١١٩ .

(٢) Pirenne: Les Villes du Moyen Age, Paris, 1971, p. 62.

(٣) احمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١٢٦ .

نشاط التجار اليهود الرازانية تدريجيا ثم الى توقفه تماما مع نهـاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) (١) •

وقد نظمت المعاهدات التجارية المعقودة بين الجانبين الاوروبى والاسلامى طريقة التعامل وطريقة التمثيل بينهما ، كذلك تضمنت الحقوق والامتيازات والاعفاءات الممنوعة لكل طائفة من طـوائف التجـــار الاوروبيين (٢) • وقد سمحت الحكومة الفاطمية لهؤلاء التجار الغربيين باقامة الفنادق الخاصة بهم التى كانوا يحلون بها عند وصـولهم الى البلاد (٣) • وأكثر من ذلك فقد خصصت الحكومة الفاطمية حيا خاصا للاوروبيين يقع على مقربة من باب النصر ليعيش فيه المستوطنون منهم ويقيم فيه تجارهم عندما يفدون الى مصر (٤) • وأدت سياسة التسامح الدينى التى انتهجها الفاطميون ازاء تجار الفرنج ومعاملتهم الطيبة لهم والسماح لهم بحرية التنقل فى البلاد الى ازدهار الحركة التجارية بين مصر وأوروبا ووفود أعداد كبيرة من تجـار الفـــرنج الى مصر فى عهدهم (٥) • وتشير وثائق الجنيزة الى أن الاوروبيين كانوا يترددون بكثرة على مصر فى عهد الفاطميين ، وأن المعاملة التى كانوا يعاملون بها ، حتى بعد الحرب الصليبية ، كانت ولا سيما فى القاهرة بتســامح لم يشاهد فيما بعد (٦) •

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ص ٣١٢ •

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 386.

(٣) سليمان مصطفى زبيس : المامة عن أحوال القاهرة وعلاقاتها مع الخارج فى عهد الفاطميين ، من أبحاث الندوة الدولية للقاهرة ، ج ١ ، ص ٥٩٢ •

(٤) احمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١٢١ •

(٥) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصـــادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢١٢ •

(٦) كلود كاهن : تجار القاهرة الاجانب فى عهد الفاطميين والايوبيين (من ابحاث ندوة القاهرة الدولية ، ج ٢ ، ص ٨٧١) •

وكان معظم الايطاليين الذين ترددوا على مصر فى العصر الفاطمى الاول من مدينة أمالفى ؛ ذلك أن مدينة أمالفى كانت أول المدن الايطالية التجارية التى أنشأت علاقات مع الفاطميين وعقدت معهم معاهــدات تجارية • فقد عقدت فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) معاهدة تجارية مع مصر (١) • ولقد شوهدت سفن الامالفيين فى مدينة الاسكندرية فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ؛ كما بلغ عدد من كان يقيم منهم فى القاهرة حوالى مائتين (٢) • وقد سمح الخليفــة المستنصر الفاطمى لاهالى أمالفى فيما بين عامى ٤٥٦ و ٤٦٣ هـ/١٠٦٣ — ١٠٧٠ م بقطعة فسيحة من الارض ببيت المقدس فشــيدوا عليها دير القديسة مريم اللاتينية لاستضافة تجارهم وحجاجهم (٣) •

وجاءت البندقية بعد أمالفى فى ترتيب الجمهوريات الايطــالية التجارية التى أقامت علاقات تجارية مع مصر الفاطمية (٤) • وقد أوفدت البندقية تجارها الى مصر فى سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٦ م لنقل توابل الهند وسلع الشرق من مصر الى أوروبا بعد أن عقدت أولى معاهداتها التجارية مع مصر فى هذا العام (٥) • وحصلت البندقية بمقتضى هذه المعاهدة على امتيازات خاصة لتجارها وسفنها فى موانى مصر (٦) • وحمــل تجــار البندقية الى مصر الخشب وفراء بيزنطة (٧) • وقد أستمر البنادقة فى نقلهم للخشب اللازم لمصر لبناء السفن ولم يتوقفوا عن ذلك الا فى سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) ؛ حين أضطر لذلك الدوق بطرس كانديانو الرابع دوق

---

(١) — لم يرد تاريخ هذه المعاهدة واكتفت المصادر بالقــول انها كانت فى القرن الخامس الهجرى .

(٢) كلود كاهن : تجار القاهرة الاجانب ، ص ٨٧٢ .

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 306.

(٤) Ibid, p. 306.

(٥) احمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١٢٤ .

(٦) Kammerer : La Mer Rouge à travers les Ages, p. 23.

(٧) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 306.

البندقية ، وكان قد تلقى من الامبراطور البيزنطى حنا زيمسيس John Tzimisces تهديدا بأن يلحق الضرر به وبمدينته • واكتفى البنادقة بنقل الخشب الغير صالح لبناء السفن (١) • واستمرت العلاقات طيبة بين البندقية والحكومة الفاطمية ، وكان من أثر هذه العلاقات الطيبة بين الطرفين أن تأخر دخول جمهورية البندقية فى الحروب الصليبية الى مابعد سقوط بيت المقدس فى يد الصليبيين (٢) •

أما جنوه فقد حذت حزو البندقية فى اقامة علاقات تجارية مع مصر وتم لها ذلك حين عقد مندوب عنها فى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م معاهـــدة تجارية مع الخليفة المستنصر (٣) ، وحصل بمقتضى هذه المعاهدة على تعهد من الدولة الفاطمية بحماية رعاياها أثناء اقامتهم فى أراضيها • وعقب ابرام هذه المعاهدة توافد على مصر عدد كبير من تجـــار جنوه وزاولوا نشاطهم فيها وبخاصة فى مدينة الاسكندرية (٤) •

وجاءت بيزا فى ذيل قائمة المدن الايطالية التى عقدت معاهداتها التجارية مع مصر فى عهـــد الفاطميين • وكان ذلك فى سنة ٥٤٩ هـ/—١١٥٤ م (٥) حتى أرسلت سفيرا من عندها أسمه رانيرى بوتاشيو الى بلاط الخليفة الظافر لتسوية بعض المشاكل الناجمة عو اعتداء بعض التجار المصريين بالقتل والسلب (٦) •

---

(١) سامى سلطان سعد : اسس العلاقات الاقتصـــادية بين الشرق الادنى والجمهـــوريات الايطالية من ١١٠٠ الى ١٤٠٠ م ، رســـالة ماجستير ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٤ •

(٢) سامى سلطان سعد : نفس المصدر السابق ، ص ١٧ •

(٣) Pirenne : Les Villes du Moyen Age, p. 66.

(٤) Heyd : Histoire du Commerce, I, p. 391.

(٥) Wiet : L'Egypte Arabe, IV, p. 308.

(٦) Clerget : Le Caire, II, p. 323.
Wiet : L'Egypte Arabe, p. 388.

وكانت الحكومة الفاطمية قد ثارت لرعاياها المصريين بمعاقبة التجار البيازنة المقيمين فى مصر • وأستطاعت هذه السفارة البيزية أن تسوى هذا الخلاف وأن تعقد اتفاقا مع الحكومة الفاطمية تتعهد فيه الحكومة البيزية بالاقتصاص من المعتدين والامتناع عن تقديم أى مســاعدة للصليبيين فى الشام ولغيرهم من أعداء مصر • وتعهدت الحكومة المصرية من جانبها باطلاق سراح البيزيين المسجونيين وحماية التجار والحجاج البيازنة الذين يسافرون فى سفن غير حربية (١) • كذلك وافقت الحكومة الفاطمية على طلب تقدم به البيزيون للسلطات المصرية بالسماح باقامة فندق لهم (٢) • وأقام البيازنة فندقا لهم فى الاسكندرية وآخر فى القاهرة بناءا على موافقة الحكومة الفاطمية (٣) • وحرصا على استمرار العلاقات الطيبة مع مصر سارعت حكومة بيزا بارسال وفدا للتهنئة بتولى طلائع ابنرزيك الوزارة فى مصر (٤) •

أما عن علاقات مصر التجارية فى العهد الفاطمى مع الدولة البيزنطية ، فعلى الرغم من المنازعات السياسية التى كانت بينهما الا أن العلاقات التجارية بينهما لم تنقطع • فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع تنيس ودمياط ، كما كانت مصر تستورد بعض منتجات الدولة البيزنطية وبخاصة الغلال • وقد ذكر الرحالة ناصرى خسرو أن كثيرا من السلع التى رآها وأعجب بها فى أسواق الفسطاط كانت من واردات بلاد الروم (٥) •

---

(١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص٢٤٩، نقلا عن Heyd

(٢) Clerget : Le Caire, II, p. 323.

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 308.

(٤) Wiet : Op. Cit., p. 308.

(٥) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٥٨ ، نقلا عن ناصر خسرو .

ونتيجة لهذه العلاقات الطيبة بين الدولة الفاطمية ودول أوروبا التجارية اتسع نطاق تجارة الفاطميين معها • وقد أمضى الرحالة ناصرى خسرو عدة أيام فى الاسكندرية وتحدث فى رحلته عن ارتياد الاجانب لها ورواج التجارة بها وازدهارها (١) • كما حدثنا عن رواج الاسكندرية التجارى فى القرن السادس الهجرى ، بسبب ورود التجار الاجانب لها . كل من الجغرافى العرفى الادريسى والرحالة اليهودى بنيامين التطيلى(٢) فقد ذكر بنيامين التطيلى الذى زار الاسكندرية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م (٣) أنه شاهد فى مينائها سفنا عدة تنتمى الى تسع وعشرين دولة ومدينة أوروبية (٤) • وكانت سفن التجار الاوروبيين تنقل من ميناء الاسكندرية الى أسواق أوروبا متاجر الهند الواردة عبر البحر الاحمر • ولا شك أن قيام هذه السفن بنقل سلع الشرق الى أوروبا أدى الى فتح أســـواق جديدة لهذه السلع ، الامر الذى أدى الى أزدياد الطلب عليها وزيادة النشاط التجارى فى البحر الاحمر وازدهار موانيه رخاصة مينائى عدن وعيذاب •

---

(١) Wiet: L'Egypte Arabe, T. IV, p. 306.

(٢) Ashtor: Matériaux pour L'histoire des prix dans L'Egypte, (JESHO, V. VI, Part I, 1963, p. 118).

(٣) Clerget: Le Caire, I, pp. 216-217.

(٤) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصـــــادية فى عهد الفاطميين ، ص ٢٤٣ •

أزدهار مينائى عدن وعيذاب فى العهد الفاطمى

أزدهرت كل من عدن وعيذاب ، مع مطلع القرن الرابع الهجرى ، بسبب رواج تجارة البحر الاحمر وازدهارها ، وأصبحت لهاتين المدينتين ، تبعا لذلك . مكانة عظيمة وسمعة عالمية كبيرة فى عهد دولة الفاطميين .

وكانت بداية ازدهار عدن فى عهد الاسرة الزيادية حين تحـولت تجارة الشرق من الخليج العربى وعادت ثانية الى البحر الاحمر ، وأحتلت المكانة التى كانت عليها مدينة سيراف على هذا الخليج . وأصبحت عدن ، بعد أن عادت تجارة الشرق الى طريقها الاول ، محط رحال التجار وأهم موانى العالم بسبب ما كان يرد اليها من المراكب الواصلة من الحجاز والهند والصين والحبشة (١) . وأستمر ازدهار عدن التجارى بعد أن آل حكم اليمن الى الصليحيين . وكان الصليحيون يختارون لعدن ولاة يثقون فيهم وكان هؤلاء الولاة يرسلون لهم المكوس التى كانوا يحصلونها من هذه التجارة . وأستمر ولاة عدن يرسلون المكوس للصليحيين الى أن حكمها بنوزريع نيابة عنهم . ولما قوى نفوذ بنى زريع أستقلوا بعدن عن نفوذ الصليحيين وحصلوا المكوس لانفسهم . وبلغت عـدن قمـة ازدهارها التجارى حين استقل بحكمها بنوزريع ، وحكمها من قبلهم بلال ابن جرير فى الفترة ما بين ٥٣٤ — ٥٤٧ هـ/ (١١٣٩ — ١١٥٢ م) (٢) وجمع بلال لنفسه ثروة طائلة بسبب ما كان يتقاضاه لنفسه من التجار كذلك بسبب مشاركته فى تجارة الهند . فقد خلف وراءه بعد وفاته مبلغ ٦٥٠ ألف دينار مليكى (يمنى) (٣) ، وأكثر من ٣٠٠ ألف دينار مصرى

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ص ٣٢٣ .

(٢) تحدثت وثائق الجنيزة عن نشاط بلال هذا فى التجارة ومشاركته لمضمون كبير التجار اليهود فى عدن آنذاك وتحدثت عن ثرائه الواسع (Goitein : New lights, p. 181).

(٣) كان كل ٢٫٣٥ من الدينار المليكى يســاوى دينار ذهب مصرى (Goitein : Studies, p. 340). وينسب الدينار المليكى الى الملك المكرم الصليحى وكتب عليه السيد المكرم عظيم العرب السلطـان امير المؤمنين (حسن سليمان : الصليحيون فى اليمن ، ص ٢٥٠) .

وما قيمته ١٧٠٠ دينار من التحف الفضية المختلطة ، فضلا عن السلع المختلفة والعطور وبضائع اليمن النادرة التى كان التجار يهادونه بها اذ كان الحاكم الفعلى لميناء عدن (١) .

وكان بنوزريع يدفعون للسيدة الحرة الصيلحية ، أثناء توليهم عدن من قبلها ، مبلغ وقدره مائة ألف دينار فى كل عام . وحين حارب بنوزريع السيدة الحرة وتم الصلح بينهما ، تعهد بنوزريع أن يؤدوا لها نصف خراج عدن فى كل عام وقدره ٦٠٠ ألف دينار ، الامر الذى يعكس لنا مدى أزدياد دخل هذه المدينة من عائدات تجارة الشرق (٢) .

وقد آلت لمدينةعدنالمكانة التجاريةالتى كانت لمدينة كيش (قيس) ، وكانت كيش بدورها قد حلت محل ميناء سيراف بعد تدهور أحوال الملاحة فى الخليج العربى (٣) ، الامر الذى دفع حاكم كيش الى الاغارة على مدن محاولا تدميرها ليجبر سفن تجار الهند على الرسو فى جزيرته كما كانت تفعل قبلا ليحافظ بذلك على الاهمية التجارية التى كانت لها (٤) .

وكيش (قيس) جزيرة صغيرة تقع فى الخليج العربى باالقرب من حدود ايران وتقع على خط ٥٤° شرقا ، ٣٠ر٢٦° شمالا ، وتعتبر آخر

---

(١) Goitein : Two Eyewitness reports of the expedition of the king of kish against Aden, (BOAS, V. II, London 1954, pp. 247-248).

(٢) Goitein : Op. Cit., p. 248.

(٣) كان أهل سيراف تجار مهرة وكانت لهم تعاملات تجارية كبيرة حتى ان تاجرا واحدا من تجارها احضر فى مرة الى شركائه من مدينة خانفو بالصين بضاعة قيمتها نصف مليون دينار . وظلت سيراف مزدهرة حتى بداية القرن الرابع الهجرى ، وحين زارها ياقوت الحموى لم يجد بها سوى سكان فقراء كان آباؤهم تجار أغنياء .

(Heyd : Op. Cit., I, p. 165).

(٤) Goitein : Op. Cit., p. 247.

البزر التى يصل المرء منها الى ميناء هرمز قادما من العراق • وموقع الجزيرة جعلها محطة كبرى لتجارة الشرق بعد تدهور ميناء سيراف • وأصل البيت الحاكم الكيشى من عرب جنوب الجزيرة العربية ، وكانوا يقلدون الملوك الفرس الديالمة وكانت لهم ثرات طائلة بسبب عائد تجارة الشرق عليهم • وقد زار كيش الرحالة الاسبانى اليهودى بنيامين التطيلى فى منتصف القرن السادس الهجرى فى الوقت الذى بدأت تفقد فيه مكانتها التجارية بسبب تحول سفن الهند الى عدن (١) • وقد قام ملك كيش بهجومه على عدن للقضاء عليها أو أحتلالها للاستفادة من عائد التجارة الهائلة الذى كان يعود عليها ، وخاصة بعد أن ازداد سعر البهار بمقدار الثلث فى ذلك الوقت (٢) •

وقد روى ابن المجاور (المتوفى سنة ٦٩٠ هـ) قصة هذا الهجوم الذى وقع على عدن حوالى سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥ — ١١٥١ م • كما تضمنت وثائق الجنيزة وصف هذا الهجوم لشاهدى عيان شاهدا هذا الحادث أثناء مرورهما بعدن • وروى الشاهدان الحادث فى خطابين أحدهما مرسل من عدن الى شخص بالهند يدعى « ياجو » أرسله خادمه ووكيل أعماله فى عدن ويسمى « باما » ، والثانى مرسل من عدن الى القاهرة من تاجر الى شريك له فى التجارة (٣) • وهذا الخطاب الثانى يجعلنا نتفق مع ابن المجاور فى أن تاريخ الهجوم على عدن كان فى سنة ٥٣٠ هـ (٤) •

(١) Ibid, p. 247.
(٢) Goitein : Op. Cit., p. 248.
(٣) اورد جواتين ذكر الخطابين فى مقاله :
Two Eyewitness, p. 254-656.
(٤) ارسل الخطاب الثانى الى ابى سعيد الدمياطى وهذا هو الاسم العربى للتاجر اليهودى حلفون بن نيثانيال وهو من كبار التجار الكارمية آنذاك ، وكان حلفون آنذاك بالقاهرة ووردت له فى نفس هذا التاريخ خطابات مماثلة تتناول الحديث عن موضوعات متفرقة .
(Goitein : Op. Cit., p. 250).

وكان يحكم عدن آنذاك ابنا العم مسعود وعباس من بنى زريع من قبل حكام اليمن الصليحيين الموالين للفاطميين • وكان الحاكمان يتقاسمان المكوس المفروضة على سفن التجار الصادرة والواردة الى عدن ؛ وعلى الرغم من أنهما ظلا على وئام مدة طويلة الا أن الخلاف دب بينهما ؛ الامر الذى أعطى الفرصة لحاكم كيش للهجوم على عدن • وذكر ابن المجاور تفاصيل هذا الهجوم ومفاده أن « ولد العميد » ملك كيش هاجم عدن وحاصرها مدة شهرين للقضاء على تجارتها ، لكن هذا الحصار فشل بعد الهزيمة التى حاقت بأسطوله أمام مياه عدن • وأفاد بأن هذه الهزيمة كانت فادحة وأن ملك كيش فقد الكثير من قواته فيها حتى أنه أطلق اسم « الجماجم » على المكان الذى دارت فيه المعركة لكثرة ما وجد بها من عدد رؤوس القتلى من رجاله (١) •

وكان هذا الهجوم الذى وقع على عدن من أكبر الاخطـار التى تعرضت لها التجارة والملاحة فى جنوب البحر الاحمر وبفشله نجت التجارة من الخطر ، وأحتفظت عدن بمكانتها التجارية الحالية • وجمع أهالى عدن من وراء هذه التجارة ثروات طائلة بسبب اشتراك بعض منهم فيها برؤوس أموالهم كما أشترك البعض الآخر بنقل المتاجر وتوفير سبل الراحة للتجار • وقد تاجر المقدسى (المتوفى سنة ٣٨٧ ه) فى عدن وذكر أن هنالك م ندخل عدن من التجار ومعه ألف درهم فعاد منها ومعه ألف دينار ، وأن هنالك من دخلها بمائة درهم فرجع بخمسمائة بسبب ازدياد المكاسب فيها (٢) • ويحكى أن رجلا مصريا يسمى عنان (٣) ، وكان

---

(١) ابن المجاور : تاريخ ابن المجاور ، نشر لوفجرن ، ج ١ ، ص ٥٠ — ٥٢ •

(٢) المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ليدن ١٨٧٧ ، ص ٩٧ ، ٩٨ •

(٣) القيسى : تحفة الالباب ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ٢١٦٧ ، ورقة ١٠١ أ ، ١٠٢ أ

(عاش القيسى فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى والنصف الاول من القرن السادس الهجرى وزار مصر سنة ٥١٢ ه) •

يعمل فى تجارة الهند وأقام مدة من الزمن فى عدن وكون بها لنفسه ثروة طائلة من هذه التجارة حتى صار فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى من أغنى أغنياء عدن وعاد هذا الرجل الى الفسطاط بثروة طائلة .

أما عن عيذاب (١) ، فقد شاركت عدن السمعة والمكانة العالمية زمن دولة الفاطميين وكانت توأما لها . فقد أصبحت عيذاب فى القرن الرابع الهجرى من أعظم مراسى الدنيا بسبب الاعداد الكبيرة التى كانت ترسو بها من مراكب الهند فضلا عن انها كانت الميناء الذى تنتهى اليه قافلة الحجاج الذين كانوا يعبرون ، منها البحر الى جده (٢) .

وبدأت اهمية ميناء عيذاب مع عودة التجارة الى البحر الاحمر ، وكان البحارة والتجار يفضلون الرسو فيها ، عند مقدمهم من عدن وعند رحيلهم اليها ، بسبب عمق وغزارة مياهها فضلا عن خلوها من الشعاب المرجانية التى يمتلىء بها البحر الاحمر والتى كانت من أكبر الاخطار التى تعترض الملاحة فى هذا البحر (٣)

---

(١) تقع انقاض عيذاب شمال ميناء حلايب على البحر الاحمر بمسافة ١٥ ميلا شمالا —
(Paul : Aidhab, A medieval Red Sea Port, SNR, XXXVI, 1955, p. 64).
وهى تقع ايضا الى الجنوب بقليل من خرائب بيرانيس القديمة الواقعة على خط عرض ٢٤ او ٥ر٢٣° قريبا من راس بنياس الحالية (احمد دراج : عيذاب ص ٥٥) .

(٢) ابن جبير : رحلته ، ص ٦٨ .
— المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، ١٩٢٢ ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

(٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٦٨ .

وزادت اهمية عيذاب ابتداءا من سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م ، بسبب الشدة التى قاستها مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وذلك نتيجة لخراب الدلتا وتحول قوافل التجار والحجاج المصريين والمغاربة عن طريق شبه جزيرة سيناء الى طريق النيل حتى قفط او ادفو او اسوان ومنها عبر الصحراء الشرقية الى عيذاب • وأدت حوادث الحــــروب الصليبية الى ان يظل هذا الطريق تعبره قوافل الحجاج والتجار — الى ان — فتح الطريق القديم فى عهد السلطان المملوكى الظــاهر بيبرس (٦٦٦ هـ/١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) (١) •

ويمدنا الرحالة الفارسى ناصرى خسرو ، عند زيارته لمصر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ، بأول نص عن عيذاب • فيذكر أن المكوس كانت تجبى بها على البضائع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن بطريق البحر ، وأن هذه البضائع كانت تنقل من عيذاب عبر الصحراء الشرقية الى أسوان ومن هناك تنقل فى السفن النيلية الى الفسطاط (٢) • وتحدث المقريزى عن عيذاب فى عهد الفاطميين فذكر بأنها كانت من أعظم مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة (٣) •

وقد أهتم الفاطميون برعاية عيذاب وحماية القوافل التجارية التى ترسو فى مياهها من متجرمة بحر القلزم ، فأعدوا — كما ألمحنا من قبل — أسطولا يتكون من خمسة مراكب ، صارت ثلاثة فيما بعد ، يتجول فى مياه البحر الاحمر ، وكانت قاعدة هذا الاسطول فى عيذاب (٤) • وعمل

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠١ •
(٢) سفرنامه ، ص ٧٢ •
(٣) الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٢ •
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٥٢٠ •

الفاطميون على استتباب الأمن فى ميناء عيذاب ونشر الامان فى شوارعها فأمن الناس على تجارتهم الأمر الذى لفت انتباه الرحالة ناصرى خسرو فسجل انطباعه عن هذا الأمان بقوله : « أما الأمن الذى رأيته هنـــاك فانى لم أره فى بلد من قبل » (١) . وفى مكان آخر من كتاب رحلته نجده يقول : « بلغ أمن المصريين وأطمئنانهم الى حكومتهم الى حد أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده الى شىء منها (٢) .

وتبعا لازدهار عيذاب ازدهرت مدينة قوص ، وأصبحت فى العصر الفاطمى أهم أسواق مصر (٣) ، وكانت مدينة حافلة بالأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد عليها من الحجاج والتجـــار اليمنيين والهنود والتجار الاحباش وكان أهلها تجارا على قدر واسع من الثراء (٤) ، وعمل الكثير منهم فى الكارم (٥) .

وأستمر ازدهار قوص وعيذاب طوال العصر الفاطمى بسبب الرخاء الاقتصادى العام الذى أصاب البلاد فى عهـد الفاطميين نتيجة رواج وازدهار تجارة البحر الاحمر .

---

(١) سفرنامة : ص ٦٢ .
(٢) سفرنامة : ص ٦٤ .
(٣) Heyd : Histoire du Commerce, I, p. 381.
(٤) Quatrémère : Mémoires Geographiques et Historiques sur L'Egypte, II, Paris 1811, p. 194.
(٥) Wiet : Les Marchands d'épice, p. 94.

رخاء مصر الاقتصـادى فى العصر الفاطمى نتيجة رواج تجارة البحر الاحمر ومظاهر هذا الرخاء

أدى رواج التجارة عامة وتجارة البحر الاحمر خاصة زمن حكم الفاطميين لمصر الى رخاء البلاد الاقتصادى ، وانعكست آثار هـذا الرخاء على جميع مظاهر الحياة فى هذه الدولة وخاصة فى عهدها الاول • وبرغم تدهور أحوال البلاد فى عهدها الثانى الا أن اقتصاد مصر ظل متينا بسبب استمرار نشاطها التجارى فى البحر الاحمر •

أورد المؤرخون أن الفاطميين جاءوا الى مصر ومعهم كميات هائلة من ذهب بلاد المغرب وأفريقية [١] • وأنهم استغلوا هذه الثروة الطائلة التى جلبوها معهم فى تنشيط اقتصاد مصر ، فأشتركوا برؤوس أموالهم فى تجارة الشرق وشجعوا هذه التجارة وعملوا على رواجها ، كما أهتموا بالصناعة وعملوا على النهوض بها [٢] • وقد أزدهرت الصناعة فى عهد الفاطميين فأصبح عمل المصانع ليس مقصـوراً على امـداد الجيش والاسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى والملابس لطوائف الجند بل تنوعت المنتجات لتغطية حاجة السوق العالمى من منتجات مصر بعد أن أصبحت مركز تجارة العالم [٣] ، فضلا عن الحاجة لسـد متطلبات الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وعامة الشعب [٤] • والصناعات التى أزدهرت فى هذا العصر وتنوعت أصنافها صناعة النسيج بمختلف أنواعه اذ اشتهرت مدن البهنسا وطحا وتنيس وأخميم ودمياط ودبيق بنسيجها على المستوى العالمى ، ولقت منتجاتها سوقا رائجة لها فى تجارة العالم [٥]

---

(١) ذكر ابن زولاق ان المعز لدين الله الفاطمى لما دخل الى مصر دخل معه الف وخمسمائة جمل ذهب عين (تاريخ مصر ، مخطـوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ١٨١٧ ، ورقة ٤٦ ب) .

(٢) القيسى : تحفة الالباب ، مخطوطة ، ورقة ١١ أ .

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 305.

(٤) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٥٥ .

(٥) متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين مركزا هاما لصناعة المنسوجات الحريرية فقد أنشأ المعز لدين الله فيها دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم (١) . وكانت دار الديباج منذ عهد الافضل بن بدر الجمالى تنتج نوعا من الحرير يعرف بالحرير الديباج وكانت له شهرة عالمية (٢) . كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى عصر الفاطميين وكانت مراكز صناعته فى الفسطاط والفيوم والاسكندرية (٣) .

وأصبحت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية فى ذلك العهد (٤) وقد أورد ناصرى خسرو والمقدسى ومن بعدهما المقريزى ما كانت عليه هذه المدينة من عظمة وبهاء ، حتى أن المقدسى جعلها تسبق فى أهميتها كلا من بغداد ودمشق (٥) وأشاد ناصرى خسرو بأسواق الفسطاط وامتلائها بالمتاجر واشتداد حركة الاتجار فيها وخاصة فى سوق القناديل أهم الاسواق بها ، وذكر عنه أنه أغنى أسواق العالم (٦) . وأزدهرت كذلك ، تبعا لازدهار تجارة الشرق ، مراكز التجارة الداخلية الاخرى وخاصة قوص وأسوان ودمياط والاسكندرية (٧) .

ويتضح لنا قوة الاقتصاد المصرى فى العصر الفاطمى من قوة العملة المصرية آنذاك ، فقد سك الفاطميون ، بعد فتحهم مصر ، دينارا

---

(١) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٥٥ .
(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .
(٣) انظر : زكى حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٥٠ — ١٥١ .
(٤) Clerget : Le Caire, I, p. 133.
(٥) Wiet : L'Egypte Arabe, IV, p. 304.
(٦) Clerget : Op. Cit., p. 134.
(٧) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٥٧ .

أطلقوا عليه اسم الدينار المعزى ، وبلغت كمية الذهب فيه من ٩٨٪ الى ٩٩٪ بعد أن كانت نسبة الذهب فى دينار مصر قد وصلت الى ٩٦٪ فى أواخر عهد الاخشيديين (١) .

ويرجع بعض الكتاب قيمة الدينار الفاطمى الى الذهب الذى حصل عليه الفاطميون من غرب أفيقية أثناء حكمهم المغرب وجلبوه معهم بعد فتحهم مصر (٢) ، وهذا القول وان كان ينطبق على الفترة الاولى التى أعقبت انتقال الفاطميين الى مصر ، الا أنه لا ينطبق على الفترة التى تلت ذلك لان ذهب غرب أفريقية كان قد أنقطع عن الفاطميين بخروج بلاد المغرب عن سيادتهم . وليس من شك فى أن احتفاظ الدينار الفاطمى بقيمته طوال العصر الفاطمى انما يعتمـد أساسـا على حـالة مصر الاقتصادية (٣) .

فقد حافظ الدينار الفاطمى على نقاوته طوال عهد الفاطميين ، وأستمرت نسبة الذهب فيه ٩٨٪ ولم تخفض قيمته بسبب وقوع الشدة العظمى فى خلافة المستنصر ولا بسبب قيام الحروب الصليبية فيما بعد ، وهذا يرجع فى المقام الاول الى قوة اقتصاد مصر الذى كان يرتكز أساسا على تجارة الشرق (٤) .

---

(١) وصلت بذلك درجة نقاوة الدينار الفاطمى الى الدرجة التى كان عليها الدينار الاغلبى فى شمال افريقية .

Ehrenkreutz : The standard of fineness of western and eastern dinars before the Crusades, (JESHO, V. VI, Part I, 1963, p. 259).

(٢) أورد القيسى ، الذى زار مصر سنة ٥١٢ هـ ، ان الفاطميين حين كانوا فى بلادهم المغرب يجلبون الذهب من غانة حيث ينبت الذهب التبر فى بلادهم ، وكان التجار يذهبون الى بلاد غانة ويبادلون الذهب معهم بالملح وكانوا يبدأون رحلاتهم من بلدة سجلماسة . واورد أنهم كانوا يبيعون الملح وزنا بوزن الذهب وربما باعوه وزنا بوزنين او اكثر على حسب كثرة التجار وقلتهم (تحفة الالباب ، مخطوطة ، ورقة ٤٦ ب) .

(٣) Ehrenkreutz : Op. Cit., p. 262.

(٤) Ehrenkreutz : Op. Cit., p. 262.

وأتخذت الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر الفاطمى ، بسبب هذا الرواج الاقتصادى ، مظاهر خاصة تقلبت بين ألـوان من البذخ والترف قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الاسلامية • وقد تجلى بذخ الخلفاء الفاطمين فيما أورده المقريزى عن خزائن الفرش والامتعة والجوهر والخيم والشراب • كما نستدل على ذلك من القصور التى بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولافراد أسرتهم ، ومن أشهرها القصر الشرقى الكبير الذى أسس به الخليفة العزيز قاعة الذهب الشهيرة • وقد أورد غليوم رئيس أساقفة صور وصفا رائعا عن زيارة رسـولى أملريك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمى فى عهد الخليفة العاضد (١) •

وقد ترك الخلفاء الفاطميون وأسرهم ثروات طائلة تعكس لنا حالة الرفاهية التى كانوا يعيشونها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر وجدت كميات هائلة من الذهب والاحجار الكريمة فى خزائن الخلفاء وأمرائهم وكبار رجال دولتهم ورد معظمها من بلاد الشرق (٢) • وقد وجد عند أخت للمعز تسمى « سيدة » بعد أن ماتت ، من الذهب العين ثلثمائة صندوق وخمس ويبات فصوص ياقوت وغير ذلك من الاحجـار الكريمة المتنوعة (٣) • وخلفت الاميرة « عبده » بنت المعـز التى توفيت سـنة ٤٤٢ هـ ثروة لا تحصى منها أردب من الزمرد (٤) • ووجد عند القائد جوهر الصقلى عند وفاته ستمائة ألف دينار ذهب وأربعة آلاف درهم فضـة وأربع صناديق مملوءة باللؤلؤ وأربع صناديق ياقوت وألف قصبة زمرد وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج (٥) • ووجد فى خزائن القصر الفاطمى فى أيام

---

(١) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ١٦١ •

(٢) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، الجزائر ١٣٤٦ هـ ، ص ٥٥ — ٥٧ •

(٣) ابن زولاق : تاريخ مصر ، مخطوطة ، ورقة ٤٩ أ

(٤) عطية القوصى : بنو الكنز ، رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١١٥ •

(٥) ابن زولاق : تاريخ مصر ، مخطوطة ، ورقة ٥١ ب

الشدة المستنصرة صناديق كثيرة مليئة بالذهب والاحجار الكريمة منها صندوق به سبعة امداد زمرد قيمتها على الاقل ثلثمائة ألف دينار • ووجد ضمن مخلفات الخليفة العاضد التى أستولى عليها صلاح الدين زمرد طوله أربعة أصابع فى عرض عقد كبير عدا ما وجد من مجوهرات وتحف آخرى (١) • وكانت للوزراء الفاطميين ثروات طائلة فنرى يعقوب بن كلس والافضل بن بدر الجمالى وبنى سهل يعيشـــون فى حياة مترفة ويخلفون ثروات طائلة (٢) •

كما عاد هذا الرخاء على عامة الشعب المصرى وخاصة على التجار • فمن خلال وثائق الجنيزة نرى أن أعدادا هائلة من تجا رمصر ، الذين كانوا يتاجرون فى تجارة الشرق أو فى التجارة الداخلية كانوا يمتلكون ثروات طائلة (٣) • وبدت مظاهر هـــذا الرخـــاء على الشعب المصرى ، فعاش احتفالات متواصلة كان يقيمها له الخلفاء فى مناسبات الاعياد القومية والدينية والاحتفالات الخاصة • فقد ذكر ناصرى خسرو أنه ولد للسلطان (المستنصر) فى سنة ٤٣٩ هـ ولد فأمر الناس باقامة الافراح فزينت المدينة والاسواق زينة أورد عنها قوله : « لو وصفتها لما أعتقد الناس صحة ما أقول ولما صدقونى فقد كانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والنقد والامتعة المختلفة والملابس المذهبة والمقصبة بحيث لا يوجـــد فيها متســـع لمن يريد أن يجلس (٤) •

(١) عطية القوصى : بنو الكنز ، ص ١١٥ •
(٢) Fischel : Jews in the economic life, pp. 72-73.
(٣) يقول ناصرى خسرو (سفرنامه ، ص ٦٢ : .. ورايت امـــوالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها او وصفتها لما صدقنى الناس فى فارس فانى لا استطيع ان احدد اموالهم او احصرها . وقد رايت هناك نصرانيا من سراة مصر قيل ان مراكبه وامواله واملاكه لا يمكن أن تعد .
(٤) سفرنامة ، ص ٦٢ •
— من العبارات التى اوردها ناصرى خسرو عن غنى اهل مصر قوله : كان اهل مصر فى غنى عظيم حين كنت هناك .

وعلى الرغم من تدهور الحالة السياسية والاقتصادية فى مصر فى أواخر عهد الفاطميين (١) ، الا أن أقتصاد الدولة الفاطمية ظل متماسكا بسبب هذه الحركة التجارية العالمية عبر أراضيها (٢) . وليس من شك أن هذه الحركة التجارية العالمية أصابها شىء كثير من الانكماش بسبب قيام الحروب الصليبية ونجاح الصليبيين فى اقامة مملكة بيت المقدس .

---

(١) حدثت بمصر فى أواخر العهد الفاطمى بعض المجـــاعات بسبب تقصير النيل فأثرت على اقتصادها .
— (عن هذه المجاعات ، انظر ، المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ١٥ — ٢٨) .

(٢) Ehrenkreutz: The Crisis of Dinar in the Egypt of Saladin, (JAOS, V. 76, 1956, p. 182).

الحروب الصليبية وأثرها على الحركة التجارية بين مصر وأوروبا

تعرضت تجارة المرور بين الشرق والغرب عبر الاراضى المصرية لحركة مقاطعة من دول أوروبا التجارية غداة قيام الحروب الصليبية • وأراد قادة هذه الحروب باعلان هذه المقاطعة ضرب اقتصاد مصر ليسهل لهم بذلك هزيمتها عسكريا • غير أن هذه المحاولة وان نجحت لبعض الوقت ، فى تحقيق أغراضها فى أواخر أيام الفاطميين الا أنه لم يكتمل لها النجاح بسبب عدم مقدرة الجمهوريات التجارية الاوروبية الاستمرار فيها لما تكبدوه من خسائر وما جرته هذه المقاطعة على اقتصادهم من نكبات •

وقد عرف الغرب ، منذ مطلع القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) مدى أهمية تجارة المرور بين الشرق والغـرب لمصر ، وعرفوا أن هذه التجارة تكون المورد الرئيسى للدولة بما كانت تجبيه من رسوم ومكوس وبما كانت تقوم به من وساطة تجارية (١) • وقد نادى دعاة الصليبيين وقادة الفكر منهم بتنظيم حملة مقاطعة أوروبية لهـذه التجارة بغرض حرمان مصر من مصدر قوتها وثرائها ، فبنجاح هـذه المقاطعة تيسر هزيمة مصر عسكريا كما تيسر بقاؤهم فى الشـام دون منازع • وبدت هذه الفكرة سهلة التحقيق فى بادىء الامـر ، وشرع الصليبيون فى تنفيذها بعد أن نجحوا فى اقامة اماراتهم الاربع ببلاد الشام وتحكموا فى موانىء البحر المتوسط الشرقية • كذلك بعد أن تحكموا فى حصن الكرك بموقعه الاستراتيجى الهام فى طريق التجارة البرية بين مصر وسورية والحجاز وفى الملاحة بخليج العقبة (٢) •

---

(١) احمد دراج : المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٧٠ •

(٢) Beckingham : The Red Sea in the 16th Century, (JMU, No. XXV, 1947-1953, p. 29).

وقد استجابت الجمهوريات الايطالية ، فى بادىء الامر ، لقرار مقاطعة الاتجار مع مصر وشاركت بسفنها ورجالها فى الحروب الصليبية ، حفاظا على رابطة الدين وخوفا من مراسيم الحرمان التى هددهم بها البابا ومن تهديدات أباطرة بيزنطة . ذلك فضلا عن طمعها فى الاستفادة المادية من وراء نجاح هذه الحروب بما تحققه لها من امتيازات واعفاءات ضريبية فى موانى الشام .

وكان البابا أنوسنت الثالث قد أستهل هذا التدخل بتحريم كل تجارة مع المسلمين ،وقد حملت بعض المرسومات البابوية التى أصدرها تهديدات مشددة لكل من يتجاسر من الاوروبيين على أن يبيع للمسلمين الحديد أو السلاح أو الاخشاب التى يجرى استخدامها فى بناء السفن . كذلك حملت هذه المرسومات تهديدات لمن يعمل فى خدمة المسلمين قائدا لسفينة أو مرشدا لها بالحرمان من غفران الكنيسة ومصادرة ممتلكاته وفقدان حريته الشخصية (١) .

وقد تم ، على أثر اعلان الدعوة ، تعاون الجمهوريات الايطالية جنوه وبيزا والبندقية مع الصليبيين فى تنفيذ قرار المقاطعة ضد مصر ، برغم ما كان لهذه الجمهوريات من صلات تجارية مع مصر قبل هـذه الحروب ، وبرغم ما كان يعود عليها من خيرات من وراء هذه الصلات . ولم تكن هذه الجمهوريات مدفوعة للاشتراك فى الحروب الصليبية بسبب الوازع الدينى فحسب ، وانما جرت هذه الجمهوريات وراء أطماعها الخاصة وقد خيل لحكامها أن فى هذه الحـروب فرصـة طيبة لتحقيق المكاسب الذاتية على حساب الصليبيين والباباوية (٢) .

---

(١) السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، القـاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٥ .

وقد شاركت الجمهوريات الايطالية التجارية جنوه وبيزا والبندقية بسفنها ورجالها وعتادها فى الحروب وفى قيام الامارات اللاتينية فى الاراضى المقدسة • وكان للمساعدة التى قدمتها هذه الجمهوريات الفضل الاكبر فى بقاء الصليبيين فى البلاد التى فتحوها فى الشام (١) •

وكانت جنوه أول جمهورية ايطالية أسهمت فى الحروب الصليبية ، ففى سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م وصل الى ميناء السويدية ، جنوبى انطاكية ثلاثة عشر سفينة غربية عليها محاربين من جنوه بكامل عدتهم وعتادهم ، وكان لهذه القوات الفضل فى فتح هذه المدينة ووقوعها فى ايدى الصليبيين (٢) • كذلك وصلت فى سنة ٤٩٣ هـ/١٠٩٩ م سفينتان جنوتيان محملتان بالجنود وشاركت فى حصار بيت المقدس (٣) •

وجاءت البندقية بعد جنوه فى ترتيب الاشتراك فى الحروب الصليبية ضد المسلمين • ففى صيف سنة ٤٩٤ هـ/١١٠٠ م وصل الى ميناء يافا أسطول من البندقية قوامه مائتى سفينة وشارك فى الاستيلاء على هذا الميناء (٤) •

واشتركت بيزا أيضا فى هذه الحروب الصليبية سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٧ م وان جاء اشتراكها متأخرا عن زميلاتها (٥) •

هذا ولم تشترك جمهورية امالفى فى هذه الحروب لانها كانت قد فقدت استقلالها السياسى فى سنة ٤٦٦ هـ/١٠٧٣ م على يد « روبرت جسكارد » ملك نورمان جنوب ايطاليا فأثر ذلك على تجارتها الخارجية

---

(١) Heyd : Histoire du Commerce, I, pp. 132-133.

(٢) Pirenne : Les Villes du Moyen Age, p. 68.

(٣) سامى سعد : اسس العلاقات الاقتصادية ، ص ٢٢ ، ٢٣ •

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٢٤ •

(٥) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 309.

وضاعت عليها فرصة الاشتراك فى الحروب الصليبية والحصول على امتيازات من الصليبيين مثلما حصلت عليه باقى الجمهوريات الايطالية (١)

هذا وقد حصلت الجمهوريات الايطالية التى شاركت فى الحروب الصليبية بالفعل على امتيازات عديدة من قبل الصليبيين ثمنا للمساعدات التى قدمتها ونتيجة لاسهامها فى نجاح هذه الحروب • فقد تنازل حكام الممالك الصليبيين لهذه الجمهوريات عن كثير من المبانى والاراضى الزراعية فى المدن التى فتحوها بمساعدتهم ، كما منحوهم اعفاءات جمركية كاملة أو جزئية وامتيازات تجارية عديدة ، وقد حصلت البندقية على نصيب الاسد من هذه الامتيازات (٢) • فنظير مشاركة سفنها فى حصار يافا سنة ٤٩٤ هـ/١١٠٠ م حصلت من « جود فرى دى بلوين » أحد قواد الحملة الصليبية الاولى على وعد بأن يكون للتجار البنادقة كنيسة وموضع يقيمون لهم فيه سوقا فى جميع المدن التى يفتحها الصليبيون على الساحل السورى أو فى الداخل ، وأن يكون لهم حق الاعفاء التام من الضرائب فى جميع أنحاء مملكة بيت المقدس (٣) • وظلت البندقية فى كل مناسبة جديدة تقدم فيها مساعداتها للصليبيين تطلب امتيازات جديدة • فكان تجارها يمنحون فى كل مدينة يفتحها الصليبيون شارعا وميدانا وكنيسة وحماما ومخبزا ، وكانت لهم أحيانا مرافق اكثر من ذلك فى كل البلاد التى فتحها الصليبيون ، وكان لهم فى بيت المقدس حى بأكمله وأعفيت متاجرهم بالفعل من كل الضرائب فى الموانىء التى كانت ترسو فيها سفنهم وكانت تابعة للصليبيين • وبسبب هذه الامتيازات والتسهيلات

---

(١) سامى سعد : اسس العلاقات ، ص ١٩ .

(٢) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، تعريب احمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق اسكندر القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٣٠ .

(٣) شارل ديل : نفس المصدر السابق ، ص ٣١ .

الكبرى ألقى البنادقة بكل ثقلهم مع الصليبيين فى حربهم ضد المسلمين حتى أن أحد أدواقهم قاد بنفسه سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ م الاساطيل التى حاصرت مينائى صور وصيدا •

هذا وقـد حصلت جمهورية جنوة أيضـا على امتيازات ضخمة وتسهيلات تجارية كبرى فى بلاد الشام توازى ما حصل عليه البنادقة تقريبا نظير مساعدتها للصليبيين بسفنها ورجالها (١) •

أما بيزا فقد حصلت على امتيازات ضخمة فى مدينة عكا : منحها لها عمورى الاول ملك بيت المقدس وكان ذلك بسبب اشـتراكها سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٧ م فى الحملة التى هاجم فيها الاسكندرية لنصرة ضرغام (٢) حاجب الخليفة الفاطمى العاضد ، ضد الوزير شاور أثناء النزاع بينهما على تولى الوزارة فى مصر (٣) • كذلك حصلت بيزا على وعود بامتيازات أخرى مؤداها منحها أحياء كاملة لرعاياها وتجارها فى القاهرة وأعفاء بضائعها أعفاءا تاما من الجمارك فى موانى الاسكندرية وتنيس ودمياط مقابل اشتراكها فى الحملة التى قام بها هذا الملك فى العام التالى ضـد مصر (٥٦٤ هـ/١١٦٨ م) ، غير أن هذه الوعود لم تتحقق بسبب فشل هذه الحملة (٤) • ولم تجن بيزا من وراء هذا التحالف مع الملك عمورى سوى سوء العلاقات مع مصر (٥) •

وتوقفت التجارة بين الشرق والغرب توقفا مؤقتا بسبب قـرار المقاطعة الذى نفذه تجـار الجمهوريات الايطالية ضـد مصر وبسبب

---

(١) سامى سعد : أسس العلاقات ، ص ١٧ •
(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة •
(٣) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٢٨ •
(٤) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥٠
(٥) سامى سعد : نفس المصدر ، ص ٧١ •

اشتراكهم بسفنهم ورجالهم فى الحملات الصليبية . وأمتنعت سفن تجار ايطاليا عن التردد على موانى مصر وخاصة ميناء الاسكندرية ، التى تكدس فيها ما تصدره مصر من صادرات كبرى من المنسوجات والشب والنطرون وغيرها ، وما كان يمر عبر أراضيها من سلع الشرق الهامة المصدرة الى أوروبا . وأضطربت أحوال مصر الاقتصادية فى أواخر العصر الفاطمى بسبب تلك المقاطعة . وقد خيل لقادة الصليبيين أنهم نجحوا فى خطتهم بخنق مصر اقتصاديا وبالتالى امكانية القضاء عليها عسكريا ، الا أن هذه الخطة لم يكتمل لها النجاح ، كما سنرى فى العهد الايوبى ، بسبب تعارض هذه الروح الصليبية مع مصالح الجمهوريات الايطالية وبسبب عدم تحقيق الحروب الصليبية للمطامع التى شاركت من أجلها هذه الجمهوريات فسرعان ما عادت هذه الجمهوريات للاتجار مع مصر بعد أن تغلب لديهم حب الكسب على الوازع الدينى (١) .

---

(١) Wiet: L'Egypte Arabe, T. IV, p. 307.

الباب الرابع

الايوبيون وتجارة البحر الاحمر

- سياسة الايوبيين ازاء تجار الفرنج وأثرها على نشاط الحركة التجارية بين مصر وأوروبا .
- صلاح الدين ومقاومة الخطر الصليبى فى البحر الاحمر .
- سياسة الايوبيين ازاء اليمن وبلاد الحجاز .
- نشاط التجار الكارمية .

ـ سياسة الايوبيين ازاء تجار الفرنج وأثرها على نشاط الحركة التجارية بين مصر وأوروبا •

واجـــه الأيوبيون ، وهم يشرعون فى تثبيت حكمهم فى مصر ، المصاعب الاقتصادية والمالية التى نجمت عن اضطراب الاحوال فى مصر فى أواخر عهد الفاطميين • وكان للسياسة الاقتصادية الحكيمـة التى وضعها صلاح الدين الفضل فى التغلب على هذه المصاعب ـ كما كان لفشل حركة المقاطعة الاوروبية لتجارة المرور بين الشرق والغرب عبر الاراضى المصرية وعودة سفن تجار الجمهوريات الايطالية الى الموانى المصرية ، الفضل الاكبر فى عودة الازدهار التجارى الذى كان لمصر فى عهد الفاطميين •

أشار المقريزى وهو بصدد حديثه عن احداث سنة ٥٦٧ هـ الى قيام أزمة نقدية فى مصر هذا العام أيام كان صلاح الدين يحكم مصر نيابة عن السلطان نور الدين محمود ، وتحدث عن نفاذ العملة الذهبية والفضية من أسواق مصر ، واورد ما نصه على لسان القاضى الفاضل : « وفيها عمت بلوى الضائقة بأهل مصر لان الذهب والفضة خرجا عنها وما رجعا وعدما فلم يوجدا ، ولهج الناس بما عمهم من ذلك وصاروا اذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الغيور له وان حصل فى يده فكأنمـا جاءت بشارة الجنة له » (١) •

ولم تكن حركة المقاطعة الاوربية لتجـارة المـرور عبر الاراضى المصرية هى العامل الوحيد فى خلق هذه الازمة الاقتصادية فى بدء عهد حكم صلاح الدين وانما كانت هنالك عوامل أخرى ساعدت على خلقها ومنها :

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمـد مصطفى زيادة ، الجزء الاول ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٤٦ .

نضوب موارد الذهب من مناجمه المعروفة فى ذلك الوقت • كذلك أرسل صلاح الدين فى هذا العـــام (٥٦٧ هـ) كميات كبيرة من الذهب الى نور الدين محمود والى الخليفة العباسى ، فضلا عن توزيع كميات كبيرة من الذهب بين افــراد أسرة صـــلاح الــدين (١) • وقــد أدرك صلاح الدين حاجته الماسة الى الذهب وهو بصدد بناء دولة مستقلة بمصر وخاصة حين شرع فى بناء جيش وأسطول لمحاربة الصليبيين (٢) • ونجح صلاح الدين فى التغلب على هذه الازمة الاقتصادية بما قام به من حسن استغلال لموارد البلاد ومن تنظيم لمواردها المالية واصـــلاح النقد (٣) •

كذلك انتعش اقتصاد مصر فى عهد صلاح الدين بسبب عـــودة تجارة المرور بين الشرق والغرب عبر أراضيها بعد انقطاعها فترة من الزمن بسبب الحروب الصليبية ، وذلك بعودة الجمهوريات التجارية الايطالية الى الاتجار مع مصر رغم استمرار الحروب الصليبية • وكان اقتصاد هذه الجمهوريات قد أضير بسبب قرار المقاطعة ولم تعوضـــها المكاسب والامتيازات التجارية التى نالتها من قادة الصليبيين عما كانت تجنيه من عائدات التجارة مع مصر • وقد وازنت هذه الجمهوريات بين مدى ما سوف تستفيده من جـــانب الطرفـــين المتنازعين ، المســـلمين والصليبيين ، فوجدت انها سوف تستفيد اكثر من الجانب الاسلامى المعتدى عليه لذلك رجحت عندها كفة التعامل معه •

---

(١) Ehrenkreutz: Contributions to the knowledge of the Fiscal administration of Egypt in the Middle Ages, (BSOASU, V. XVI, Part 3, London 1954, p. 514).

(٢) Ehrenkreutz: Arabic dinars struck by the Crusaders, (JESHO V. II, Part II, 1964, p. 178).

(٣) Wiet: L'Egypte Arabe, T. IV, p. 383.

وكان للجهود التى بذلها صلاح الدين وخلفاؤه من بعده اثر كبير فى جذب التجار الايطاليين ثانية الى الموانىء المصرية • وقد تغلب على عوامل المقاطعة الرغبة المشتركة بين مصر وهذه الجمهوريات فى الاستفادة من هذا الباب الوفير من الربح فى تجارة الشرق • وفضلا عن ذلك فقد أفلحت الجهود التى بذلها صلاح الدين فى تحييد أباطرة بيزنطة فى حربه مع الصليبيين • وقد تم له فعلا بتوقيع معاهدة سلام فى سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م مع الامبراطور البيزنطى اليكسيوس الثانى (١) •

وعلى أثر عقد هذه المعاهدة تشجعت الجمهوريات الايطالية على العودة للاتجار مع مصر من جديد • ذلك أن من أهم الاسباب التى دفعت هذه الجمهوريات للدخول فى مقاطعة الاتجار مع مصر هو خوف حكام هذه الجمهوريات من تهديد أباطرة بيزنطة لهم وخضوعهم لأوامرهم بعدم الاتجار مع المسلمين (٢) •

وقد أدت سياسة التسامح التى اتبعها الايوبيون ازاء تجار الفرنج وعدم القصاص منهم بسبب اشتراك حكوماتهم فى الحرب الى جانب الصليبيين ، الى عودة هؤلاء التجار غير عابئين بتهديدات البابوية •

وكانت قرارات البابوية الخاصة بمنع الاتجار مع المسلمين قد لقيت اعتراضات كثيرة من جانب تجار الفرنج • كما اوضحت البندقية للبابا انوسنت أن اقفال سوق لها مثل تلك الاهمية امام تجارها يعتبر بمثابة ضربة قاضية لاقتصادها • فرضخ البابا أمام هذه الاعتراضات

---

(١) السيد الباز العريني : مصر فى عهد الايوبيين ، ص ٧٣
(كان من نتائج هذه المعاهدة ان اجاز البيزنطيون لصلاح الدين ان يعمر المسجد القائم بالقسطنطينية) .

(٢) السيد الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج١ القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٨١٤ .

وقصر الحظر على بيع المواد الخام التى تخدم مباشرة القوة الحربية لمصر (١) .

ورحب صلاح الدين ، برغم حـالة الحـرب القائمـة بينه وبين الصليبيين ، — بالتجار الايطاليين وفتح لهم أبواب بلاده ، وأغراهم بالعودة الى نشاطهم التجارى السابق بالاسكندرية . وقـد نجحت جهوده فى هذا الصدد ، وتجلى ذلك النجاح فى المعاهدات التجارية التى عقدها مع ممثلى البندقية وجنوه وبيزا فى سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م (٢) .

وأثار ذلك العمل موجة من النقد فى العـالم الاسـلامى ضـد صلاح الدين ، ولكن صلاح الدين لم يعبأ بما وجه اليه من نقد ، وبادر بالكتابة فى العام التالى (سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م) الى الخليفة العباسى المستضىء بالله يشرح له فيه سياسـته (٣) . وأورد فى كتابه للخليفة قوله « .... ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنه والجنويون ، كل هؤلاء غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الاموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبة . وما منهم الا من هو الآن يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله وتلاده وكلهم قد قررت معهم المواصلة (٤) .

ونتيجة لعودة سفن الغرب الى الاسكندرية نشطت الحركة فى هذا الميناء ، وشهد ابن جبير عند وصوله الى ميناء الاسكندرية سنة ٥٧٩ هـ/

---

(١) شارل ديل : البندقية ص ٥٨ .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, pp. 307-308.

(٣) العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج ١ القـاهرة ١٩٦٣ ، ص ٨١٣ .

(٤) الباز العرينى : مصر فى عهـد الايوبيين ، ص ٧٢ نقلا عن أبى شامة .

١١٨٣ م الأعداد الهائلة من سفن التجار الاوربيين التى جاءت لنقل تجارة الشرق الى أوربا (١) • وفى شتاء سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ — ١١٨٨ م كان بميناء الاسكندرية سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من جنوة وبيزا والبندقية وغيرها من الدول الاوروبية (٢) • وفى الخريف السابق على هذا الشتاء مباشرة كان صلاح الدين قد سير الى الاسكندرية عددا كبيرا من الاسرى لارسالهم الى أوروبا • ولما رفض رؤساء السفن نقلهم رفض والى الاسكندرية أن يسلم صوارى المراكب ودفاتها لهم الا اذا قاموا بنقل هؤلاء الاسرى وعاملوهم معاملة طيبة (٣) •

وبلغ حرص التجار الاجانب على استمرار صلاتهم الطيبة مع حكومة مصر واستمرار نشاطهم التجارى معها أنهم حذروا سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩٠ م صلاح الدين من أن فردريك بربarوسة يعد حملة صليبية لمهاجمة أملاكه (٤) • وضمن احداث سنة ٥٨٨ هـ/١١٩١ م يذكر أبو المحاسن ازدياد التبادل التجارى بين بلاد المسلمين والفرنج وازدياد تردد التجار ما بين مصر وأوروبا بسبب الصلح الذى عقده صلاح الدين مع الصليبيين والامان الذى أعطاه للتجار فى هذا العام (٥) •

وكانت البندقية أول المدن التجارية الاوروبية التى أسرعت باعادة العلاقات التجارية مع مصر وتضمنت معاهدتها المعقودة مع صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م منحها تسهيلات واسعة لتجارها فى ميناء

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٣٤ •

(٢) Heyd : Histoire du Commerce, I, p. 399.

(٣) العرينى : مصر فى عهد الايوبيين ، ص ٢٠٢ •

(٤) العرينى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٣ •

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٣ — ٦ ص ٤٨ •

الاسكندرية (١) • وجاءت جنوة ، بعد البندقية ، وعقــدت معاهدة مع صلاح الدين فى نفس العام وسمح لها بمقتضى هذه المعاهدة باتخــاذ قنصل لها فى الاسكندرية يشرف على تجارها المقيمــين بالمدينة وعلى تجارها المترددين عليها • الا أن جنوه لم تعين لها قنصلا فى الاسكندرية الا سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٥ م (٢) • كذلك أرسلت بيزا سفيرها فى نفس العام الى القاهرة وكان يدعى الدبراندو (Aldeprandus) وعقــد مع صلاح الدين معاهدة تجارية ذات شروط سخية • غير أنه حدث فى ذات العام ما كاد يقضى على هذه العلاقة بسبب مهاجمة البيازنة فى البحــر لتاجر كان صديقا لشمس الدين توران شاه أخ صــلاح الدين ، وكان يحمل معه ٢٢٥ قنطارا من الشب ليبيعها فى أوروبا لحســاب الامــير وليشترى بثمنها بضائع أخرى من أوروبا • ولكن حكومة بيزا سرعان ما تداركت الامر وأعادت البضائع المطلوبة للامير سالمة الى مصر وكتبت لصلاح الدين تعتذر عن هذا الحادث (٣) •

واستمرت حــكومة بيزا على وئام مع صــلاح الدين حتى ان صلاح الدين أشرك البيزيين معه فى الدفاع عن مدينة الاسكندرية حين هاجمها الصليبيون فى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م (٤) •

هذا ولم تنته العلاقات التجارية بين المدن الايطالية التجارية ومصر بوفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م (٥) فقد واصل خلفاؤه من بعده سياسته ازاء تجار الفرنج واستمروا يرحبون بهم ، الامر الذى

---

(١) العرينى : مصر فى عهد الايوبيين ، ص ٢٠٦ •
(٢) سامى سعد : نفس المصدر ، ص ٧٦ •
(٣) سامى سعد : نفس المصدر ، ص ٧٠ ، ٧١ •
(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٧١ •
(٥) زامباور : معجم الانساب ، ج ١ ، ص ١٥٠

أدى الى نتائج طيبة فى الفترة الاخيرة من العصر الايوبى (١) • وقد قامت كل من جمهوريتى بيزا والبندقية بارسال سفير لكل منهما لعقد معاهدة مع الملك العادل أخ صلاح الدين ، الذى صار سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م سلطانا على مصر وعلى جانب كبير من أملاك صلاح الدين فى الشام • وقد وصل سفير بيزا مارتسكوتيبرتى (Marzucco Teperti) الى مصر فى أواخر سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م وعقد مع العادل معاهدة تجارية فى أوائل العام التالى (٢) ، وضمنت هذه المعاهدة للبيازنة امتيازاتهم الاولى التى حصلوا عليها زمن صلاح الدين (٣) •

ووصل سفير البندقية الى مصر عام ١٢٠٨ م وعقد معاهدة مماثلة مع الملك العادل (٤) وتعتبر هذه المعاهدة من أهم المعاهدات التى عقدتها البندقية مع حكومة مصر ، اذ بمقتضاها أصبحت صاحبة المركز التجارى الاول بين الدول الاوروبية فى مصر والشام • وفى هذه المعاهدة أعفت الحكومة المصرية تجار البندقية من عدة ضرائب مباشرة ومنحتهم حرية مطلقة فى الاتجار باللآلىء والاحجار الكريمة والفراء (٥) • وفى هـذه المعاهدة حصلت البندقية على فندق ثان لتجارها بالاسكندرية بالاضافة الى فندقها الاول الذى اقامته بها فى عهد الفاطميين ، هذا فضـلا عن

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 308.

(٢) سامى سعد : نفس المصدر ، ص ٧٢

(٣) وصلتنا هذه الوثيقـة مع وثيقتين اخريتين ، وهى كل الوثائق التجارية التى وصلتنا وتختص بالعلاقات التجارية بين مصر والجمهـوريات التجارية الايطالية فى عهد الايوبيين . وهذه الوثيقة عبارة عن مكاتبة بين الملك العادل والقناصلة ببيزا . أما الوثيقتان الاخريتان فالاولى عبـارة عن شكوى بعض التجار البيازنة والبنادقة وبعض التجار الفرنج مقـدمة الى الملك العادل ومؤرخة ايضا فى سنة ١٢٠٨ م والثانية هى نص مكاتبة متبادلة بين اسقف بيزا والقناصل بها الى الملك الكامل ومؤرخة سـنة ١٢١٥ م (احمد دراج : الوثائق العربية ص ١٢٧) .

(٤) العرينى : مصر عهد الايوبيين ، ص ٢٠٣ .

(٥) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 385.

التصريح لها بتشييد كنيسة بداخل هذا الفندق وعدد من الحمامات (١) • كذلك حصلت البندقية على حق تعيين قنصل لها فى الاسكندرية وتعيين نائب له فى دمياط يرعيان مصالحها فى الشام (٢) • وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح قنصل البندقية أهم القناصل الاوربيين فى مصر ، وأصبح له بسبب هذه المكانة الحق فى التشرف بمقابلة السلطان بالقاهرة عشر مرات فى السنة (٣) • كذلك تضمنت هذه المعاهدة السماح للبندقية بحماية الحجاج الاوربيين اثناء حجهم الى بيت المقدس • وقد رأت البندقية أن هـذا التعهد من جانب الحكومة المصرية يعطيها الحق فى فرض حمايتها على المسيحيين الغربيين بكافة طوائفهم وفى كل الاوقات فى الاراضى المسيحية المقدسة • وقد قام قنصلها فى القدس فعلا ، فيما بعد ، بواجبات هـذه الحماية (٤) •

هذا وقد حرصت البندقية حرصا كبيرا على الامتيازات التى حصلت عليها بمقتضى هذه المعاهدة وحاولت جهدها أن تثبت أمـام الحـكومة المصرية أنها جديرة بهذه الثقة الطيبة من جانب السلطات المصرية • لذلك لم يتوانى البنادقة عن أن يصدروا الى مصر ما تشددت الكنيسة فى تحريم بيعه للمسلمين من الاسلحة والذخيرة وأخشاب البناء والرقيق (٥) •

على أنه بالرغم من الميزات السخية والتسـهيلات الكبيرة التى أعطتها مصر لهذه الجمهوريات الايطالية الا أنها سرعان ما كانت تنحاز الى الصليبيين فى مشروعاتهم العسكرية ضد مصر اذا ما بدى لها بريق من الامل فى نجاح هذه المشروعات ، وكان ذلك ايضا بدافع تحقيق المزيد من الكسب المادى •

---

(١) Wiet : Op. Cit., p. 385.

(٢) أحمد دراج : نفس المصدر السابق ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ •

(٣) احمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١٢٥

(٤) احمد دراج : نفس المصدر ، ص ١٢٥ •

(٥) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, pp. 384-385.

ففى سنة ٦١٢ هـ/١٢١٥ م استجابت الجمهوريات الايطالية لقادة الحملة الصليبية الخامسة واشتركت فى الحملة الصليبية على دمياط فى نفس العام بغرض الاستيلاء على هذا الثغر التجارى الهام الذى يخدم مصالحها التجارية • وقد أظهرت سفن هذه الجمهوريات نشاطا هائلا فى محاولة هدم أسوار المدينة والاستيلاء عليها (١) • ولكن بعد أن فشلت هذه المحاولة عاود تجار البندقية رغبتهم فى التعامل التجارى مع مصر ، وقدم حكامهم اعتذاراتهم لما بدر منهم فى حق مصر وأبدت تسامحها نحوهم • وقدم ممثلى البندقية الى مصر فى نفس العام (٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م) لتجديد معاهدتهم السابقة مع سلاطين الايوبيين (٢) • وظلت البندقية على علاقاتها الطيبة مع مصر ، ودليل ذلك انها أرسلت فى سنة ٦٣٦ هـ/١٢٣٨ م سفارة من رجلين الى الملك العادل الثانى وعقدت معه معاهدة تجارية جديدة جددت فيها الكثير من الامتيازات والاعفاءات (٣) كذلك أرسلت البندقية الى مصر سفارة أخرى فى سنة ٦٤٢ هـ/١٢٣٤ م فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب لتأكيد الامتيازات التى حصلت عليها من أخيه الملك العادل الثانى (٤) • ويدلنا تجدد هذه المعاهدات وحرص البندقية عليها على أن حكومة البندقية كانت حريصة على أن تثبت لكل حاكم جديد يتولى الحكم فى مصر عن رغبتها الاكيدة فى استمرار صلاتها التجارية معها • والامر المتوقع أن باقى الجمهوريات الايطالية التجارية قد حذت حزو البندقية فى استمرار علاقاتها التجارية الطيبة مع مصر برغم استمرار الحروب الصليبية •

وهكذا فشلت سياسة البابوية وقادة الحروب الصليبية فى فرض هذا الحظر التجارى على مصر ، وبالتالى فشلوا فى ضرب اقتصاد مصر بحرمانها من المورد المالى الهائل الذى كانت تحققه من وراء تجارة المرور بين الشرق والغرب •

---

(١) سامى سعد : اسس العلاقات الاقتصادية ، ص ٧٧
(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, pp. 385.
(٣) سامى سعد : نفس المصدر ، ص ٧٩
(٤) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة

صلاح الدين ومقاومة الخطر الصليبى فى البحر الاحمر

رأى الصليبيون أهمية مصر الاستراتيجية والعسكرية والاقتصادية بعد استيلاء نور الدين عليها ونجاح صلاح الدين فى اقامة الدولة الايوبية بها • فاتجهوا اولا الى الاستيلاء على مصر ، فلما فشلوا اتجهوا الى ضربها اقتصاديا وذلك بفرض الحظر الاقتصادى عليها فى البحر الابيض وتهديد تجارتها فى البحر الاحمر وتحويلها من مصر الى موانىء الشام •

وكان الخطر الصليبى على البحر الاحمر قد بدأ فى سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م وذلك حين فكر البرنس أرناط (رينودى شاتيون) صاحب امارة الكرك (شرقى البحر الميت) فى الاستيلاء على المدينتين المقدستين مكة والمدينة • وكان قصد ارناط من محاولته هذه فى البحر الاحمر هو أن يضرب اقتصاد مصر وذلك بتحويل تجارة هذا البحر الى خليج العقبة والى الموانى الصليبية بالشام ، وفى نفس الوقت قصد ، بسبب تعصبه الشديد ، تهديد أداء المسلمين لفريضة الحج وزيارة قبر الرسول • وكانت محاولة أرناط هذه أول محاولة اعتداء أوروبية فى مياه البحر الاحمر (١)

وبدأ أرناط حملته سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م حين أعد أخشابا من عسقلان وحملها على الجمال حتى ميناء أيله على خليج العقبة (٢) • وقام ارناط باحتلال ميناء أيله وبنى أسطولا مكونا من خمس سفن كبيرة فى

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ح/١١ ص ١٨٤
يقول ابن الاثير عن قوات ارناط انهم « بغتوا الناس فى بلادهم على حين غفلة منهم فانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا لا تاجرا ولا محاربا »

(٢) Kammerer : La Mer Rouge à travers les âges, p. 23.

هذا الميناء وعددا آخر من السفن الصغيرة ، وأبحر فى مياه البحر الاحمر بهدف الاستيلاء على مكة والمدينة (١) • وحمل أرناط فى هذه السفن قرابة من ألف فارس (٢) • وفشلت هذه الحملة الاولى التى قام بها أرناط فى البحر الاحمر ، بعد أن توقفت قواته عند واحة تيماء بسبب عدم تحملها شدة الحرارة وقلة الماء (٣) • كذلك بسبب اسراع عز الدين فرخشـــاه نائب صلاح الدين وابن أخيه ، الى القيام بحصار أعمال الكرك ونهبها حتى أرغم ارناط على العودة الى امارته (٤) •

وفى العام التالى (٥٧٨ هـ/١١٨٢ م) أعد أرناط حملة ثانية وتحول نشاطه المعادى هذه المرة الى قلب البحر الاحمر نفسه وهاجم أسطوله ميناء عيذاب ونزل بعض رجاله بها ، ونهبوا احدى القوافل التجـــارية التى كانت تعبر صحراء عيذاب متجهة الى قوص (٥) • وقد أورد ابن جبير تفاصيل الهجوم على عيذاب وذكر أن الصليبيين وصلوا الى عيذاب بعد أن استولوا على ميناء أيله وأوقفوا فيها مركبين عند جزيرة القلعة ومنعوا الناس استقاء الماء ومضى الباقون فى مراكبهم الى عيذاب فقطعوا طريق التجارة وشرعوا فى القتل والنهب والاسر • وأورد أن الصليبيين أحرقوا فى مياه البحر الاحمر ستة عشر مركبا وأنهم أخذوا فى عيذاب مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة وأخذوا أيضا فى البر قافلة تجارية كبيرة جاءت من قوص الى عيذاب وقتلوا جميع من فيها • وأضاف ابن جبير ان الصليبيين استولوا على مركبين كانا مقبلين لتجار من اليمن ، وأحرقوا اطعمة كثيرة على ساحل عيـــذاب كانت معدة لميرة مكـــة والمدينة • وذكر انه كان من اهداف الصليبيين دخول مدينة الرســول

(1) Attiya: Crusade, Commerce and Culture, p. 77.

(٢) Newbold: The Crusaders in the Red Sea, (SNR, XXVI, Part II, 1945, p. 221).

(٣) Rushbrook: Western Arabia, p. 245.

(٤) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٧٠

(٥) احمد دراج : عيذاب ، ص ٥٨

وسرقة جسده الطاهر (١) وقام ارناط ، بعد هجومه على عيذاب ، بمهاجمة الساحل الحجازى تجاه المدينة وتوغلت سفنه فى البحر الاحمر قاصدة مياه عدن بقصد الاستيلاء على هذا الثغر الهام الذى كان مركز تجار الكارمية • (٢) • وكان قواد سفن الصليبيين يستخدمون المجاديف فى تسيير سفنهم فكانت تسير لذلك فى البحر أسرع من سفن المسلمين التى كانت تستخدم الشراع (٣) • فكتب صلاح الدين الى أخيه العادل ، نائبه فى مصر ، بأن يرسل حملة سريعة لمطاردة سفن الصليبيين • وأسرع العادل بارسال الاسطول بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ ، متولى الاسطول بديار مصر ، لمطاردة الاسطول الصليبى • فسار حسام الدين من القلزم الى أيله وظفر فيها بمركبين من مراكب الفرنج راسيتين بساحلها فأحرقهما وأسر من فيهما ثم سار الى عيذاب ولما لم يجد فيها أحدا من الفرنج سار فى البحر متتبعا أثر مراكبهم فوقع بها بعد أيام عند رابغ بالساحل الحجازى • (٤) ولم يكن أمام الصليبيين سوى مسيرة يوم واحد للوصول الى مدينة الرسول وتحقيق عدوانهم على المدينة النبوية • ووفق حسام الدين فى ايقاع الهزيمة بمن تبقى من رجال ارناط البالغ عددهم ثلثمائة وفى أن يأسر منهم مائة وسبعين (٥) • واقتاد

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٣٤

(٢) اكد صلاح الدين فى خطابه للخليفة العباسى ان هدف الصليبيين هو القضاء على تجارة الكارم فى البحر الاحمر وورد ذلك فى العبارة الاتية : « واما الطريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر ان يمنع الحاج عن حجه ويحول بينه وبين فجه واخذ تجار اليمن واكارم عدن ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح المحارم ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم » • (ابو شامة : الروضتين فى اخبار الدولتين ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، جـ٢ ص ٣٧)

(٣) De Gaury: Rulers of Mecca, p. 80.

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ/١ ، القسم الاول ، ص ٧٨ ، ٧٩

(٥) Rushbrooke: Western Arabia, p. 245.

حسام الدين الاسرى الى مكة ، وبأمر من صلاح الدين (١) ضحى هنالك بعدد منهم ، قربى الى الله تعالى وجزاءا على تجرئهم بمهاجمة الاراضى المقدسة ، يوم عيد الاضحى (١٠ من ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ/١٦ ابريل ١١٨٣ م) (٢) وفرق من تبقى من الاسرى على البلاد ليقتلوا بها ، وقد شهد ابن جبير وهو فى الاسكندرية ، عددا من هؤلاء الاسرى وهم فى طريقهم الى القتل وسجل ذلك فى كتاب رحلته (٣) . وقد أرسل صلاح الدين خطابا الى الخليفة العباسى بقلم القاضى الفاضل ، يبشره فيه بسلامة الاراضى المقدسة والبحر الاحمر من خطر الصليبيين (٤) . وكانت نهاية ارناط فى سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م بعد انتصار صلاح الدين فى معركة حطين ، قتله صلاح الدين بيده وفاء لنذره (٥) . واستعاد صلاح الدين امارة الكرك بعد فتح بيت المقدس على أثر انتصاره فى حطين فى نفس العام ، وبذلك عادت هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة الى حوزة المسلمين وزال الخطر الصليبى نهائيا عن البحر الاحمر (٦) .

ورغم فشل محاولتى ارناط فى البحر الاحمر فان الصليبيين لم

---

(١) ارسل صلاح الدين الى اخيه الملك العادل يأمره بقتل الاسرى فى خطابين اوردهما ابو شامة فى كتابه : الروضتين ، ج٢ ، ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٣١

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٣٤

(٤) ابو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٧ وانظر الملحق

(٥) Attiya: Crusade, p. 77.

(٦) Kammerer: La Mer Rouge à travers les Ages, p. 23.

ينصرفوا بعد فشل هاتين المحاولتين عن التفكير فى تهديد تجارة البحر الاحمر بقصد اضعاف مصر (١) .

(١) لم ينصرف الصليبيون بعد فشل محاولة ارناط عن التفكير فى تهديد تجارة البحر الاحمر بقصد اضعاف مصر ، فحين استولى المسلمون على عكا بسنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م اقترح رئيس الداوية على البابا بأن يوحى لـــكل المسيحيين بمقاطعة تجارة الشرق وتحويل طريقها عن مصر الى بغداد التى كانت وقتئذ فى يد المغول . كذلك اقترح الكاتب الصليبى مادينى ســـابوتو بعقد تحالف مع التتار ونصارى النوبة لارسال اسطول مشترك الى المحيط الهندى يتعقب سفن المصريين هناك وهى فى طريقها الى الهند.

كما نادى الكاتب غليوم آدم بضرورة سد مدخل البحر الاحمر الجنوبى بمساعدة قراصنة البحر الاحمر . وما حركة الكشوف الجغرافية فى حقيقة امرها سوى حرب صليبية القصد منها اضعاف مصر والكشف عن طـريق آخر لتجارة الشرق غير طريق البحر الاحمر .

(Kammerer: La Mer Rouge à travers les âges, p. 23.
— Rushbrooke: Western Arabia, pp. 253 - 254).

— سياسة الايوبيين ازاء اليمن وبلاد الحجاز

ورث الأيوبيون عن الفاطميين سياستهم الخارجية تجاه بلاد اليمن والحجاز واهتموا بفرض نفوذهم على هذه البلاد خاصة حين امتد الخطر الصليبى الى البحر الاحمر نفسه بقصد تهديد المقدسات الاسلامية والتحكم فى تجارة البحر الاحمر • ولم يكتف الايوبيون بمجرد الولاء السياسى لهم على هذه البلاد ، كما كان الحال زمن الفاطميين ، بل سارت جيوشهم لفتحها وضمها للدولة ، وأصبحت بلاد اليمن والحجاز جزءا من الدولة المستقلة التى أقاموها فى مصر • غير أن نفوذ الايوبيين على بلاد اليمن والحجاز لم يستمر طويلا بسبب قيام دولة بنى رسول فى اليمن ، وتطلع الرسوليين لفرض سيادتهم على بلاد الحجاز منافسين فى ذلك سلاطين الايوبيين فى زعامة العالم الاسلامى •

وقد قام صلاح الدين بفتح بلاد اليمن ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية واستقلاله بحكم مصر • ومهما كانت الاسباب التى أدت الى فتح صلاح الدين لهذه البلاد فانه لم يكن تخفى عليه مدى أهمية بلاد اليمن بالنسبة لتجارة البحر الاحمر (١) وقد أراد صلاح الدين ، بضمه اليمن الى مصر ، أن يحمى مركز تجارة الكارم فى عدن ، وأن يحكم السيطرة على مدخل البحر الاحمر من طرفه الجنوبى ، وأن يضمن لمصر استمرار مورد التجارة الهام فضلا عن حصول مصر على المكوس التى كانت تفرض فى ثغور اليمن ويحصلها حكامها • وأرسل صلاح الدين أخاه المعظم توران شاه ، فى مستهل رجب سنة ٥٦٩ هـ ، ليفتح بلاد اليمن

---

(١) اورد كل من ابن الاثير والمقريزى (الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ — السلوك ، جـ ١ القسم الاول ، ص ٥٢) أن صلاح الدين قام بفتح اليمن بسبب خوفه من السلطان نور الدين محمود وانه اراد أن يتخذها مأوى له ولاسرته فى حالة هجوم نور الدين على مصر للقضاء عليه •

بعد أن أستأذن فى ذلك السلطان نور الدين محمود (١) وسار توران شاه الى زبيد ، عن طريق مكة ، وقاتل هناك على بن مهدى (الملقب عبد النبى) الذى كان يحكم زبيد ويدين بالولاء للفاطميين (٢) • وهزم توران شاه قوات اليمن وقتل عبد النبى وزوجته ، وملك زبيد التى استناب عليها قائده مبارك بن منقذ • ومن زبيد سار توران شاه الى عدن وفتحها وتملكها واستناب عليها عثمان بن الزنجبيلى (٣) • وبعد ذلك سار توران شاه الى صنعاء فأفتتحها (فى أول المحرم من سنة ٥٧٠ هـ) ، وأقام بها أشهرا ثم نهض الى الجند وتسلم حصونها وكذلك تسلم حصن السمدان، ثم نزل تهامة واستولى عليها ، وبذلك فرض هذا القائد نفوذ الايوبيين على كل بلاد اليمن (٤) • وخطب لصلاح الدين فى جميع اليمن بعد الخليفة المستضىء بأمر الله العباسى (٥) • وبعد أن تم لتوران شاه فتح جميع اليمن زهد فيه واستأذن أخاه فى تركه والذهاب الى الشام فأذن له ، فتركه فى سنة ٥٧١ هـ بعد ان استناب فيه نوابا عنه (٦) •

وبنجاح حملة توران شاه حققت مصر أطماعها ونفوذها فى اليمن ، غير أن هذا النفوذ لم يستتب فى هذه البلاد بعد فتحها ، فقد كانت كثيرة الثورات والفتن بسبب بعدها وصعوبة تضاريسها ، الامر الذى جعل صلاح الدين وخلفاؤه بعده يجردون الحملة تلو الحملة اليها للحفاظ على

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٣٨

(٢) ابن شداد : السيرة اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٦ •

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حـ ١١ ، ص ١٤٩

(٤) ابن المجاور : تاريخ ابن المجاور ، نشر لوفجرن ، حـ٢ ، ص ٣٧ •

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، القسم الاول ، ص ٥٣ •

(٦) جعل توران شاه مبارك بن منقذ على زبيد واعمالها من التهائم ، وجعل عثمان الزنجبيلى على عدن ومناهجها ، وجعل ياقوت التعزى على تعز واعمالها ومظفر الدين قايماز على جبله ونواحيها (ابن المجاور : تاريخه جـ ٢ ، ص ٣٨) •

نفوذ مصر فيها • وظل الايوبيون على هذا الحال مع بلاد اليمن حتى آل أمرها الى بنى رسول الذين استقلوا بحكمها سنة ٦٢٦ هـ ، بعد أن حكمها الايوبيون سبعة وخمسون عاما •

وكانت الاحداث قد تطورت فى اليمن بعد وفاة توران شاه سنة ٥٧٦ هـ ، وذلك بسبب اختلاف نوابه فى اليمن فيما بينهم وتغلب كل واحد منهم على ما تحت يده حين علموا بوفاته فوقع خلاف بين ابن منقذ والى زبيد والزنجبيلى والى عدن وحاول كل منهما الاستقلال بولايته ، فلما بلغ السلطان صلاح الدين ذلك ارسل عسكرا الى اليمن بقيادة « قطلوبغا» والى مصر ومعه عدة من الامراء ، فاستولى على زبيد وازال ابن منقذ عنها ولما توفى قطلوبغا عاد ابن منقذ ليحكم زبيد ثانية ونجح فى الاستيلاء عليها ، فقرر صلاح الدين أن يرسل الى اليمن أخاه سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ليقطع الفتن بها (١) • ووصل طغتكين اليمن فى سنة ٥٧٨ هـ ، بعد أن فوض اليه صلاح الدين أمرها ، فقضى على الفتن بها ، وهزم ابن منقذ وأسره ثم قتله وصادر ممتلكاته • (٢) وهرب الزنجبيلى الى الشام خوفا من طغتكين ، وصفت عدن وغيرها من بقية البلاد للنفوذ الايوبى (٣) ، وملك طغتكين اليمن كله سهله ووعره ، ودخل أماكن لم يدخلها احد بالسيف قبله (٤) • وظل طغتكين يحكم اليمن دون قلاقل حتى وفاته فى سنة ٥٩٣ هـ •

ولما توفى طغتكين خلفه فى حكم اليمن ابنه الملك المعز اسماعيل (٥) •

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٠٥

(٢) ذكر عماد الدين الكاتب عن السلطان فيما قبضه من ابن منقذ من الاموال فقال : كان سبعون غلافا من غلف الزرد مملوءة بالذهب ، وقوم المأخوذ منه بألف ألف دينار (ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٠٥)

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حـ ١١ ، ص ١٨٠ ، ١٨١

(٤) القرشى : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ٥٩٧٧ ، ورقة ٤٨ أ

(٥) بدر الدين بن حاتم : السمط الغالى فى اخبار الملوك من الغز باليمن ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٤١١ ، ورقم ٢ ب •

الذى ظل حاكما بها حتى وفاته مقتولا بيد الاكراد (يوم الاحد ١٨ من رجب سنة ٥٩٨ هـ) (١) . وتولى الملك بعده أخوه الناصر أيوب الذى ظل حاكما حتى مات مسموما (ليلة الجمعة ١٣ المحرم) سنة ٦١١ هـ . وكانت السلطنة الأيوبية قد آلت فى ذلك الوقت الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب أخ صلاح الدين . ولما علم السلطان العادل بما جرى فى اليمن من مقتل المعز وسم أخيه الناصر ، أرسل الى اليمن فى سنة ٦١٢ هـ الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل فى جيوش عظيمة وأموال كثيرة فدخل الملك المسعود زبيد فى المحرم من نفس العام ثم تسلم حصن تعــز ، واستولى فى الفترة التى تلت مقدمه حتى سنة ٦١٨ هـ على كل اليمن (٢) . وكان الملك المسعود قد وثق ببنى رســول (٣) ، وأنس اليهم وولاهم الولايات الجليلة ، وأعجبه منهم حسن طاعتهم وشدة ولائهم فولى الأمير بدر الدين حسن بن على بن رسول على صنعاء وجعلها اقطاعا له ، وولى نور الدين بن عمر بن على بن رسول على مكة ، ثم جعله أتابكه ومتولى أمر عساكره وأموره كلها .

ولما استتب نفوذ الأيوبيين فى اليمن سار الملك المسعود سنة ٦١٨ هـ الى مكة قاصدا قتال الشريف حسن بن قتاده ، فدخلها قهرا بالسيف فى

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد بسيونى عسل ، ليدن ١٩١٣ ، ص ٢٩ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ .
(٣) جاء بنو رسول الى اليمن مع توران شاه وكانوا خمسة رجال هم : شمس الدين على بن رسول ، نور الدين عمر بن على بن رســول ، فخر الدين بن ابو بكر بن على بن رســول ، وشرف الدين بن موسى بن على ابن رسول ، وبدر الدين حسن بن على بن رسول .

العام التالى ، وكان قد استخلف على اليمن نور الدين عمر بن رسول ، وعلى صنعاء أخاه بدر الدين .

ومنذ ذلك الوقت بدأ خطر بنى رسول فى الظهور فى اليمن (١) فعلى الرغم من أنهم قاموا بالمحافظة على النفوذ الايوبى فى اليمن خـــلال غياب الملك المسعود فى مكة ونجحوا فى القضاء على الفتن التى قامت بها الا أن الشكوك ساورت الملك المسعود تجاههم ، فعاد الى اليمن من مكة وقبض عليهم وأودعهم السجن ، خوفا من انفرادهم بالحكم فى اليمن دون الأيوبيين بسبب ما حققوه من نفوذ وسمعة فى البلاد فاقت ما حققــه الأيوبيون فيها ، لكن الملك المسعود أطلق سراح نور الدين بن عمر ، بعد وقت قصير من القبض عليه ، واستنابه فى سفرته الثانية سنة ٦٢٦ هـ الى دمشق وجعله أتابك عسكره ، وكان الملك المسعود يسعى لتولى أمر دمشق بعد وفاة عمه الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ، لكن المرض لم يمهله فمات فى مكة فى نفس العام (٢) .

وأستغل الأمير الرسولى نور الدين بن عمر فرصة وفاة الملك المسعود وأضمر فى نفسه الاستقلال باليمن ، وأظهر بأنه نائب « لبنى أيوب ولم يغير سكته ولا خطته وجعل يولى فى الحصون والمدن من يثق فيهم ويعزل عنها من يخشى نفوذهم — واستطاع بعد ثلاثة اعوام من وفـــاة الملك المسعود أن يستولى على كل اليمن » (٣) . وقد أستغل بنو رسول ضعف سلاطين الايوبيين وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية وبتعرض مصر للخطر

---

(١) (Redhouse: The Resuli Dynasty of Yemen, III, Leyden 1906-1908, p. 76).

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ٥٨٢١ ، ورقة ١٢٨ أ .

الصليبى ، فأعلنوا استقلالهم باليمن عن دولة الأيوبيين [1] ففى سنة ٦٣٠ هـ أعلن نور الدين بن عمر هذا الاستقلال ، وأمر بضرب السكة باسمه ، وأمر الخطباء بأن يخطبوا باسمه فى سائر اقطار اليمن [2] . وأرسل نور الدين هدية عظيمة الى الخليفة المستنصر العباسى ببغداد ، وطلب منه الاعتراف باستقلاله ، فأرسل له الخليفة موافقته على ذلك ، وبعث له بالتشريفة وبالتقليد صحبة حاج العراق الى مكة فى عام ٦٣٢ هـ . ووصل رسول الخليفة الى اليمن ومعه التقليد بالنيابة ، وقال له رسول الخليفة : « يا نور الدين ان العزيز يقرئك السلام ويقول قد تصدقت عليك باليمن ووليتك اياه » ، وألبسه الخلعة الشريفة الخليفية على المنبر [3] .

وبأعلان نور الدين بن رسول استقلاله باليمن ، انفصل هذا الجزء الهام عن حكم مصر ، وقامت به دولة بنى رسول التى استقلت بحكمه قرابة قرنين من الزمان ، ويرجع الفضل فى ذلك الى مؤسس الاسرة نور الدين عمر الذى انتهز ثقة الأيوبيين به وأعلن استقلاله بالبلاد وظل يحكم فيها ، مستقلا عن مصر ، حتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ . [4] . وخلف نور الدين بن عمر من بعده ابنه الملك المظفر شمس الدين يوسف

---

(١) أورد الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ص ٤٠ ، ٤١) ان الملك المسعود حين عزم على السفر الى الشام استدعى نور الدين عمر بن رسول وقال له : قد عزمت على السفر وقد جعلتك نائبى فى اليمن فان مت فأنت أولى بملك اليمن من اخوتى لانك خدمتنى وعرفت منك النصيحة والاجتهاد ، وان عشت فأنت على حالك ، واياك ان تترك احدا يدخل اليمن من أهلى ولو جاءك الملك الكامل ولدى مطويا فى كتاب . فاذا الح عليك اعلمتنى حتى اجتمع انا وعمى الاشرف عليه ونحاربه ونشغله . فقال له نور الدين : اخشى أن اخوتى يعارضوننى ، فقال له الملك المسعود : انا اكفيك امرهم .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ص ٥١ .

(٣) الخزرجى نفس المصدر ، ص ٥١ .

(٤) الخزرجى : نفس المصدر ، ص ٨٢ .

الذى تربع على حكم اليمن حتى وفاته سنة ٦٩٤ هـ (١) . وفى عهد هذا الملك لم يكتف بنو رسول بالاستقلال بحكم اليمن بل نافسوا الأيوبيين فى سيادتهم على بلاد الحجاز ، وكان عائد تجارة الشرق فى عدن قد أدى الى غنى بنى رسول وقوتهم ، ولقد أمدتهم هذه الثروة بالقدرة على دخولهم فى الصراع ضد الأيوبيين من أجل فرض السيادة على الاماكن المقدسة بالحجاز . وكان بنو رسول قد اهتموا بتجارة البحر الأحمر وكانت لهم صلاتهم وسفاراتهم مع بلاد الهند وسيلان والصين (٢) .

وكان الأيوبيون قد حرصوا منذ أقاموا دولتهم فى مصر ، على أن تكون لهم السيادة على الحجاز ، وظلوا متمسكين بهذه السيادة حتى نازعهم أمرها أمراء بنى رسول .

وقد قام الأيوبيون بفتح مكة فى سنة ٥٦٧ هـ حين أرسل صلاح الدين أخاه المعظم توران شاه وأمره بفتح الحجاز وهو فى طريقه لفتح اليمن . ولما تم لتوران شاه فتح مكة دعى على منابرها للسلطان صلاح الدين بعد الخليفة العباسى والسلطان نور الدين محمود . وقد أقر توران شاه شرافة بنى فليته الحسنيين على مكة . فثبت داود بن عيسى الحسنى على أمارته (٣) بعد أن دخل فى طاعته وخلع عليه وعلى أصحابه وطيب قلوبهم ثم سار الى اليمن (٤) كذلك أقر توران شاه سيادة الاشراف الحسينيين على المدينة وبهذا خطب لصلاح الدين على منابر مكة والمدينة (٥) .

---

(١) ابن حاتم : السمط الغالى الثمن ، مخطوطة ، ورقة ٢ ب .
(فى عهد هذا الملك كانت نهاية الدولة الايوبية سنة ٦٤٨ هـ) .

(٢) — Wiet : Les Marchands d'épice sous les Sultans Mamlouks, (JRAS, 1956, London, p. 88).

(٣) — De Gaury : Rulers of Mecca, p. 66.

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٥٠٥ جـ ٨ ، القسم الاول ، ورقة ٣٠٠ ب .

(٥) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ص ٢٧١ .

وتأكيدا لهذه الزعامة الدينية عمل صلاح الدين على رفع المظالم المالية التى كان يتعرض لها الحجاج المسلمين عند مرورهم بمصر ، وعند نزولهم بجدة ، وأثناء وجودهم بمكة • (١) • وأورد ابن جبير أن صلاح الدين أسقط سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ — ١١٧٧ م ما كان يجبى من الحجاج المسلمين من مكس وزكاة حسبما استقر الامر زمن الفاطميين وخاصة فى مينائى الاسكندرية وعيذاب (٢) ؛ وعوض أمير مكة عما كان يجبى له بجدة ومكة من مكس الحاج الفا دينار والفا اردب من القمح سنويا عدا اقطاعات اقطعها له بصعيد مصر وبجهة اليمن • (٣) كما أوقف بعض الاوقاف فى مصر على الحرمين ، وقام بارسال الكسوة الشريفة الى الكعبة الكريمة كل عام فى احتفال مهيب • (٤) وفضلا عن ذلك قام صلاح الدين بتطهير الساحل الحجازى وظل الأشراف الحسنيون مخلصين فى ولائهم للأيوبيين • وعلى هذا النحو استحق أن يلقب صلاح الدين بلقب « خادم الحرمين الشريفين » (٥) •

ولكن حكم بنى فليته لم يدم فى الحجاز بسبب انشغالهم بلذاتهم ووقوع الخلاف بين الأخوين داود بن عيسى ومختار بن عيسى فى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م وتمخض هذا الخلاف بين الأخوين عن هروب داود فى سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م ، بعد أن جمع أمواله ، الى وادى نخلة وأرسل صلاح الدين أخاه طغتكين الى الحجاز لاقرار الأمور فيه ، فوصل هناك فى نفس العام • وثبت الشريف مختار بن عيسى فى امارة مكة • (٦) •

---

(١) ابو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣ •
(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٠ •
(٣) رحلة ابن جبير ص ٥٤ •
(٤) — Darrag : L'Egypte sous le règne de Barsbay, Damas 1961, p. 160.
(٥) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٧١ •
(٦) — De Gaury : Op. Cit., p. 68.

ولم يكن بنى فليته يعاملون الحجاج معاملة طيبة ، اذ كانوا يسيئون اليهم خاصة حين كانت تتأخر الامدادات المصرية السنوية لهم . وقد أورد الرحالة ابن جبير أن الحجاج تعرضوا ، فى العام الذى وصل فيه الى مكة لأداء فريضة الحج ، لارهاب الشريف مختار بن عيسى بسبب تاخر وصول معونة مصر السنوية اليه (١) .

وفى أواخر القرن السادس الهجرى ، بدأ يظهر نفوذ فرع آخر من بيوت الأشراف وهو بيت قتاده ، وكان الشريف قتاده يعيش فى ينبع ويبلغ من العمر سبعا وسبعين عاما حين فكر فى انتزاع شرافة مكة من بنى فليته ، فأرسل فى اليوم السابع والعشرين من رجب سنة ٥٩٨ هـ ابنه حنظلة ليستولى على مكة . ونجح حنظله فى مهمته دون أن يفقد رجلا واحدا من رجاله . وهرب الشريف مختار بن عيسى الى وادى نخله ولم يعد بعد ذلك ثانية الى مكة لأن الموت أدركه وهو باليمن بعد ذلك بعامين . وبعد أن أستولى حنظله على مكة ، تعرضت لهجوم مفاجىء من سليم ابن قاسم الحسينى ، أمير المدينة ، الذى كان يعارض تولى قتاده شرافة مكة غير أن قوات قتاده تغلبت على قوات سليم وأسرت قائدها محمد بن مختار ، وسار قتاده على أثر النصر الذى حققته قواته لفتح المدينة . ونجح الشريف قتاده بعد عامين فى أن يستولى على المدينة ويجمع بين أمارتى المدينتين المقدستين ، بل أخذ يوسع نفوذه فى سائر بلاد الحجاز وأرسل حملة ناجحة الى الطائف . وفى سنة ٦٠٧ هـ تعرض الشريف قتاده لمحاولة فاشلة باغتياله على يد أحد الاسماعيلية وقام أتباعه ، على أثر ذلك ، بقصف الحجاج بالسهام فقتل الكثيرون منهم وتعرضت حياة الباقين منهم للخطر . وعلى أثر التهديدات التى جاءته من القاهرة وبغداد . رضخ الشريف قتاده وأوقف قتال الحجاج بعد أن دفعوا له مبلغ ثلاثين الف دينار . وقد ساهمت والدة السلطان صلاح الدين

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٣٠ ، ٣١ .

التى كانت تؤدى الفريضة آنذاك بجزء كبير من هذا المبلغ • وفى العام التالى ، بعد أن ادرك قتاده سوء وضعه ، أرسل ابنه راجح الى بغداد لطلب العفو من الخليفة لما بدر عنه فى حق الحجاج فعفى الخليفة عنه وأرسل اليه هدايا كثيرة وطلب منه زيارة بغداد • وغادر قتاده مكة فى الطريق الى بغداد ، ولكنه وهو فى طريقه اليها ، توقف قرب الكوفة بعد أن ساورته الشكوك من جهة الخليفة فعاد الى مكة • وبعد ذلك تلونت سياسة الشريف قتاده مع سلاطين الأيوبيين فى مصر ، وأستمر على هذا الحال حتى وفاته فى التسعين من عمره سنة ٦١٨ هـ (١) • ويقال أنه مات مقتولا على يد الحسن ابنه الاكبر (٢) •

وتولى الحسن شرافة مكة ، بعد وفاة والده • غير أن أحد اخوته نازعه فى امارة مكة ، فقام الحسن بقتله ، كذلك قتل أحد أعمامه حين شك فى عدم اخلاصه له • وأعلن الحسن عداءه للأيوبيين وأعطى ظهره للقاهرة، بسبب عدم رضاء سلاطين مصر عن الطريقة التى تولى بها حكم مكة • ولذلك عملت مصر على الخلاص منه ، فسار الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل الأيوبى سنة ٦٢٠ هـ من اليمن الى مكة لحرب الحسن وازاحته عن حكم مكة • واصطحب الملك المسعود معه الشريف راجح بن قتـــاده نيوانيه مكانه ، كما أصطحب معه الأمير نور الدين عمر بن رسول • وما أن علم الحسن بمقدم قوات الملك المسعود حتى بادر بالهرب من مكة • ودخل المسعود مكة وثبت فيها حكم الأيوبيين وجعل شرافة مكة لراجح • ولكنه جعل الرياسة فيها لنور الدين عمر بن رسول ، الذى جعله نائبا عنه فى بلاد الحجاز (٣) •

ولما مات الملك المسعود الأيوبى سنة ٦٢٥ هـ ، وورث نور الدين عمر

---

(١) De Gaury: Op. Cit., p. 85.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٥٥ •

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ القسم الاول ، ص ٢١٣ •

ابن رسول ملك الأيوبيين فى اليمن وأعلن استقلاله بها ، رغب فى أن يرث ملكهم أيضا فى الحجاز وفى تحقيق السيادة على الأماكن المقدسة • فأرسل الامير الرسولى سنة ٦٢٦ هـ حملة عسكرية من اليمن الى مكة ، ونجحت هذه الحملة فى تحقيق أغراضها وثبت الشريف راجح بن قتاده على أمارة مكة بعد أن أعلن ولاءه للرسوليين (١) وظل الشريف راجح يحكم مكة ، موالياً لبنى رسول ، جتى سنة ٦٣٠ هـ • وفى هذا العام أرسل الأيوبيون جيشا الى مكة لتنحية راجح وللقضاء على النفوذ الرسولى فى بلاد الحجاز ، وعلى الرغم من أن السلطان الرسولى أرسل حملة كبيرة لصد الحملة الأيوبية الا أنه لم ينجح فى قصده ، وعادت حملته دون أن تحقق أغراضها • وفى سنة ٦٤٢ هـ بعث نور الدين بن رسول عسكرا وخزانة مال الى الشريف راجح فأستولى على مكة وأخرج من بها من جند الأيوبيين الا أن الملك الكامل أرسل جيشا الى مكة أعاد النفوذ الايوبى الى بلاد الحجاز (٢) وفى سنة ٦٣٣ هـ بعث السلطان الرسولى بجيش الى مكة ، ولكن القوات الأيوبية هزمت هذا الجيش • كذلك هزمت الجيش الذى أرسله الى مكة فى العام التالى • وفى سنة ٦٣٥ هـ أعد نور الدين بن رسول جيشا قاده بنفسه الى مكة ، واستطاع بهذا الجيش أن يستولى على مكة وفى ذلك الوقت مات الملك الكامل الأيوبى • وأقيمت الخطبة فى الحجاز للسلطان نور الدين عمر بن رسول • وظل الشريف راجح يحكم مكة نائبا عن بنى رسول الى أن تولى حكم مصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٣) •

وفى سنة ٦٣٨ هـ قدم السلطان نجم الدين أيوب بنفسه الى مكة

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ، مخطوطة ، ورقة ٢٨ ب .
(!)

(٢) المقريزى : السلوك ج/١ القسم الاول ص ٢٥٠ .

(٣) — De Gaury: Op. Cit., pp. 87-88.

على رأس جيش قوامه ألف فارس (١) واصطحب معه الأمير شيحه بن قاسم الحسينى حاكم المدينة ليحكم مكة بدلا من راجح ويجمع بين أمارة المدينتين المقدستين • وما أن وصلت القوات الأيوبية الى مشارف مكة حتى هرب منها الشريف راجح ، ولكن ما أن عادت القوات الأيوبية الى مصر ، بادرت قوات يمنية سنة ٦٣٩ هـ باحتلال الحجاز (٢) • وذهب نور الدين بن رسول بنفسه الى مكة فى هذا العام ، وقضى بها شهر رمضان وأقام عليها الشريف أبو سعد الحسن بن على بن قتاده ، بعد أن توفى الشريف راجح • وقد أبطل نور الدين عن مكة المكوسات والمظالم وكتب بذلك رقعة جعلت قبالة الحجر الأسود (٣) وقام كذلك بكســـوة الكعبة سنة ٦٤٣ هـ • وكان قد اتفق فى هذا العام أن هبت ريح شديدة مزقت كسوة الكعبة وأتلفتها وبقيت الكعبة عارية ، فانتهز نور الدين بن عمر فرصة انشغال الملك الصالح أيوب بقتال الصليبيين وكسى الكعبـــة ثيابا من قطن مصبوغة بالسواد وركب عليها الطرز القديمة (٤) • وظل نور الدين عمر بن رسول مهتما بفرض نفوذه على الحجاز حتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ •

وواصل شمس الدين يوسف بن نور الدين عمر بن رسول سياسة والده بعده تجاه بلاد الحجاز وظل الشريف أبو سعد بن قتاده حاكما على مكة ، من قبل الرسوليين ، حتى مقتله سنة ٦٥١ هـ على يد جماز بن حسن ابن قتاده • وكان جماز قد وصل من دمشق الى مكة على رأس قوة كبيرة على أن يعيد حكم الحجاز للأيوبيين • ولكن جماز لم يحكم لأكثر من شهرين فى مكة ، فقد هرب منها بعد أن هاجمه الشريف غانم بن راجح

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ، مخطوطة ، ورقة ٢٩ أ •

(٢) De Gaury: Op. Cit., p. 88. —

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ، مخطوطة ، ورقة ٢٩ أ •

(٤) المقريزى : الذهب المسبوك — ص ٢١ •

بفواته سنة ٦٥٢ هـ ٠ كذلك لم يستمر غانم فى الحكم بسبب خروج ادريس ابن قتاده وهزيمته له وطرده من مكة مستندا فى ذلك الى تأييد ابن عمه محمد أبو نمى بن أبى سعد ٠ وحكم مكة بعد ادريس محمد أبو نمى ، الذى استمر حكمه لها مدة خمسين عاما ، بتأييد من سلاطين المماليك الذين خلفوا الأيوبيين فى حكم مصر ، والذين سعوا سعيا جادا لتثبيت النفوذ المصرى على بلاد الحجاز محافظة على مكانتها الدينيه فى العالم الاسلامى ، وحماية لتجارة مصر فى البحر الأحمر الذى ازداد فيه نشاط تجار الكارمية ازديادا كبيرا ٠

نشاط التجار الكارمية

ازدهرت تجارة الكارمية، عبر البحر الاحمر ، فى العهدين الأيوبى والمملوكى عما كانت عليه فى العصر الفاطمى ازدهارا شديدا • وازداد ثراء العاملين بهذه التجارة ، وذلك لما قام به كل من الأيوبيين وسلاطين المماليك الأول من جهود من أجل حماية ورعاية التجارة التى كانت تمثل حجر الزاوية فى اقتصاد مصر فى ذلك الوقت •

وكان كيان الكارمية التجارى قد اتضح ، كما أثبتنا قبلا ، فى عهد الدولة الفاطمية ، كذلك كانت لهذه الجماعة مكانتها وشهرتها فى عهـــد الأيوبيين بدليل أن المقريزى حين حدثنا عن وصولهم من عدن الى مصر فى (ربيع الاول) سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م • ذكرهم دون أن يعرفنا بهم بدليل ما كان لهم من شهرة وعلمه انهم ليسوا فى حاجة الى التعريف (١) • وقد تجلت عظمة هذه الطائفة التجارية عندما استجابوا للاتصال التجارى الهائل بين الشرق والغرب عند مطلع القرن الخامس الهجرى ، فأصبحوا كبار التجار المشتغلين بتجارة الشرق العالمية • وأصبح التاجر الكارمى هو تاجر التوابل وسلع الشرق الغالية الثمن أساسا ، تلك السلع التى أصبحت أهم تجارة لمصر مع الغرب فى العصرين الأيوبى والمملوكى (٢) • ويرجع الفضل فى ازدياد أهمية هؤلاء التجار الى نجاح الأيوبيين فى اقـــرار النفوذ المصرى فى البحر الأحمر ، وفى تنظيم شئون التجارة فى اليمن وفى غيرها من بلدان البحر وموانيه الأمر الذى أدى الى تمتع هؤلاء التجار بأمان على أنفسهم وعلى أموالهم فى تلك المناطـــق الاســـلامية واتاحة فرص الكسب الواسع لهم • وقد سبق أن رأينا كيف أن نشاط هؤلاء التجار قد تعرض للخطر بسبب امتداد المد الصليبى الى ميـــاه

(١) — Wiet: Les Marchands d'épice, p. 86.

(٢) — Fischel: The Spice Trade in Mamlouk Egypt, (JESHO, I, 1958, pp. 161-162).

البحر الأحمر وكيف نجح صلاح الدين فى احباط محاولات البرنس أرناط العدائية فى هذا البحر وضد بلاد الحجاز .

وأما عن قيام طائفة تجار الكارم . فنستطيع أن نقول أنه كان يضم الكارمية جميعا طائفة واحدة قوية . ذلك لأن المجتمعات الاسلامية عرفت نظام الطوائف منذ العصر العباسى الاول ، وكان بمقتضى هذا النظـام نضم كل طائفة أصحاب الحرفة والصنعة الواحدة . وبالتالى فان قيام طائفة (كلمة نقابة المستعملة حديثا لم يرد ذكرها فى المصادر الأسلامية) التجار الكارمية كان أمرا طبيعيا (١) . كذلك عرف الكارمية نظام الطوائف فى بلاد ساحل الهند الغربى ؛ وكان التجار المسلمون الذين تواجدوا فى بلاد الهند فى قرون الاسلام الأولى فى الشرق الاقصى وساحل أفريقية تضمهم طوائف متحدة فى المستعمرات الخاصة التى أقاموها فى هـذه البلاد وخاصة فى كامباى Cambay وكيلون Quilon (٢) . وكان تجار الكارم على اتصال بوكلاء طوائف تجار الهند . (٣) وكان أهم ما يميز طائفة الكارمية ارتباطها مع بعضها بروابط المصاهرة مسلمين كانوا أم يهودا ؛ وشاهد ذلك تلك المصاهرات التى ظلت قائمة بين عـائلات وبيوتات الكارمية على مدى أكثر من ثلاثة قرون (٤) . وكان الاشتراك فى تجارة واحدة تتخذ لها طريقا واحدا يحتاج بالضرورة الى قيام طائفة تضم هؤلاء التجار وتحافظ على تجارتهم وعلى مصالحهم . كذلك جمعت بينهم الأخطار التى كانوا يتعرضون لها فى البحر وفى المحيط الهندى سواء أكانت هذه الأخطار من جانب الطبيعة أو من جانب قراصـنة البحار .

---

(١) — Ashtor: The Karimi Marchants, (JRAS, London, 1956, p. 51).

(٢) — Coupland: East Africa and its Invaders, pp. 19-20.

(٣) — Goïen: Studies in Islamic History, p. 360.

(٤) — Wiet: Les Marchands d'épice, p. 129.

وكان لطائفة الكارمية منذ العصر الفاطمى رئيس يرأسه يسمى « ريس الكارمية » أو « ريس التجار » أو « شاهبندر التجار » (١) وكانت هذه الرئاسة وراثية يرثها الابن عن الأب جيلا بعد جيل (٢) • وكان ابن رئيس الكارمية يتعلم أصول هذه التجارة ويشترك فى رحلات تجارية بعيدة وهو فى سن مبكر ، وقد وردت فى المصادر أسماء لعائلات تولت رئاسة الكارمية من العهد الفاطمى حتى العهد المملوكى أمثال عائلة القويق، والخروبى ، والمحلى ، والدمامينى وغيرها (٣) •

ويشير بعض الكتاب الى أن طائفة التجارية الكارمية فى العهدين الأيوبى والمملوكى لم تكن تضم سوى المسلمين وأنها كانت تشترط الاسلام أو الدخول فيه لمن يريد العمل فى الكارم (٤) • وقد بنى هؤلاء الكتاب أراءهم على غلبة العنصر الاسلامى بين طائفة تجار الكارم فى هذين العهدين ، كذلك استنادا على روح التعصب الدينى التى كانت سائدة فى العصور الوسطى وخاصة فترة الحروب الصليبية • والحقيقة أن هذا القـــول كله مردود ذلك لأن التجارة لم تكن تتماشى مع التعصب وأن المشتغل بها يعتمد أساسا فى احرازه المزيد من الكسب على علاقاته الانسانية الطيبة مع كل الناس من مختلف الاديان • ولكنا لو نظرنا الى الامر فى حقيقته نرى أن هذه الغلبة الاسلامية بين تجار الكارم فى العصرين الأيوبى والمملوكى لم تكن بسبب فرض دخول الاسلام لمن أراد العمل فى هذه التجارة أو بسبب اخراج غير المسلم منها ، وانما كان ذلك الوضـــع نتيجة لتطورات سياسية وأقتصادية جرت فى أوروبا وفى الشرق فى القرن

---

(١) انظر الباب الخامس الخاص بالنظم •

(٢) — Wiet : Op. Cit., p. 130.

(٣) -- Fischel : Op. Cit., p. 165.

(٤) اشار الى هذا الراى كل من clerget و Fischel واخذ به صبحي لبيب — انظر : صبحي لبيب : التجارة الكارمية ، ص ١٢ •

الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) (١) • فقد شهدت هذه الفترة قيام نظام القومونات فى أوروبا • كما سبق أن أشرنا ، وشهدت عصر اليقظة الاقتصادى لأهالى مدن أوروبا التجارية . وقيام الصراع بين التجار المسيحيين من أهالى هذه المدن (تجار الفرنج) والتجار اليهود الذين كانوا حتى ذلك الوقت يسيطرون على تجارة الشرق مع أوروبا • وقد انتهى هذا الصراع بانتصار تجار الفرنج واختفاء تجار اليهود تدريجيا حتى توقف نشاطهم تماما فى هذه التجارة العالمية مع مطلع القـــرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) • ويتجلى ذلك فيما تعرض له اليهود ، ابتداءا من ذلك القرن وطوال العصور الوسطى للاضطهاد فى أوروبا • ونتيجة لهذه التطورات استقر معظم تجار اليهود الرازانية فى بلاد الشرق الاسلامى وقصروا نشاطهم على التجارة الداخلية وأعمال الصيرفة فى داخل هذه البلاد بعد أن تحول نشاطهم عن الاشتراك فى تجارة الكارم (٢) • ومن المحتمل أن يكون بعض هؤلاء التجار استمروا فى العمل فى تجارة الكارم واعتنقوا لذلك الاسلام حرصا على المكاسب المالية الهائلة التى كانوا يحققونها من العمل فى هذه التجارة واحتماءا بالاسلام من الاضطهاد الأوروبى ، وقد عرف اليهود بحبهم للمال فى مختلف العصور • ويؤيد رأينا هذا ما ورد فى قائمة تجار الكارم التى أوردها كتاب الطبقات فى العهد المملوكى من أسماء لتجار مسلمين عملوا فى الكارم كان أجدادهم يهودا (٣) •

هذا وقد انفرد تجار الكارم المسلمون ، بعد خروج اليهود من تجارة الكارم ، بالعمل فى هذا النوع من التجارة ونقلوا مركز نشاطهم من

---

(١) — Wie : Op. Cit., p. 130.

(٢) — Ashtor : Histoire des prix, p. 119.

(٣) أورد Wiet عددا كبيرا من اسماء تجار الكارم فى العهد المملوكى فى مقاله : — Les Marchands d'épice, pp. 106-110.

عدن الى القاهرة فى العهد الأيوبى نتيجة لما حدث من تطورات فى التجارة العالمية بعد أن انتقل مركز هذه التجارة من موانى المحيط الهندى الى موانى البحر المتوسط • وكان من الطبيعى أن ينقل تجار الكارم المسلمون مركز نشاطهم الى القاهرة ليكونوا على مقربة من المركز التجـــارى الجديد (١) •

هذا وقد أدت الحروب الصليبية ، وخاصــة حين أستخـــدم الصليبيون السلاح الاقتصادى فى معركتهم ضـد المسلمين ، الى أن تشتد الروح الدينية ، وأن يعمل الجانبان الصليبى والمسلم على حماية مصالحة وذلك بالحرص على التضامن والوحدة وهذا يقتضى اســتبعاد اليهود الذين لم يكن يهمهم سوى الكسب ، والذين ربما يعملون تحت اغراء الكسب المادى ضد مصالح كل من الطرفين فى تجارة الكارم • وربما ادى ذلك أيضا الى أن يتحول بعض تجار الكارم اليهود الى الاســلام حفاظا على مكاسبهم الهائلة من وراء هذه التجارة •

وبرغم ما قيل عن انفراد المسلمين بتجارة الكارم فى العهدين الأيوبى والمملوكى فان هنالك ما يشير الى اشتراك بعض اليهود وبعض المسيحيين الشرقيين فى هذه التجارة فى ذلك الوقت • فقد أشار فيشيل Fischel الى وجود عائلة يهودية كانت تعيش فى مصر فى العصر الأيوبى كانت تعمل فى تجارة الكارم والصيرفة وأن نشاط هذه العائلة استمر فى العهد المملوكى ، وكانت تعرف باسم البيت الكارمى (٢) • كذلك تحدثت وثائق الجنيزة عن وجود تجار يهود فى تجارة الكارم فى العهد الأيوبى (٣) • كما أورد المكين جرجس بن العميد (المتوفى فى القرن السابع الهجرى) عند حديثه عن حياة البطريرك الأنبا يونس بن أبى غالب بطريق اليعاقبة على

---

(١) — Fischel: Op. Cit., p. 167.

(٢) — Fischel: Op. Cit., p. 166.

(٣) — Ashtor: The Karmi Merchants, p. 55.

الإسكندرية والديار المصرية والحبشة والنوبة والذى توفى سنة ٦١٢ هـ أنه كان حتى سنة ٥٨٦ هـ تاجرا يعمل فى الكارم ويتردد على بلاد الهند واليمن وأنه حصلت له أموال كثيرة من تجارته فى الكارم (١) .

وقد اهتم سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم المماليك بطائفة الكارم وقدموا لهم التسهيلات اللازمة حتى أنهم خصصوا لخدمتهم موظفا حكوميا كبيرا يهتم بهم ويسهل لهم أمورهم وهو مستوفى البهار والكارم . وتحدث القلقشندى عن اختصاص الموظف الذى يشغل هذه الوظيفة بقوله : « ان موضوعها التحدث على واصل التجار الكارميه من أصناف البهار وأنواع المتجر ، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف الى الوزارة وتجعل تبعا لها وتارة تضاف الى الخاص وتجعل تبعا لها وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان » (٢) . وكان على مستوفى البهار والكارم مسئولية أن يلاحظ ويجرد كل الوارد على أيدى تجار الكارم من عدن ثم جده الى مصر والداخل فى فنادقهم والمباع للتجار الأوربيين . وبجانب ذلك الموظف نجد موظفين آخرين يساعدان هذا الموظف وذلك فى العصر المملوكى مثل استادار الكارمى ومتحدث الكارمى (٣) .

كذلك قام الأيوبيون ، بمثل ما قام به الفاطميون ، من تعقب خطر المتجرمة فى مياه البحر الأحمر ، فرصدوا سفنا من أسطولهم لهذه الغاية مثلما فعل الفاطميون . وقد أكدت وثائق الجنيزة هذا الأمر فى كثير من القضايا التى طرحت خلال هذه الوثائق والتى تعلقت بخطر التجرم فى البحر الأحمر (٤) . كذلك وفرت الدولة الأيوبية لتجار الكارم الامن

---

(١) كانت مدة بطريركيته ستة وعشرون واحد عشر شهرا وثلاثة وعشرين يوما .

— (Cahen : La Chronique des Ayyoubides d'Al Makin B. Al-Amid, (BEO, T. XV, 1955-1958, Damas 1958, p. 128).

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(٣) — Fischel : The Spice Trade, p. 167.

(٤) راجع ما ورد بهذا الخصوص فى الباب الثانى . (٦)

فى الطرق البرية بين موانى مصر على البحر الأحمر وبين النيل ووادبه • وشاهد ذلك ما أورده ابن جبير فى كتاب رحلته عن الأمان الذى كان يسود هذه الطرق البرية رغم خلوها ووحشتها فى بعض أوقات العام • وقد ذكر ابن المكين (المتوفى فى القرن السابع الهجرى) أن السبل البرية كانت آمنة فى عهد الأيوبيين وأورد أن السلطان الملك الكامل رتب خفراء على الطرقات لحفظ التجار المترددين عليها ، فكان التجار يعبرون تلك البرارى الموحشة والصحارى القاحلة دون أن يروعهم شىء(١) •

هذا وقد عمل حكام الأيوبيين على راحة هذه الطائفة التجارية الكبرى فى داخل البلاد فأقاموا لهم الفنادق الخاصة بهم والتى كانوا يمارسون بها مختلف نشاطاتهم(٢) ففى سنة ٥٧٩ هـ — وهى السنة التالية لانتصار حسام الدين لؤلؤ على حملة أرناط — أمر صلاح الدين ببناء فندق لهم بالفسطاط وكلف ابن أخيه تقى الدين بن عمر ببناء هذا الفندق ، فبناه على شاطىء النيل حيث ترسو مراكبهم(٣) • كذلك بنى الكارميه أنفسهم بعضا من هذه الفنادق على نفقتهم الخاصة ، وكانت تتم فيها صفقات بيع التوابل والسلع الأخرى لتجار أوروبا • ولم تكن اقامة هذه الفنادق مقصورة على القاهرة فحسب ، بل كانت للكارميه أيضا فنادقهم فى الاسكندرية ودمياط وقوص وعيذاب وعدن ومكة وجده(٤) •

وهنالك من يزعم أن الخدمات التى كانت تؤديها الدولة الأيوبية لتجار الكارم كانت مقابل أموال ومساعدات كان الكارم يقدمونها للدولة

---

(١) Cahen : La Chronique, p. 144.
(٢) Fischel : Op. Cit., p. 159.
(٣) احمد دراج : عيذاب ، ص ٥٩ .
(٤) Attiya : Crusade, Commerce and Cultures, p. 188.

فى أوقات أزماتها المالية والاقتصادية . ويستند أولئك فى ذلك الزعم على ما أشار اليه المقريزى من تحصيل صلاح الدين لزكاة أربع سنين من تجار الكارم دفعة واحدة فى سنة ٥٧٧ هـ (١) . والحقيقة أن هذا افتراض لا وجود له ، ذلك لأن صلاح الدين لم يحصل من تجار الكارم سوى الزكاة ، ولم يحصلها بهذه الطريقة منهم سوى مرة واحدة وذلك لحاجته الى المال فى ذلك الوقت لمجاهدة الصليبيين الذين هاجموا عيذاب والبحر الأحمر فى نفس العام . ولم يذكر المقريزى ولا غيره من المؤرخين أن صلاح الدين عاود هذا الطلب من تجار الكارم . بل اننا نجده على العكس من ذلك يسقط عن تجار الكارم ما كان يجبى عليهم بعيذاب من زكاة أموالهم بضع سنوات تشجيعا لهم على القدوم الى مصر (٢) .

كذلك نجد أن هذا الافتراض لا يتماشى مع السياسة المالية التى أتبعها صلاح الدين والتى كان يسير عليها بمقتضى الشريعة الاسلامية (٣)

---

(١) انظر — صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص ١١ ، ١٢ .

(٢) يقول ابن جبير وهو بصدد حديثه عن عدل صلاح الدين ومقارنته بعدل الموحدين (ص ٦٩ ، ٧٠) : « وكل من سواهم من الملوك فى هذا الا وان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كأنهم اهل ذمة لديهم ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها اللهم الا هذا السلطان العادل صلاح الدين الذى ذكرنا سيرته ومناقبه لو كان له أعوان على الحق .. مما اريد والله عز وجل يتلافى المسلمين بجميل نظره ، ولطيف صنعه » .

(٣) كذلك أورد ابن جبير (ص ٥٥) قوله أن صلاح الدين الغى كل المكوس التى كانت قائمة فى عهد الفاطميين وفى ذلك يقول : « كان مضروبا رسم مكس على الحجاج زمن دولة الفاطميين قدره سبعة دنانير ونصف على كل راس كانت تؤدى بعيذاب لغاها صلاح الدين كذلك الغى مكوسا اخرى كانت فى البلاد المصرية ضرائب على كل ما يباع مما دق او جل محاها كلها صلاح الدين » .

وخاصة بالنسبة للمكوس • فكان لا يحصـــل من التجار المسلمين سوى زكاة أموالهم (١) • ومن غير المسلمين كان لا يحصل سوى العشر (٢) •

هــذا وقد اختلفت طبيعــة التــاجر الكارمى فى العصر الأيوبى والمملوكى عنها فى العصر الفاطمى ؛ فقد كانت كميات السلع التى ينقلها تجار الكارم فى العصر الفاطمى محدودة ، أما بعد هذا العصر فقد أصبح التاجر الكارمى صاحب القوافل الهائلة التى كان يحميها بجند وخيالة تعمل لحسابه • وحقق هؤلاء التجــار من وراء عملهم فى تجارة الشرق أرباحا هائلة وثروات طائلة ؛ فقد بلغت ثروة بعضهم مليون دينار وبلغت ثروات البعض الآخر أضعاف ذلك ، وقد تعذر احصاء ثروة بعضهم (٣) •

هذا وقد وردت أسماء أشخاص وبيوتات من أثرياء الكارم فى العهدين الأيوبى والمملوكى ؛ الا أن ما ورد فى العهد الأيوبى منهم فهو قليل (٤) • ومن هؤلاء التجار المعاصرين للعصر الأيوبى وأوائل العصر المملوكى :

١ ـــ عبد الله بن عبد الجبار الأموى العثمانى الاسكندرانى :
كان بزازا فى بادىء أمره ثم اشتغل بالكارم وأصله من شاطبه بالأندلس

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ •

(٢) يقول القلقشندى (صبح الأعشى،ج ٣ ص ٤٥٩) أن المقرر فى الشرع أخذ العشر من بضائعهم التى يفدون بها الى بلاد الاســـلام اذا شرط ذلك عليهم يؤخذ مرة واحدة من كل قادم بالتجارة فى كل سنة • وقد تقرر بعـــد ذلك أن يؤخذ منهم الخمس عن كل ما يصـــل لهم فى كل مرة (ابن مماتى فى قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦) •
ـــ أنظر الباب الخامس •

(٣) — Fischel: Op. Cit., p. 168.

(٤) — Wiet: Les Marchands d'épice, pp. 105-106.

وولد بالاسكندرية سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م وكان معروفا بولعه بدراسة الحديث وتوفى بمكة سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م .

٢ — **محمد بن على الجزارى** : أبحر من دمشق الى اليمن فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى وذهب الى جزيرة كيش والى الحبشة حيث أغتيل بها .

٣ — **عبد الله بن خضر الجزارى** : سافر الى الهند واليمن وأقام بالاسكندرية ثم رحل الى بغداد وظل بها حتى غزو المغول لها وعاد الى جزيرة كيش ثم الى بغداد واشتغل قاضيا بها ثم عاد الى دمشق وعمل قاضيا بها وتوفى سنة ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م .

٤ — **أحمد بن مظفر الخاطرى** : كان يعمل بالتدريس فى بدء حياته ثم ورث عن عمه الذى كان يتاجر فى الهند ثروة كبيرة ، وواصل تجارة عمه بعد آلت اليه ثروته فى بلاد الهند فى منتصف القرن السابع الهجرى . وفى أواخر حياته رحل الى دمشق واستقر بها وكانت وفاته بها سنة ٦٩٦ هـ/١٢٦٧ م .

٥ — **ابن بكاش** : تاجر فى الهند وظل فى خدمة أمير الهند ومات بها فى نهاية القرن السابع الهجرى(١) .

هذا وقد كانت لتجار الكارم عمــوما مآثر وأيادى بيضـــاء على المجتمعات التى عاشوا بها وذلك لما كانوا يتمتعــون به من ثروات طائلة ويتحلون به من أخلاق فاضلة وتقوى زائدة (٢) فقد خصص الكثير منهم جزءا من ثرواتهم لبناء واصلاح المساجد والمدارس والمستشفيات فى

(١) — Wiet: Op. Cit., pp. 105-106.
(٢) — Attiya: Op. Cit., p. 198.

مكة والفسطاط (١) • كذلك اهتم رجال الكارم بدراسة علوم الدين وخاصة الحديث وكانوا يسهرون على العناية بتثقيف أبنائهم وتنشئتهم تنشئة دينية طيبة • ومن يطلع على تاريخ حياة رجـال الكارم يلحظ أنهم لم يقتصروا على العمل فى تجارة الكارم فحسب بل كانوا أيضا أصحاب حوانيت فى داخل البلاد وكان منهم من يعمل أيضا بالتدريس والقضاء الى جانب عمله فى التجارة (٢) • وفى الجملة فقـد كان رجال الكارم فى العصرين الأيوبى والمملوكى خيرة رجال عصرهم مكانة وعلما وخلقا •

(١) — Fischel: Op. Cit., p. 169.
— Attiya: Crusade, Commerce, p. 198.

(٢) — Wiet: Op. Cit., p. 130.

الباب الخامس

المنشآت التجارية والنظم المالية

أولا : المنشآت التجارية :

— الاسواق التجارية فى الفسطاط والقاهرة وغيرها من المدن المصرية .
— القياسر ، الخانات ، الفنادق ، الوكالات ، المتجر .
— حاصلات تجارة الشرق الى أسواق مصر .
— أسعار حاصلات تجارة الشرق فى أسواق مصر .
— اسس التعامل بين تجار الشرق .

ثانيا : النظم المالية :

(أ) المكوس والزكاة والجزية .
(ب) العملة المتداولة .

الأسواق التجارية فى الفسطاط والقاهرة والاسكندرية وغيرها من المدن المصرية

خدمت الأسواق والمنشآت التجارية التى قامت فى مصر منذ الفتح الاسلامى ، حركة التجارة الخارجية كما خدمت حركة التجارة الداخلية فيها • فكانت حاصلات تجارة الشرق تجلب الى هذه المنشآت التجارية كالقياسر والوكالات والخانات والفنادق ومنها تطرح مع غيرها من السلع فى أسواق الفسطاط والقاهرة والاسكندرية وأسواق المدن الاخرى • وكانت تتم فى هذه الأسواق عمليات البيع والشراء فى السلع العادية التى يحتاج اليها الناس وفى سلع تجارة الشرق التى كانت عامل الرواج التجارى فى هذه الأسواق •

وقد اهتم حكام مصر الاسلامية بالأسواق وبالمنشآت التجارية وعملوا على النهوض بها لتحقيق الأغراض الاقتصادية التى قامت من أجلها(1) •

هذا وقد قامت الأسواق فى مدن مصر منذ الفتح الاسلامى وزادت وتطورت مع الأيام تطورا كبيرا • وذكر المقريزى أنه كانت بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق الشىء الكثير وقد باد أكثرها ، وفى هذا

---

(1) تحدث الشيزرى عن طبيعة الأسواق الاسلامية وما ينبغى أن تكون عليه هذه الأسواق فى الارتفاع والاتساع وذكر انها كانت على غرار ما وضعته الدولة البيزنطية وكانت هذه الدولة قد اقامت اسواقها فى المدن التابعة لها حول الميدان والكنيسة وانشأت الدكاكين على جانبى الشوارع المختلفة وجعلت لكل صنف من اصناف التجارة موضعا خاصا وبنت السقوف فوق تلك المواضع لحماية المارة من الشمس والمطر ولذلك سميت تلك الاسواق بالسقائف ، وقد سرى هذا النظام فى معظم المدن الاسلامية •
(الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١١) •

الصدد يقول : « وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خـــرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق الى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقا أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا • وهذه الخطة جملة ظاهر القاهرة الغربى فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر »(١) •

وأول تحديد لمكان الأسواق فى مصر بعد الفتح الاســـلامى تلك السوق التى كانت فى دار البركة وأورد ذكرها ابن عبد الحكم حين أفاد بأن عمرو بن العاص قد اختط للخليفة عمر بن الخطـــاب دارا عنـــــد المسجد الجامع فكتب له الخليفة عمر بأن يجعلها سوقا للمسلمين(٢) ، فجعلت سوقا يباع فيه الرقيق (٣) •

هذا وتصمت المصادر وكتب الخطط عن ذكر الأسواق التى كانت فى مصر فى عصر الولاة وتعود للحديث عنها زمن الطولونيين حينما تتعرض لبناء القطائع على يد أحمد بن طولون وتخطيط الأسواق بها •

ذكر « البلوى » أنه لما بنيت القطائع سمت أسواقها بعد أن بنيت فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين ، وسوق الفاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين ، وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبـــازين والحلوانيين • وكان لكل من الباعة ســـوقها الخاص بها • وأورد أنه « أفرد لـــكل صنف من جميع الصنائع ســـوق حسن عامر (٤) » •

---

(١) الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٩٢ .

(٣) ابن سعيد الاندلسى : الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٧١٢ ح ، ج ١ ، ورقة ٤٥ أ .

(٤) البلوى : سيرة احمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، دمشـــق ١٩٣٩ ، ص ٥٣ .

أما عن أسواق القاهرة والفسطاط فى عهد الفاطميين فقد تحدث عنها المقريزى فى الفصل الذى أفرده فى خططه للحديث عن الأسواق • هذا ومن الملاحظ أن الأسواق فى عهد الفاطميين تجمعت فى القاهرة حول قصرى الخلفاء الفاطميين(١) ، وابتعدت عن التجمع حول الجوامع كما كان الحال من قبل (٢) • كذلك تركزت الأسواق حول أبواب القاهرة الرئيسية مثل باب زويلة ، وباب الفتوح ، وباب النصر ، وباب البرقية، والباب الجديد وغيرها من الأبواب الرئيسية لمدينة القاهرة (٣) • وكانت القصبة أعظم أسواق مصر فى عهد الفاطميين ، وكانت تمتد فيما بين أول الحسينية مما يلى الرمل الى المشهد النفيسى ، وكانت تحتوى منذ انشائها على اثنى عشر ألف حانوت(٤) •

ومن أسواق القاهرة التى ترجع الى عهد الفاطميين :

سوق الشرايحيين : وهو أول سوق أنشىء فى القاهرة فى شهر صفر سنة ٣٦٥ هـ وهو من باب حارة الروم الى سوق الحلاويين ، وقد

---

(١) كان هناك قصران للخلفاء الفاطميين ، الأول يعرف باسم القصر الكبير الشرقى ويسمى القصر المعزى ، والثانى هو القصر الصغير الغربى • (المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٨٣) •

(٢) Clerget : Le Caire, II, p. 141.

(٣) أورد المقريزى حديثه عن ابواب القاهرة فقال : « كان للقاهرة من جهتها القبلية بابان متلاصقان يقال لهما باب زويلة ومن جهتها البحرية بابان متباعدان : احدهما باب الفتوح والآخر باب النصر • ومن جهتها الشرقية ثلاثة أبواب متفرقة : احدهما يعرف باب البرقية والآخر بالباب الجديد والثالث بالباب المحروق • ومن جهتها الغربية — ثلاثة أبواب : باب القنطرة وباب الفتوح ، وباب الفرج ، وباب سعادة ، وباب آخر يعرف باب الخوخة » (الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٩) •

(٤) الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٤ •

تغير اسم هـذا السوق بعد العهـد الفاطمى وعرف باسم سـوق الشوايين (١) ٠

سوق أمير الجيوش : أقامه بدر الجمالى برأس حارة برجوان ، وقد تحول اسمه فيما بعد الى سوق حارة برجوان (٢) ٠

سويقة أمير الجيوش : وهى تنسب أيضـا الى بدر الجمـالى ، وكانت شارعا من شوارع القاهرة يسـلك فيه من بين القصرين وباب الفتوح وباب النصر الى باب القنطرة وشاطىء النيل وغيره ، وكان بها عدة قياسر وفنادق (٣) ٠ وقد عرفت هذه السويقة بعد الدولة الفاطمية باسم سوق الخروقيين (٤) ٠

سوق القماحين : وكان موجودا أيام الدولة الفاطمية وحـده من الجامع الاقمر الى سوق الدجاجين ٠ وعند هذا السوق بنى المأمون البطائحى الجامع الأقمر باسم الخليفة الآمر بأحكام الله وبنى تحت الجامع دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح (٥) ٠ وكان يعلق بهـذا السوق الفوانيس فى موسم الغطاس ، وكان به موسم عظيم فى شهر رمضان لكثرة ما يشترى منه من الشموع الكبيرة التى تزن الواحـدة منها القنطار (٦) ٠ وقد تغير اسم هذا السوق بعد الفاطميين وأصبح اسمه سوق الشماعين (٧) ٠

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٩ (نقلا عن ابن زولاق وابن عبد الظاهر) ٠

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٤ ٠

(٣) الخاصكى : التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ٢٢٦٥ ، ورقة ٧٦ ب ٠

(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ٠

(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٥ ٠

(٦) الخاصكى : التحفة الفاخرة ، مخطوطة ، ورقة ١٧٠ ٠

(٧) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٥ ٠

سوق الصيارف : عرف فى الدولة الفاطمية بذلك الاسم ، ثم تغير اسمه بعدها الى سوق باب الزهومة ، وهو مقابل لسوق السيوفيين فى طريق السالك الى سجن المعونة (١) •

سوق المحاريين : كان موجودا فى عهد الفاطميين فيما بين الجامع الأقمر وبين جملون ابن صيرم (٢) ، وكان لهذا السوق موسم عظيم عند سفر الحاج وعند سفر الناس الى القدس (٣) •

سويقة الوزير : تنسب للوزير يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله وكانت على باب داره ، وقد عرفت فى آخر الدولة الفاطمية بالسوق الكبير (٤) • ثم تحول اسم هذه السويقة بعد الدولة الفاطمية الى سويقة الصاحب نسبة الى المدرسة الصاحبية التى أنشأها صفى الدين بن شكر الدميرى وزير الملك العادل الأيوبى فى هذا الخط حين سكن فيه (٥) •

هذا فضلا عن سوق الخشابين ، والحدادين ، والجمارين ، والسراجين ، والطيوريين ، والوراقين ، والجوخيين ، والشرايحيين ، والحلاويين ، والقشاشين ، والسيوفيين ، وسوق الصاغة القديم ، وكلها كانت موجودة منذ العصر الفاطمى (٦) •

ومن الأسواق التى استجدت فى القاهرة فى عهد الدولة الأيوبية :

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٩٦ •
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٠ (انظر فيما بعد سوق الجملون الصغير) •
(٣) الخاصكى : التحفة الفاخرة ، مخطوطة ، ورقة ٧٧ أ ، ٧٧ ب •
(٤) الخاصكى : نفس المصدر السابق ، ورقة ٨١ ب •
(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٠٣ •
(٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٢ ، ٣٧٢ •

سوق المهامزيين : استجد بعد زوال الدولة الفاطمية (١) ، وكان معدا لبيع المهاميز وسلاسل الفضة التى كانت برسم لجم الخيل كذلك الطرف لأكابر الكتاب من القبط ورؤساء التجار (٢) .

سوق الجملون الصغير : كان يبدأ من سويقة أمير الجيوش الى باب الجوانية وباب النصر ورحبة باب العيد ، وعرف باسم جملون ابن صيرم نسبة الى الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم أحد أمراء الملك الكامل الأيوبى . وكان فى هذا السوق الكثير من دكاكين البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان وأصناف ثياب القطن (٣) .

سويقة البلشون : وكانت خارج باب الفتوح وتنسب الى سابق الدين سنقر البلشون أحد مماليك السلطان صلاح الدين بن أيوب (٤) .

سوق السلاح : وكانت فيما بين المدرسة الظاهرية بيبرس وبين باب قصر بشتاك ، أستجد بعد الدولة الفاطمية فى خط بين القصرين وجعل لبيع القسى والنشاب والزرديات غير ذلك من آلات السلاح (٥) .

سوق باب الفتوح : وكان هذا السوق داخل باب الفتوح على رأس حارة بهاء الدين وكان من أجل أسواق القاهرة وأعمرها . وقام هذا السوق فى عهد الدولة الأيوبية حين سكن قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين (٦) .

أما أسواق الفسطاط فانها ظلت قائمة فى العهد الفاطمى على الرغم من قيام أسواق القاهرة . وقد أورد لنا الرحالة والمسافرون استمرار أداء هذه الأسواق لوظيفتها فى العهد الفاطمى واستمرار رواجها .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٧
(٢) الخاصكى : التحفة الفاخرة ، مخطوطة ، ورقة ٧٢ ب .
(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ .
(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ .
(٥) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٦ .
(٦) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

وكانت أسواق الفسطاط بمعزل عن بعضها البعض ويطلق عليها اسم أرباب الحرفة والصنعة التى تباع فيها مصنوعاتهم (١) فيقال مثلا : سوق النحاسين ، العيارين ، البزازين ، الوراقين ، القناديل ، سوق العطارين ، سوق دار النحاس ، سوق الغنام ، وسوق الغزل (٢) • ومن أسماء أسواق الفسطاط التى أوردها ابن دقماق بالاضافة الى ما سبق ذكره : سوق البربر ، سوق وردان ، سوق قصر الشام ، سويقة البراغيث ، سويقة المغاربة ، سوق العسل ، سوق السماكين سوق السراجين ، السوق الكبير ، سويقة دار فرج ، سويقة مسجد العيثم ، سويقة نوام ، سوق أحاف ، سويقة مسجد القرون ، سويقة معتوق ، سويقة ابن العجمية ، سويقة دار النحاس ، سويقة كنائس أبى شنودة ، سويقة العراقيين ، سويقة عدوان ، وسوق الرقيق (٣) •

وأود ناصرى خسرو أنه أقيمت بالفسطاط أسواق كثيرة يصعب حصرها أو قياسها • وتحدث عن سوق القناديل خاصة ، وكان بآخر زقاق القناديل على الجانب الشمالى من جامع عمرو بن العاص ، ووصف هذا السوق بأنه لا يوجد مثله فى أى بلد وأن فيه كل ما فى العالم من طرائف (٤) • وقد نوه ناصرى خسرو بأسواق الفسطاط وبما كانت تغص به من خيرات فى العهد الفاطمى ، وأرجع ذلك الى الرخاء والازدهار الاقتصادى الذى كانت تعيشه مصر فى عهد الفاطميين (٥) • كذلك تحدث

---

(١) على بهجت : حفريات الفسطاط ، ص ٣٧ .

(٢) — Clerget : Le Caire, II. p. 142.

— اورد القلقشندى أنه كان يوجد فى الفسطاط سوق يباع فيه الغزل مكان المدرسة المالكية المعروفة بالقمحية التى احدثها السلطان صلاح الدين ابن ايوب سنة ٥٦٦ هـ (صبح الاعشى ، جـ ٣ ص ٣٤٣) .

(٣) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ، طبعة بولاق ١٣٠٩ هـ ، جـ ٤ ، ص ٣٢ — ٣٤ .

(٤) سفر نامه ، ص ٥٩ .

(٥) سفر نامة ، ص ٦٠ .

ناصرى خسرو عن كيفية الوصول الى أسواق الفسطاط والعودة منها فذكر أن أهل السوق وأصحاب الدكاكين كانوا يركبون الحمر المسرجة فى ذهابهم وايابهم من البيوت الى السوق ، وأورد انه كان فى كل حى على رأس الشوارع حمر كثيرة عليها برازع مزينة يركبها من يريد نظير أجر زهيد . وأضاف بأنه وصل الى علمه أنه كان هنالك خمسون ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى (١) .

ومن طريف ما ذكر عن الأسواق فى العصر الفاطمى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أمر باغلاق الأسواق نهارا وفتحها ليلا وجعل النهار مقام الليل واستمر الناس على ذلك زمنا طويلا (٢) . وأورد المقريزى نقلا عن المسبحى فيما أورده عن حوادث سنة ٣٨٣ هـ ، أن العزيز بالله أمر بوقود المصابيح على الدور فى الاسواق . كذلك ذكر أن الخليفة الحاكم بأمر الله أمر فى سنة ٣٩١ هـ الناس أن يوقدوا القناديل فى سائر البلد فى جميع الحوانيت وأبواب الدور والسكك ففعلوا ذلك وتناظروا فيه واستكثروا منه فى الشوارع والأزقة وأنفقوا فى ذلك أموالا طائلة . وكذلك زينوا القياسر وصار الناس فى القاهرة والفسطاط طول الليل فى بيع وشراء (٣) . وعن عناية الخليفة الحاكم بأمر الله بأمر الأسواق وضبطه للأسعار بها حدثنا ابن زولاق أن الخليفة الحاكم بأمر الله قرر للناس أسعارا ثابته التزم بها جميع التجار (٤) .

وفى مدن مصر الأخرى كان يوجد عدد كبير من الأسواق ، فقد كانت توجد سوق واحدة فى كل مدينة ان لم يكن فى كل قرية . وقد

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٢) ابن زولاق : تاريخ مصر ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ١٨١٧ ، ورقة ٥٢ ب .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ .

(٤) ابن زولاق : تاريخ مصر ، مخطوطة ، ورقة ٥٥ أ .

أمدنا المؤرخون وكتاب الخطط فى مصر الاسلامية بأسماء عدد من المدن التى اشتهرت بأسواقها مثل مدينة منوف ومحلة صرد وقليوب ومنية ابن الخصيب (١) وأهناس ومنية غمر ومليج ودميرة والمحلة الكبرى وفوه (٢) .

و فى الاسكندرية كانت هنالك أسواق كثيرة متخصصة حتى أنه كان هنالك حى خاص لبيع التوابل وكان يسمى بشارع الفلفل (٣) . وقد ذكر الطبرى فى تاريخه أن عمروا بن العاص لما فتح الاسكندرية هاله كثرة أسواقها وأرسل يقول للخليفة عمر :

« وقد افتتحت لك مدينة فيها اثنى عشر ألف حانوت تبيع البقل » (٤) . أما دمياط فقد سكنها كثير من التجار وأصحاب الأموال وكانت بلدة عامرة كثيرة الأسواق (٥) . ومن الأسواق الكبرى فى صعيد مصر سوق منفلوط والاسيوطية (٦) وقوص (٧) واسنا وأسوان (٨) .

وكانت معظم أسواق مدن الاقاليم تقام مرة فى كل اسبوع ، فكان سوق دقدوس مثلا يوم الأربعاء وسوق دمسيس يوم السبت ، أما سوق الجيزة فكان يوم الأحد (٩) .

***

(١) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٢٨٠ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .
(٣) Attiya : Crusade, p. 179.
(٤) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٣٥ .
(٥) نفس المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨١ .
(٦) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٩٥ .
(٧) ابن جبير : رحلته ، ص ٥٩ ، ٦٣ .
(٨) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، القاهرة ١٣٢٢ — ١٤٢٣ هـ ، ج ١ ، ص ٣٥ .
(٩) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٩٧ .

المنشآت التجارية

القياسر ، الخانات ، الفنادق ، الوكالات ، المتجر

لما كان من اللازم تهيئة السبل أمام التجار والأجانب منهم بصفة خاصة حتى يستطيعوا مزاولة أعمالهم دون عناء كبير ، وحتى يتيسر للحكومة أداء واجب الاشراف عليهم على الوجه الأكمل أقيمت فى مصر الاسلامية عمائر تجارية مختلفة • وهذه العمائر التجارية وان اختلفت أسماؤها وطرز عمارتها الا أنها جميعا أنشئت لتحقيق غرض واحد ، ألا وهو خدمة الحركة التجارية • وهذه المنشآت هى : القيسارية ، والخان ، والفندق ، والوكالة •

القيســارية :

وهى تتكون من مجموعة من المبانى العامة بها حوانيت ومصــانع ومخازن وأحيانا مساكن وبها كذلك أروقة • والكلمة مشتقة من لفــظ يونانى معناه السوق الامبراطورية مما يدل بوضوح على أنها كانت من انشاء الدولة (١) • أما فى مصر الاسلامية فيبدو أنها كانت من انشاء التجار وكبار رجال الدولة (٢) • وصف ابن جبير واحــــدة من قياسر الموصل فأورد عنها قوله :

« وكأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض »(٣) •

---

(١) — Goitein : A Mediterranean Society, P. 194.

(٢) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، ص ٢٧٢ .
(وكانت القياسر تنشأ للتجار الاجانب على اختلافهم غير أن التجــار الأوروبيين كان يفضلون الاقامة فى فنادقهم — محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٦) .

(٣) البراوى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

وكان فى بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ويعلوها رباع ذات مساكن خصصت للصناع والتجار مقابل أجر معين • وكانت تعرف باسم منشئها كقيسارية ابن ميسر ، أو باسم ما يباع فيها كقيسارية العصفر وقيسارية العنبر •

وعرفت مصر القياسر منذ العهد الأموى اذ يذكر ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بن مروان بنى فى الفسطاط قيسارية العسل وقيسارية الجمال وقيسارية الكباش[١] ، كذلك اشترى عبد العـزيز بن مروان القيسارية التى كان يباع فى البز (الثياب) وكانت تعرف بقيسارية أبى مرة ثم حول اسمها الى قيسارية عبد العزيز نسبة اليه[٢] • وبنى هشام بن عبد الملك القيسارية التى عرفت باسمه وكان يباع فيها أقمشة الفسطاط[٣] • ومن القيســاريات التى ترجع أيضا الى هذا العهـد : قيسارية ابن أخى صبح التى وصفها ابن دقماق بأنها كانت من خطة الحويرث السهمى ثم صارت الى عبد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر لهشام بن عبد الملك ثم وهبها لابنه القاسم فاصطفاها هشام عن ابن الحبحاب[٤] • كذلك قيسارية ابن أبى الثريا التى أشار اليها ابن دقماق بقوله انها كانت من خطة النضر بشير بن عمر المزنى ثم صارت الى ابنه بشير وكان قاضيا بمصر زمن عبد العزيز بن مروان[٥] • كذلك قيسارية الأنماط القديمة وهى من خطة عمرو بن أبى صحابة اليحصنى وكانت تعرف فى الدولة الأموية بدار الابل العظمى[٦] •

---

(١) فتوح مصر واخبارها ، نشر شـــارلز تورى ، ليدن ١٩٢٠ ، ص ١٣٦ •
(٢) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٩ •
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٣٦
(٤) الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ج ٤ ، ص ٣٩
(٥) الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٩ •
(٦) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٩ •

وفى العصر الطولونى أورد قيام قيسارية مقابل مسجد جبر بن القاسم وصفها بأنها كانت قديما لعلى بن محمد الأسدى الكاتب من أصحاب خمارويه بن أحمد بن طولون الذى توفى سنة ٣٢٠ هـ (١) .

وفى العصر الاخشيدى أورد ابن دقماق قيام قيسارية تحـــرير وكانت بعقبة بنى قليح وهى منسوبة الى تحرير الأرغلى الاخشيدى(٢) .

وفى العصر الفاطمى قام بالفسطاط والقاهرة عدد من القياسر ، ونستلخص ذلك من أســماء القياسر التى أوردها ابن دقماق . كذلك نستخلصه من عبارة وردت على لسان يحيى بن سعيد الأنطاكى بصدد مرسوم أصدره أحد الخلفاء الفاطميين بتجديد عمارة دير القصير ورد الأوقاف والأملاك التى كانت محبسة عليه من ضياع وقياسر (٣) .

ومن القيساريات التى أوردها ابن دقماق فى الفسطاط وترجع الى العصر الفاطمى :

قيسارية المحلى : وكانت سكن الصوافين (تجار الصوف) بسوق الغرابليين والعطارين وكانت تشتمل على ستة أبواب ، وكان يباع فيها سائر أنواع الصوف والخيش وغيره مما يبتاعه تجار القاهرة فى أيام أسواق مصر (٤) .

قيسارية ابن ميسر الكبرى :

بسوق وردان بالفسطاط ، وكانت مرسومة لبيع الخـام البلدى والمجلوب وكان لها خمسة أبواب(٥) .

---

(١) الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٠ .
(٢) الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٠ .
(٣) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، ص ٢٧٢ .
(٤) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٥) نفس المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

قيسارية ابن ميسر الصفرى : وكانت بسوق القشاشين بالفسطاط ، وكان يباع بها الصناديق وما شاكلها ، وكان بها جماعة من أعيان التجار(١) •

ومن القيساريات التى أنشئت فى القاهرة فى العصر الفاطمى :

قيسارية ابن أبى أسامة : كانت على يسار السالك الى بين القصرين ، وقفها سنة ٥١٨ هـ الشيخ أبو الحسن على صاحب ديوان الانشاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله(٢) •

قيسارية جهاركس : بناها الأمير عز الدين جهاركس سنة ٥٩٢ هـ ، وقال عنها ابن خلكان بأنها القيسارية الكبرى التى ليس فى البلاد مثيل لها فى الحسن والعظمة وأحكام البناء ، وكان بأعلاها مسجد كبير وربع معلق(٣) •

قيسارية ابن يحيى : وكانت تجاه باب قيسارية جهاركس ، أنشأها القاضى المفضل هبة الله بن يحيى التميمى سنة ٥٤٠ هـ(٤) •

ومن القيساريات التى أنشئت فى القاهرة زمن الأيوبيين :

قيسارية الفائزى : وكانت بأول الخراطين مما يلى المهامزيين ، أنشأها الوزير الأسعد شرف الدين أبو القاسم هبة الله ، وكان من جملة نصارى صعيد مصر وأسلم أيام الملك الكامل الأيوبى ونظر الديوان أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب(٥) •

---

(١) نفس المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٣٩ •
(٢) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٨٥ •
(٣) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٨٦ •
(٤) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٠ •
(٥) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٨٨ •

قيسارية ابن قريش : كانت فى صدر سوق الجملون الكبير بجوار سوق الوراقين ، شيدها القاضى المرتضى ابن قريش فى الأيام الناصرية الصلاحية(١) .

قيسارية الشرب : أوقفها السلطان صـــلاح الدين بن أيوب على الجماعة الصوفية ، وكانت بشارع القاهرة تجاه قيسارية جهاركس (٢) .

قيسارية الفاضل : كانت على يمين باب زويله وعـــــرفت بالقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى(٣) .

قيسارية (بدون اسم) : كانت تجاه قيسارية السروج المعروفة بالقيسارية الطويلة ، بعضها وقفه القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى وبعضها الآخر وقفه الوزير الصالح طلائع بن رزيك(٤) .

هذا وقد تردد الحديث عن القياسر فى العصرين الفاطمى والأيوبى فى وثائق الجنيزة ، فنرى فقرة — فى خطاب يرجع الى القرن الخامس الهجرى — يقول فيها صاحبه : « ... وهو يعتمد عليك فى أن تجمع له كل ما يخصه فى القيسارية » ويؤكد فى آخر الخطاب قوله السابق بهذه العبارة : « لا تنسى أن تجمع كل ما تبقى له فى القيسارية » (٥) ... وورد تعبارة أخرى فى خطاب آخر يتحدث فيه صاحبه عن القيسارية بقوله : « ... وهنا لك شريكان فى بيت القيســــارية يخص كل منهما ثلاثة دنانير أراد أحدهما أن يبيع نصيبه لبزاز القيسارية » . ووجدنا فى احدى وثائق الجنيزة أنه كان باحدى القيساريات صفان من الحجرات لصناعة الملابس ، وفى وثيقة أخرى عرفنا أن القيسارية كانت مقـــرا

(١) الخطط ، ج ٢ ، ص ٨٥ .
(٢) الخطط ، ج ٢ ، ص ٨٥ .
(٣) الخطط ، ج ٢ ، ص ٨٨ .
(٤) الخطط ، ج ٢ ، ص ٨٨ .
(٥) — Goitein : A Mediterranean Society, p. 194.

للوكلاء والصيارفة وأنها كانت مكانا لكافة المعاملات التجارية والمالية(١).

***

الخـان :

الخان هو مبنى ضخم يحتوى على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع ، ويتوسط الخان فناء كبير على هيئـة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم • وفى الخان يجد التجـار المأوى لهم ولدوا بهم خلال رحلتهم • والخان كلمة فارسية الأصـل أستعملت بكثرة فى مصر والشام وذكرها المؤرخون العرب فى عصـور الفاطميين والأيوبيين والمماليك • وكان السلاجقة أسبق الى بناء نوعين من المبانى على جانبى الطرق فى آسيا الصغرى ، نوع يسمى الرباط وهو فندق المسافرين والثانى يسمى الخان ويرى فى أطراف المدن وعلى الطرق الرئيسية للبريد وقد بنى لاستراحة التجار ، ثم أصبح يؤدى ما تؤديه الفنادق فى الموانى بالنسـبة للاجانب الغربيين (٢) • وكانت الخانات تشيد كذلك لأعمال الخير كايواء أبناء السبيل والمسافرين كما تدل على ذلك عبارة المقريزى عن خان السبيل(٣) • وكانت بخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشـترى منه المسافر ما يحتـاجه له ولدابته(٤) •

هذا وقد أشار ناصرى خسرو الى وجود عدد كبير من الخانات فى مدينة الفسطاط وذكر أن ايجار الواحد منها لم يكن يقل عن اثنى عشرة

(١) — Ibid., p. 194.

(٢) نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٢٥٦.

(٣) الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

(٤) ابن بطوطة : رحلته ، ج ١ ، ص ٣٧ .

ألف دينار فى العام(١) . ومن الخانات التى أورد ذكرها المقريزى فى عهد الأيوبيين الخانات الآتية :

خان مسرور : ذكر المقريزى بأنه يشتمل على مكانين أحدهما كبير والآخر صغير والكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة الى الحريريين والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة الى الجامع الازهر . وينسب هذا الخان الى مسرور أحد خدم السلطان صلاح الدين ، وكان من أجل الخانات وأعظمها(٢) .

خان السبيل : خارج باب الفتوح ، بنى على يد الأمير بهاء الدين قراقوش لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة وجعل به بئر ساقية وحوض(٣) .

خان منكورش : بناه الأمير ركن الدين منكورش زوج أم الأوحد ابن العادل ، ومنكورش هذا كان أحد مماليك السلطان صلاح الدين ثم تقدم حتى صار أحد أمراء الصلاحية(٤) .

***

---

(١) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، ص ٢٧٣ .
(٢) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٠ .
(٣) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٢ .
(٤) توفى سنة ٥٧٧ هـ (الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٢) .

الفنـــدق :

هو بناء ضخم مربع على شكل الحصن امتدت خارجه حدائق غرست بها بعض الأشجار • وكان الفندق يتألف من عدة طوابق ، وفى الدور الأرضى منه كانت توجد المخازن والحوانيت التى تطل على فناء داخلى فسيح يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها ، بينما تضم أدواره العليا مساكن التجار التى كانوا ينامون فيها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية[١] • وكلمة فندق كلمة يونانية الاصل Fandokeion [٢] وتقابلها فى الايطالية كلمة Fondaco ، وكان الفندق يعرف فى بيزنطة باسم Mitata [٣] •

والفنادق أصلا أقيمت للتجار الأجانب ، وفى البداية كان الروم كافة يجتمعون فى الاسكندرية فى مبنى خاص أطلق عليه أسم غامض هو « دار المناخ » • وفى القرن السادس الهجرى سمح لكل جالية من الجاليات الأوروبية أن يكون لها فندق خاص بها [٤] وكان التجـار الأوربيون يحرصون على أن يحصلوا من الحكومة المصرية على اذن بانشاء الفنادق الخاصة بهم • وكان كل فندق يحتوى فى العادة على كنيسة صغيرة يقيم التجار فيها شعائرهم الدينية ، كما كانت به فرن لصناعة خبزهم وحمام وقاعة خاصة مصرح لهم فيها بشرب النبيذ[٥] •

ولم يكن للأجانب حق ملكية الفنادق ، فهى أبنية مصرية وضعتها السلطات المصرية تحت تصرف تجارهم تسهيلا لاقامتهم فى البـلاد

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ص ٣٢٧ •
(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة •
(٣) Lopez : Medieval Trade in the Mediterranean World, London 1955, p. 85.
(٤) كلود كاهن : تجار القاهرة الاجانب فى عهد الفاطميين والايوبيين ، ص ٨٧،٨٢ •
(٥) سامى سعد : اسس العلاقات الاقتصادية ، ص ١١٢ •

وقيمهم بالصفقات التجارية ، وكانت ادارة الجمارك بالموانىء (الديوان) هى الهيئة التى تشرف على هذه الفنادق وتكلف بالسهر على سلامتها ودفع ايجارها واصلاحها • ويشرف على كل فندق موظف يعرف بالفندقى تختاره الجالية التى يتبع لها الفندق وهو الذى يمثلهم أمام السلطات(١) • وكان قنصل كل دولة مسئولا أيضا عن فندق دولته وعن تسديد رسوم التجار للسلطان ورصد جزء منها للاصلاح والصيانة للمبنى ، وكان ينص على ذلك فى المعاهدات التى تعقدها الدول الأوربية التجارية مع الدولة(٢) •

ونظير الاقامة فى الفندق كان التاجر يدفع درهما ونصف عن كل ليلة يقضيها فيه ، وكان يسمح لبعض الفنادق أحيانا بايواء الأجانب المارين بمصر أو الاسكندرية والشام أو لحجاج بيت المقدس وسيناء لبعض ليال نظير دفع نفس الأجر (٣) • وفى نهاية القرن السادس الهجرى كان أجر عامل الفندق درهمان فى اليوم ومتوسط أجره فى الشهر ديناران • هذا ولم يصل دخل الفندق الكبير فى العاصمة أيام الفاطميين الى أكثر من مائة دينار فى الشهر(٤) •

ولم تقتصر الفنادق على سكنى التجار الأوروبيين فحسب ، بل كانت هنالك فنادق لتجار الشام والمغرب ولتجار الكارم على طول طرقهم التجارى • فقد بنى الفاطميون فندقا للكارم فى الفسطاط فى عهد الخليفة الحافظ (٥) ، كما بنى الأيوبيون فندقا لهم فى القاهرة بناه

---

(١) محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ •

(٢) نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٢٥١ •

(٣) Ashtor : Histoire des prix, p. 224.

(٤) Aehtor : Op. cit., p. 88 .

(٥) Attiya : Crusade, p. 197.

ابن أخ صلاح الدين تقى الدين بن عمر أمير حماة (١) • وكان تجار الكارم يبنون الفنادق على حسابهم الخاص ولمصلحتهم ، فكان هناك فندق الكارمى فى عدن وزبيد وفى جدة وقوص وعيذاب والاسكندرية (٢) • وبنى التجار الكارمية المساجد بداخل هذه الفنادق وكانت تسمى بأسماء أصحابها ومؤسسيها (٣) • وكانت الفنادق مركز نشاط التجار الكارمية • ففيها كانوا يبيعون التوابل فى فنادق القاهرة والاسكندرية لتجار أوروبا (٤) •

ومن الفنادق القديمة التى وجدت بالفسطاط :

فندق حوى بن حوى الغورى : بعقبة التجارين (٥) •

فندق ابن حرمه : بأول سوق العداسين ، وكان أمراء مصر ينزلون فى المسجد الذى على بابه من زمن الفتح الى أيام يزيد بن معاوية (٦) •

فندق الدبابليين : كان موجودا فى عهد الفاطميين ثم تحول بعد ذلك العهد الى قيسارية عرفت باسم قيسارية الصنادقيين بجوار المدرسة السيوفية (٧) •

فندق الكارم : أنشأه الأمير تقى الدين بن عمر ابن أخ السلطان صلاح الدين المعروف بصاحب حماه ، وقد كان وقفا على تجار الكارم (٨) •

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٥ ، ٤٠ •

(٢) Attiya : Crusade, p. 197.

(٣) Fischel : The spice trade, p. 163.

(٤) Fischel: Op. Cit., p. 164.

(٥) كان حوى هذا من اهل وادى القرى ، توفى بمصر سنة ٢٠٠ هـ ، وله أولاد تولوا الولايات بمصر (ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٠) •

(٦) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٠ •

(٧) الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٣

(٨) ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٠ •

فندق أبى الثناء : ذكر ابن جبير أنه نزل فى هذا الفندق حين زار مصر سنة ٥٧٨ هـ ، وذكر انه كان يقع فى زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص (١) .

فندق ابن قريش : بنى هذا الفنـــدق ابراهيم بن عبد الرحمن بن قريش أحد كتاب الملك العادل أبى بكر بن أيوب المتوفى سنة ٦٤٣ هـ(٢) .

ولم يقتصر وجود الفنادق على القاهرة والفسطاط والمدن الكبرى والثغور الهامة بل كانت توجد أيضا فى المدن الصغيرة . فقد كانت هنالك فنادق فى محلة صرد والبجوم والكريون وهى مدن صغيرة فى داخل مصر (٣) . ويبدو أن عدد الفنادق كان كبيرا فى العصر الفاطمى وأنه كانت لكل جالية بالاسكندرية فندق خاص بها — وفقا لرواية الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى (٤) — أو أكثر من فندق كما يظهر من وعـــد الخليفة العاضد لأهل بيزا بترميم فنادقهم (٥) . وكانت الفنادق فى العهـــــد الأيوبى موزعة فى الاسكندرية كالآتى : فندقان للبنادقة وفندق لكل من الجنويين والبيازنة ، ولتجار انكونا ، وتجار بالرمو ونابلى ، وتجـــار كريت ، وتجار مرسيليا ، وتجار نربونة ، وتجار قطالونيا (٦) .

***

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٤٣
(٢) الخطط ، ج ٢ ، ص ٩١ .
(٣) — Fischel : The spice Trade, p. 163.
(٤) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، ص ٢٧١ .
(٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .
(٦) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

الوكالة :

تشبه الوكالة الفندق فى نظامها ، بل كان يطلق على الوكالة أحيانا اسم الفندق ، وكان الاختلاف الوحيد بينها وبين الفندق أن الوكالة كانت مقصورة على نزول التجار القادمين من بلاد الشرق الاسلامى(١) • وكانت تتم فى الوكالات عمليات البيع والشراء بالجملة وبالتجزئة وتوزيع ما يرد اليها على الأسواق • وكان تجار الشرق يتخذون الوكالة مسكنا لهم ، وقد أورد المقريزى أن الوكالات كانت تعلوها رباع تشتمل على بيوت كثيرة وسكان كثيرون (٢) • وكان تجار الشرق يحفظون أموالهم وودائعهم فى الوكالات ويتلقون رسائلهم على عناوينها اذ كانت تقوم بعمل مكتب البريد ، كما كانت تتم فيها الأعمال المصرفية (٣) •

ولم يكن اقامة الوكالات مقصورا على الحكومة بل كان الأفراد يقومون أيضا ببناء وكالات خاصة بهم ، وكان يشترط فيمن يبنى الوكالة أن يكون من كبار التجار ومحل ثقة الحكام • وكانت الوكالة تسمى باسم مؤسسها ، ففى القرن الخامس الهجرى نجد فى الفسطاط تاجرا مسلما يدعى أحمد بن الحرانى يقيم وكالة باسمه(٤) • وقد ذكر ابن ميسر أن الوزير المأمون البطائحى أمر سنة ٥١٦ هـ ببناء وكالة بالقاهرة لحسابه الخاص وسماها باسمه وجعلها لمن يصل الى مصر من تجار الشـــام والعراق ، وكان هذا الوزير تاجرا بالاضافة الى توليه منصب الوزارة(٥) • وكانت ملكية الوكالة تنتقل من صاحبها لابنه بعد وفاته(٦) • وكان

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٦ •

(٢) الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٢

(٣) Goitein : A Mediterranean Society, p. 346.

(٤) — Goitein : Op. Cit., p. 192.

(٥) Ibid., p., 345.

(٦) — Ibid., p., 348.

صاحب الوكالة والمشرف عليها يسمى وكيل التجار أو شيخ التجار أو شاهبندر التجار [١] • وكان لوكيل التجار مقر خاص بالوكالة . كما كان له سكنه الخاص وكان فى العادة على مقربة من الوكالة • ولعبت شخصية وكيل التجار دورا هاما فى تجارة الشرق فكان يشرف على التجارة فى داخل البلاد وفى خارجها . كما كان له نفوذ كبير على التجار • ويتضح ذلك فيما تردده وثائق الجنيزة عن دور هذه الشخصية الهامة فى تجارة الشرق وبما كان يتمتع به من نفوذ وما تحت يديه من أموال طائلة • وكان تاجر الشرق فى حاجة دائمة لحماية وكيل التجار بسبب كثرة تغيبه عن البلاد ، فكان فى حاجة لمن ينوب عنه فى غيبته ويصرف له أموره ، كذلك كان فى حاجة لمن يضمنه ويسهل له اجراءاته الجمركية واجراءات نقل البضاعة وتخزينها حين يصل من رحلته الى البلاد • وكان الوكيل يقوم أيضا بالأعمال المصرفية وتغير العملة ، كمـــا كان التجار يودعون طرفه أموالهم وودائعهم • وكانت لديه قوائم بأسماء كبار التجار وقوائم بأسعار التوابل والسلع المختلفة فى الأســواق • وهكذا أصبح بيت وكيل التجار بمثابة بورصة عقود (٢) •

وكان يتم اختيار وكيل التجار باجتماع موافقة التجار عليه ، وكان أى تاجر ناجح يستطيع أن يصل الى هــذا المنصب وأن يبنى له وكالة خاصة به وأن يورثها هى ومنصب الوكيل لابنه من بعده ان كان صالحا لهذا العمل ومتقبلا له • وكانت السلطات الحاكمة بعد تمام عملية اختيار الوكيل تعترف به رسميا وتتعامل معه نيابة عن التجار (٣) • ومن الطبيعى أن يكون وكيل التجار شخصية متفقهة فى الدين ، اذ كان أحيانا يقوم

---

(١) وهى تسمية فارسية تقابلها فى العبرية « بكيدها سوهاريم » أو الناجد الامير Goitein : Op. Cit., p. 345.

(٢) Goitein : Op. Cit., p. 188.

(٣) Ibid., p. 189. —

بدور القاضى ويفصل فى المنازعات بين التجار ويحسم المشاكل التجارية بينهم • وكان معظم وكلاء التجار المسلمون الذين وردت أسماؤهم فى وثائق الجنيزة قضاة أو نوابا للقضاة • ويقول ابن ميسر انه كان من حق قاضى قضاة المسلمين فى مصر أن يفتح دار وكالة لحسابه الخاص(١)• وكان وكيل التجار فى المدن الساحلية يشغل وظيفة ناظر وجابى المكوس، وهناك دلائل على أن الحكومة استفادت من هذه الوظيفة فوكلت الى وكيل التجار مهمة رعاية الأجانب ، أى أنه كان بمثابة فندقى ، الأمر الذى يدل على أن الوكالة كانت تقوم بنفس دور الفندق • وكان لوكيل التجار نسبة محددة يتقاضاها من التجار عن البضاعة التى تخزن فى وكالته ، وكانت هذه النسبة تختلف تبعا لنوع الخدمات التى يؤديها • وهنالك وثيقة من الجنيزة تشير الى أن أحد وكلاء التجار أتم صفقتين من الكتان فى وقت واحد وأخذ نسبة ٣٪ على ذلك من ثمن البضاعة (٢) •

هذا وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية وكتب الخطط تصمت عن ذكر الوكالات وتحديد أماكنها الا أن وثائق الجنيزة تشير الى أن الوكالات كانت منتشرة فى مدن القاهرة والفسطاط والاسكندرية ودمياط وكذلك فى المدن الصغيرة مثل مدينة زفتى (٣) •

المتجــر :

وبالاضافة للمنشآت التجارية التى سبق ذكرها أنشأ الفاطميون المتجر وهو مكان لخزن بعض السلع التى كانت تشتريها الحكومة ثم تبيعها ، وكانت تربح من الفرق بين ثمن الشراء والبيع (٤) ، وكان الاصل

---

(١) — Goitein : Studies in Islamic History, p. 347.
(٢) — Goitein : A Mediterranean Society, p. 191.
(٣) — Ibid., pp. 189-190.
(٤) ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٧ •

فى المتجر خزن الغلال ، ولكن الوزير اليازورى أشار بانشاء متجــر لخزن الخشب والحديد والصابون والرصاص والعسل لبيع هذه السلع واستمر الحال على ذلك حتى نهاية عهد الفاطميين (١) .

وكانت الحكومة الفاطمية تمتلك عددا كبيرا من الحوانيت والخانات والمخازن والقياسر فى الفسطاط والقاهرة وغيرها من المدن الكبرى (٢) .

حاصلات تجارة الشرق الى أسواق مصر

حرص التجار فى أسواق مصر على جلب حاصلات تجارة الشرق الى هذه الأسواق لما تدره هذه الحاصلات من أرباح وغيره بسبب كثرة الطالبين والراغبين لها سواء أكانوا من أهل البلاد أو من الأجانب .. ويفسر ابن خلدون سر اقبال التجار على حاصلات تجارة الشرق بقوله : « ان نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو فى شدة الخطر فى الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الضرر فى طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها واذا قلت وعزت غلت أثمانها » (٣) .

وقد عمرت أسواق مصر بحاصلات تجارة الشرق التى كانت ترد اليها من بلاد الشرق المختلفة ، فكان يرد اليها من الهند التوابل وخاصة الفلفل والعطور والبخور ومن هذه الحاصلات كان يستهلك جزء فى مصر محليا والباقى يباع للتجار الأجانب الذين كانوا يتسابقون الى شراء هذه الحاصلات من أسواق مصر (٤) . كذلك كانت الهند تصدر الى مصر

---

(١) راشد البراوى ، نفس المرجع والصفحة .
(٢) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، ص ٣٤٩ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣٤٠ .
(٤) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، ص ٢٥٥ .

الياقوت والصندل والعود وخشب الأبنوس وجوز الهند (١) ، فضلا عن الكافور والزعفران والقرنفل والقرفة (الدارصينى) والعاج وأنواع العقاقير وبعض الأحجار الكريمة من جزيرة سرنديت (٢) •

ومن الصين كانت مصر تستورد البهار والراوند والحرير الخام والمنسوجات الحريرية الغالية الثمن (٣) ، وهـذا بالاضـافة الى الخزف الصينى ، الصندل ، الورق (الكاغد) ، الحبر (المـداد) . السروج ، اللباد ، القرفة ، الزنجبيل ، الذهب والفضة ، السجاد ، الطرز ، (الوشى والحرير المشجر) ، الحلى والمقابض العاجية • كذلك كانت الصين تصدر الى أسواق مصر العقاقير والديباج والجوارى والخصيان (٤) •

ومن التبت كان يرد المسك الى أسواق مصر • ويقول اليعقوبى أن مسك التبت هو أحسن وأغلى أنواع المسك فى العالم ، ويليه فى المرتبة مسك الصين الوارد من خانفو أهم موانى الصين (٥) •

وكانت أسواق مصر تستورد من جزيرة سومطرة اللبان الجاوى (٦) ومن جزيرة سوقطرى أجود أنواع العود (٧) ، ومن ساحل ملبار البهار وخاصة الفلفل (٨) •

ومن الجزيرة العربية كان يرد اليها : الخيول العربية ، والجمال ، وخشب القسى (٩) ، والجلود المدبوغة والبيلسان (١٠) • ومن اليمن :

---

(١) — Lopez : Op. Cit., p. 28.

(٢) أوتوسبيز : وصف مملكة الهند والسند من كتاب مسالك الابصار للعمرى ليبزج ١٩٤٣ ، ص ٣ ، ٤ •

(٣) الخاصكى : اخبار الصين والهند ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢٢٨١ ورقة ٢٨ ب •

(٤) Lopez : Op. Cit., p. 28.

(٥) البلدان ، نشر فييت ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٢٣٤ •

(٦) — Heyd : Histoire de Commerce II, p. 580.

(٧) — Heyd : Op. Cit., p. 561.

(٨) -- Ibid., II, p. 659.

(٩) يتخذ من القانة وجمعها القان وهو شجر جبلى ينبت بجزيرة العرب ويتخذ منه القسى (الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٢١)

(١٠) — Heyd : Op. Cit., II, p. 575.

البز ، والجلد المدبوغ ، والدروع ، والعقاقير ، والقات ، والكركم (١) ، كذلك اللبان والسيوف (٢) •

ومن شحر عمان كانت أسواق مصر تستقبل أجود أنواع العنبر (٣)، كذلك أجود أنواع اللبان والبخور والمصطكى (المستكة) (٤) •

ولم تكن كل هذه الحاصلات الشرقية تستهلك فى أسواق مصر محليا فحسب بل كان الكثير منها يحتفظ به التجار المصريون لديهم لحين ورود سفن التجار الفرنج وتجار الروم ويبيعونه لهم بأسعار عالية ، وبذلك كان تجار مصر يقومون بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب (٥) • وفى وثائق الجنيزة يتردد صدى اقبال تجار الغرب على سلع الشرق فى القرنين الخامس والسادس الهجريين • ففى خطاب أرسل من الاسكندرية الى الفسطاط فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجـــرى نقرأ ما يلى : « أرجو أن تضع فى ذهنك انه ليست هناك كميات كافية من الفلفل والكمون والزنجبيل فى الاسكندرية فاذا كان لديك أية كمية من هذه السلع احتفظ بها للروم الذين سيغادرون الفسطاط الى الاسكندرية بعد مقدم سفن القسطنطينية الى مياهها (٦) » • وفى خطاب آخر أرسل من نفس المدينة قبيل هذه الرسالة السابقة كتب تاجر الى وكيل أعماله فى الفسطاط يطلب منه بأن يحتفظ بما عنده من التمر حتى وصول الروم

---

(١) — Lopez : Op. Cit., I, p. 28 .

(٢) الثعالبى : لطائف المعارف ، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٦٦ •

(٣) Reinaud : Relation des. Voyage T. II, p. 138.

(٤) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجاره : القاهرة ١٣١٨ هـ ، ص ٢٢ •

(٥) كان الأوربيون فى ذلك الوقت يقدرون الثراء لأى أسرة من الاسر فى بلادهم بمقدار كميات البهار التى تتوافر عندهم • وقد زاد سحر البهار فى فرنسا حتى أصبح مهر العروس فيها فى العصور الوسطى عددا من حبات الفلفل •

--Ashtor, Histoire des prix, P. 28).

(٦) — Goitein : A Mediterranean Society, p. 44.

الى الفسطاط من دمياط لأنهم سوف يتوجهون من دمياط الى الاسكندرية لشراء كمية كبيرة من التمر وفقا للأوامر المعطاة لهم (١) • كما تخبرنا وثائق الجنيزة أن البخور والعود نفدا من أسواق الفسطاط سنة ٤٣٧ هـ/ ١٠٣٥ م « لأن الروم لم يتركوا عودا منها الا وأخذوه قبل أن يغادروا البلاد » (٢) وكان البيع للاوربيين حلم كل تاجر فى أسواق مصر لمـــا كان يستتبع ذلك من أرباح طائلة لهم • وفى خطاب من خطابات الجنيزة يرجع تاريخه الى سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م يذكر فيه صاحبه التاجر أنه عقد صفقة تجارية هائلة وباع بضاعة لتجار الروم فى أحد الموانى وحقق من وراء ذلك ربحا قدره ١٥٠٪ (٣) •

هذا ولم يقتصر شراء التجار الأوروبيين من أسواق مصر على سلع الشرق فحسب ، بل كانوا يشترون سلع ومصنوعات مصر أيضا • فقد أشتهرت مدن مصر وخاصة تنيس ودمياط بصنع أنواع جميلة من المنسوجات وخاصة الدبيقى والشرب والحلل التى كانت لها سمعة عالمية وكان التجار الأوربيون يحرصون على شرائها (٤) • كذلك كان التجار الأوربيون يشترون من أسواق مصر الأثواب المصنوعة من القصب والتى كان يصل ثمن الثوب منها الى أكثر من مائتى دينار ذهب (٥) • هـــذا بالاضافة الى ستور وبسط البهنسا وأصواف مدينة القيس (٦) وورق البردى ومختلف أنواع المنسوجات التى كان يقبل على شرائها التجار

(١) — Goitein: Op. Cit., p. 44.
(٢) — Ibid., p. 45.
(٣) — Ibid., p. 45.
(٤) ابن حوقل : المسالك والممالك : ص ١٠١ •
(٥) ابن زولاق : فضائل مصر ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ١٨١٦ ، ورقة ٣٥ أ •
(٦) ابن اياس : نشق الازهار فى عجايب الاقطار ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢٢٠٧ ، ورقة ٦٦ أ •

الأوربيون فى أسواق مصر ؛ وقد أدرك ذلك الرحالة آركولف حين زار مصر فى القرن السادس الهجرى وسجله فى مذكراته (١) .

ولم تكن سفن التجار الأوربيين تصل الى موانى مصر خالية ولكنها كانت تحمل معها منتجات أوروبا التى يشتريها تجار مصر ويطرحوها فى أسواقها ؛ لذلك لم تقتصر أسواق مصر على سلع الشرق فحسب بل كانت بها سلع أوروبا أيضا . وقد أشتهرت بعض هذه الأســواق بأنواع معينة من السلع الأوربية ؛ وكان الجبن أكثر ما تطرحه السفن الأوربية فى أسواق مصر من البضائع (٢) كذلك كانت بيزنطة تصدر الى أسواق مصر المنسوجات والملابس الحريرية وخاصة ملابس النساء (٣) . ففى قوائم العرائس التى وجدت فى الجنيزة كان لا بد لكل عروسة من منديل رومى فى جهازها ؛ وكان هذا الأمر شائعا فى الفسطاط من منتصف القرن الخامس الهجرى حتى منتصف القرن السادس ؛ كما كان نفس الامر شائعا فى ســورية . وكانت الفتيات الموسرات يحملن معهن فى جهازهن غطاء سرير رومى (مفرش) يساوى سعره فى المتوسط عشرة دنانير وكذلك مخدة رومية (٤) . وكان الخشب أهم السلع التى كانت تحتاجها أسواق مصر من أوروبا ؛ وبرغم قلة وروده — وخاصة بعد قيام الحروب الصليبية — فاننا نجد فى قوائم بعض أجهــزة عرائس الفسطاط التى عثر عليها فى الجنيزة مقاعد رومية ودواليب وأسرة رومية، وكان نقل مثل هذه الاشياء فى البحر وقتذاك باهظ التكاليف (٥) . كذلك

---

(١) — Wiet : L'Egypte Arabe, T. IV, p. 174.

(٢) كانت مصر تستورد من الجبن كميات كبيرة من بلاد اوروبا . ولدينا تقرير من الجنيزة يفيد ورود الجبن الى أسواق مصر من صقلية سنة ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١ م ومن مسينا سنة ٦٦٢ هـ/١٢٦٣ م ؛ وكانت كريت أيضا مصدرا هاما لتوريد الجبن الى مصر وعموم بلاد الروم .

— (Goitein : A Mediterranean Society, p. 46).

(٣) — Lopez : The role of trade in the seventh century, Washington 1959, p. 76.

(٤) — Goitein : Op. Cit., p. 46.

(٥) — Ibdi., p. 46.

نجد فى بداية القرن السادس الهجرى تجارا من أمالفى وجنوه يرسلون الأخشاب الى مصر برغم الحظر المفروض عليهم . وفى نهاية هذا القرن نسمع عن سفينتين من البندقية تحملان خشبا الى الاسكندرية (١) .

وفى العصور الوسطى كان المرجان يصدر من أوروبا الى أسواق مصر وبلاد المحيط الهندى ، وقد تحدثت وثائق الجنيزة كثيرا عن هذه السلعة فى أسواق مصر . فالمرجان كان يجمع من تونس ومن بعض شواطىء بلاد أوروبا التى تطل على البحر المتوسط ، ثم يرسل الى مصر ليصدر منها الى بلاد الشرق المختلفة . وقد وردت فى احدى رسائل الجنيزة شكوى لتاجر من الاسكندرية بسبب تأخر وصول المرجان من بلاد الروم أو الغرب الى مصر (٢) .

ومن جزيرة كريت كان يصدر الى أسواق مصر نبات الزعتر الذى كان يستخدم فى صنع العقاقير الطبية ، ومن مصر كان يصدر الى بلاد الهند (٣) . كذلك كانت النيلة (الصبغة) تصل الى أسواق مصر من بلاد المغرب (٤) . وكان يصل اليها أيضا من أوروبا الحديد والنحاس والزيت والشمع والفراء والأجواخ والمصنوعات الحديدية والفضية والبلورية ، وكان جزء كبير من هذه الواردات يصدر بالتالى من مصر الى الحبشة والهند (٥) .

وكانت الحكومة المصرية تتاجر لحسابها الخاص فى أنواع معينة من السلع ، كما قامت ببيع كميات هائلة من المحصولات المختلفة للتجار المصريين والأجانب عن طريق وكلائها وخاصة محصول الكتان غلة الاقتصاد الرئيسية فى مصر فى العصور الوسطى . وكان على التجار

(١) — Ibdi., p. 46.
(٢) — Ibid., p. 47.
(٣) — Ibid., p. 47.
(٤) Heyd : Histoire du Commerce II, p. 618.
(٥) حسن عثمان : البحر الاحمر كطريق تجارى ، ص ٧١ .

قبـل أن يتوافدوا على مركز بيع الكتان الحكومى أن يقدموا النقـود المطلوبة للديوان (الذى يتبع له المركز) ثم يقـوم الديوان الرئيسى للحكومة فى القاهرة بتحديد السعر النهائى للبيع • وتظهر لنا وثائق الجنيزة أن الحكومة كانت فى بعض الأحيان هى القوةالوحيدة القادرة على شراء سلعة معينة من السـلع • فحين وصل قنطـار الفلفل فى الاسكندرية الى أربعين دينار نقرأ فى وثائق الجنيزة العبارة التالية : « بمثل هذا السعر لا يستطيع التاجر الا أن يبيع للحكومة » وفى أغسطس سنة ١١٤٠ م (٥٣٥ هـ) نقرأ خطابا من الاسكندرية وردفيه أن « كل الحرير الذى وصل البلاد اشترته الحكومة عدا كميات قليلة من نوع ردىء »[1] •

وكان المتجر يشترى لحسابه جميع الخشب والحديد والرصاص والمعادن التى ترد الى الديار المصرية ، وكان يقوم بدوره ببيعه للتجار مقابل كسب يسير • وعند حاجة الدولة لهذه المواد لبناء المراكب مثلا أو لعمارات الحصون وخزائن السلاح كانت تشتريها من نفس التجـار الذين باعتهم اياها بأسعار عالية تصل أحيانا الى أضعاف الثمن ويكسب التجار بذلك أموالا طائلة من ديوان الثغور[2] •

---

(١) Goitein : Op. Cit., pp. 267-268.

(٢) النابلسى : لمع القوانين المضية ، نشر كلود كاهن ، دمشق ١٩٦١ ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

أسعار حاصلات تجارة الشرق فى أسواق مصر

كان طبيعيا أن يرتفع ثمن السلعة الشرقية عند وصولها الى أسواق مصر نتيجة لتكاليف انتاجها ومصاريف الوصول اليها وحملها الى مصر والرسوم المفروضة عليها فى اليمن وتعدد الوسطاء الذين تمر عليهم • كذلك تأثر ثمنها تأثيرا كبيرا بالضرائب التى تفرض عليها أثناء مرورها بمصر باعتبارها فى ذلك الوقت من أهم مصادر الايراد الحكومى • وليس غريبا بعد ذلك أن يرتفع ثمن السلعة الشرقية الى ثلاثة أو أربعة أمثال ثمنها الأصلى فى بلادها (١) •

وقد خضعت أسعار تجارة الشرق فى أسواق مصر فى العصور الوسطى لقانون العرض والطلب . فنجدها فى بعض الأحيان ترتفع أرتفاعا جنونيا وفى بعض الأحيان الأخرى تنخفض انخفاضا شديدا ؛ وقد ألقت وثائق الجنيزة الضوء على أسعار هذه الحاصلات وأعطتنا أرقاما وبيانات تبين هذا التقلب المستمر فيها ، وهى بيانات لم نجدها فى المصادر التاريخية الأخرى •

وكان تجار الغرب هم الذين يحددون فى الواقع أسعار سلع الشرق فى أسواق مصر وهم الذين يتسببون فى ارتفاعها ، وكان رواج أسواق مصر يعتمد على مجيئهم للشراء منها ، ويذكر خطاب صادر من الفسطاط الى عدن سنة ٥٢٨ هـ (٩ يناير ١١٣٣ م) نص العبارة الآتية : « توقفت الأعمال هذا العام فى الأسواق لعدم قدوم أى من تجار الغرب ، وقد وصل فقط عدد قليل من الروم »(٢) • وفى سنة ٤٩٧ هـ/١١٠٣ م ورد خطاب آخر من الفسطاط الى عدن يحمل نفس الملاحظة ويقول فيه كاتبه:

« قام الخليفة (الآمر) بحبس الجنويين هذا العام الأمر الذى

---

(١) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص ٣٥ .

(٢) Goitein: Op. Cit., p. 45.

أفاق الروم ولذا لم تباع بسبب ذلك أية بضائع ويبدو أن هذا الحال سوف يستمر طويلا وسوف تتعطل بذلك جميع أشغال الناس(١) •

وفى حديثنا عن أسعار سلع الشرق فى أسواق مصر نبدأ بالفلفل لأنه كان أهم هذه السلع فى العصور الوسطى وكان أغلاها ثمنا ، وكان يباع فى أسواق مصر فى بعض الأحيان بسعر يساوى خمسة أضعاف سعره فى بلاده بسبب اقبال تجار الغرب على شرائه اقبالا زائدا(٢) • وكانت الوحدة المتبعة فى وزن الفلفل فى تجارة البحر الأحمر تعرف بالحمل أو العدل أو البالة ، وهى تسميات مختلفة لوزن واحد مقداره خمسة قناطير • وقد تراوح سعر قنطار الفلفل فى المتوسط ما بين ١٠ ، ٢٥ دينارا ، أى أن سعر الحمل يتراوح ما بين ٥٠ ، ١٢٥ دينارا خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين • وفى خطابات من الجنيزة ترجع الى منتصف القرن الخامس الهجرى نقرأ أن حمل الفلفل تراوح سعره ما بين ٥٥ ، ٨٠ دينارا • وفى وثيقة من القرن السادس نجد سعر الحمل يتراوح ما بين ٥٥ ، ٧٠ دينارا (٣) • ولدينا وثيقة ترجع الى حوالى سنة ٤٤٣ هـ/١٠٥٠ م تفيد أن كمية من الفلفل وزنها ٤٨٠ رطلا بيعت فى أسواق الفسطاط بمبلغ ٨٥ دينارا ، بزيادة قدرها خمسة دنانير عن سعرها المعتاد فى ذلك الوقت(٤) • ويتضح لنا من وثيقة أخرى ترجع الى سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م انخفاض سعر الفلفل فذكرت أن كمية منه وزنها ٥٠٥ رطل بيعت بثمانين دينارا • وفى خطاب آخر يرجع تاريخه الى سنة ٥٠٤ هـ/١١١٠م ، يتضح انخفاض سعر الفلفل ، اذ يشير التاجر كاتب الخطاب أنه أشترى بالتين من الفلفل تزن الاولى ٣٧٥ رطلا وتزن

---

(١) حدث ذلك بسبب هجوم الصليبيين على بعض بلاد الشام واشتراك سفن الجنويين فى هذا الهجوم (Goitein : Op. Cit., p. 45.

(٢) Clerget : Le Caire II, p. 332.

(٣) Ashtor Histoire des prix et des salaires dans l'Orient Médieval , Paris 1959, p. 139.

(٤) Goitein : A Mediterranean Society, p. 220.

الثانية ٣٧٨ رطلا بسعر ١/٤ ٨٣ دينارا للبالتين دون تكاليف الشحن والتفريغ • ومن هذه الوثائق يتضح لنا أن متوسط سعر السوق لحمل الفلفل الواحد خلال القرن الخامس الهجرى كان حوالى ثمانين دينارا •

وهنالك وثائق تشير الى ارتفاع سعر الفلفل ارتفاعا شديدا فى منتصف القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن السادس الهجرى • ففى احدى هذه الوثائق نجد قنطار الفلفل يباع سنة ٣٤٨ هـ/٩٥٩ م بمبلغ ٣٣ دينارا وذلك لحاجة الروم اليه[١] • وكتب تاجر آخر أن سعر القنطار من الفلفل بلغ فى نفس العام ٣٦ دينارا ، « وأن السعر الذى اشترى به الروم اليوم ٣٨ دينارا للقنطار الواحد وذلك لحاجتهم اليه »[٢] • وقد باع تاجر من الاسكندرية بالة فلفل بمبلغ ١٤٥ دينارا وشمل ذلك المبلغ تكاليف الشحن ، واذا اعتبرنا أن مصاريف الشحن بلغت ٢٠ دينارا فيكون صافى ثمن البالة ١٢٥ دينارا •

ولم تكن هنالك ضوابط لسعر الفلفل فنرى السعر يرتفع ارتفاعا كبيرا وينخفض انخفاضا مفاجئا فى وقت متقارب • يدل على ذلك خطابان من الجنيزة أحدهما أرسله التاجر « نحرى بن نسيم » من الاسكندرية الى وكيل أعماله بالفسطاط يأمره فيه بأن يعطى مبلغ مائتى دينار لتاجر قريبه ثمنا لبالة واحدة من الفلفل لا غير ، بينما يرسل نفس التاجر فى خطاب آخر فى نفس العام مبلغ مائة دينار لوكيل أعماله بالفسطاط ليشترى بها بالة فلفل ولا شىء غير ذلك[٣] •

والأمر الذى لا شك فيه أن ارتفاع سعر الفلفل فى أسواق مصر يرجع الى عاملين رئيسيين : أولهما : قلة الكمية المجلوبة منه الى أسواق

---

(١) Clerget : Le Caire II, p. 332.

(٢) Goitein : A Mediterranean Society, p. 44. —

(٣) عاش نحرى بن نسيم العالم التاجر اليهودى فى الفترة ما بين سنة ٤٤٢ — ٤٩٢ هـ/١٠٥٠ — ١٠٩٨ م (Goitein : Op. Cit., p. 221). —

مصر ، وثانيهما مدى حاجة تجار الغرب الى هذه السلعة الهامة • وفى خطاب يرجع الى أيام الحروب الصليبية نقرأ أن سعر قنطار الفلفل ارتفع الى ٢٥ دينارا وذلك لقلة الكمية المجلوبة منه بسبب هـذه الحروب(١) • ووصل كذلك سعر القنطار من الفلفل فى أحد السنين الى أعلى سعر له ، وهو ٣٨ دينارا وذلك لحاجة الروم اليه(٢) • وتذكر وثيقة أخرى من وثائق الجنيزة سعرا عاليا جدا لقنطار الفلفل فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى وهو ١٠٥ دينـــار ، ويبدو أن ذلك السعر كان للفلفل الأبيض الذى كان يزيد سعره بأكثر من ضعف سعر الفلفل الاسود(٣) • ولذلك كان المحتسب يراقب دائما بائعى التوابل فى الأسواق خشية الخلط بين هذين النوعين من الفلفل (٤) •

الدارصينى (القرفة) :

وكان سعرها يصل الى سعر الفلفل أو يرتفع عنه قليلا ، وكانت التجارة فى هذه السلعة مربحة • ونقرأ فى خطـــاب كتب من الاسكندرية فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى أن القنطار منه كان يساوى ½ ١٢ دينارا • وفى دفتر حسابات أحد التجار نقرأ أنه يبيع الرطل من القرفة فى السوق بمبلغ ½ ٥ درهم(٥) •

الزنجبيـــل :

وكان يساوى نفس سعر الفلفل وبيع الرطل منه فى أسواق مصر بخمسة دراهم ، وبيع مرة أخرى بسعر ٦ر٦٠ درهم(٦) •

(١) — Ashtor: Matériaux pour l'histoire des prix dans l'Egypte médievale (JESHO, V. VI, 1963, p. 161).
(٢) Goitein: Op. Cit., p. 44.
(٣) Ashtor: Op. Cit., p. 161.
(٤) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١ •
(٥) — Ashtor: Histoire des prix, p. 139.
(٦) Ashtor: Op. Cit., p. 139.

البخــور :

وجدنا سعره فى دفتر بقال احتفظت به الجنيزة أن الرطل منه بيع بمبلغ ٢٨ر٥ درهم(١) ؛ وفى خطابات أخرى وجدنا سعر المن منه يساوى ٣ ، ٤ ، ٧ دينار(٢) •

الكركم الهندى :

وكان يستخدم فى صناعة الأدوية ، وبيع الرطل منه بمبلغ ١/٨ ٢ درهم ، وبيع القنطار منه أيضا بمبلغ خمسة وستة دنانير • أما النوع الوارد من كابل فبيع الرطل منه بسعر ٧ دراهم(٣) •

الزعفــران :

بيع المن منه بمبلغ خمسة دنانير(٤) •

الكافــور :

وكان سعره فى أسواق مصر مرتفعا ، وبيع فيها المن بسعر ثمانية دنانير(٥) •

النيــلة :

وكانت تستخدم فى الصباغة ، ووصل سعر القنطار فى أسواق مصر فى القرن الخامس والسادس والسابع ما بين ١٢ ، ١٨ دينــارا للقنطار الواحد(٦) •

---

(١) Ibid., p. 141.

(٢) المن وزن مستخدم فى العصور الوسطى وكانت قيمته تساوى ٨١٢ر٥ جرام (Ashtor: Op. Cit., p. 179).

(٣) — Ibid, p. 140.

(٤) Ibid., p. 160.

(٥) Ibid., p. 140.

(٦) — Ibid., p. 145.

خشب الصندل :

تراوح سعر المن منه الى ما بين ٣٠ و٤٠ دينارا(١) •

اللبـــان :

بيع القنطار منه مرة بسعر ١١٫٣ دينارا ، ومرة أخرى بسعر ١٦ دينارا ، ومرة ثالثة بسعر ٢٠ دينارا • ووصل أغلى سعر له الى ٣٣ دينارا ، وورد هذا السعر الأخير فى خطاب من الجنيزة يرجع الى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى • وفى الربع الأخير من القرن السادس الهجرى انحط سعر القنطار منه ووصل الى ثمانية دنانير • وبلغ سعر الحمل منه ٢٨ دينارا ثم ارتفع الى ٣٥ دينارا ثم ارتفع ارتفاعا شديدا فى فترات متقاربة فأصبح سعر الحمل منه ٥١ ثم ٦٠ ثم ٧٠ واستقر عند ٨٠ دينارا • وفى خطاب يرجع الى النصف الثانى من القرن السادس نجد الحمل يساوى ٥٠ دينارا ثم يهبط فى تاريخ مقارب الى ٤٥ والى ٤٠ دينارا ، وفى نهاية القرن السادس الهجرى استقر سعر الحمل على ٤٠ دينارا(٢) •

الشـــمع :

ذكر المقريزى بأن سعره بلغ فى عهد الخليفة العزيز الفاطمى ١ ½ دينار لكل عشرة أرطال • وفى خطاب من الجنيزة (فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى) نجد أن سعر قنطار الشمع يساوى ٢٠ دينارا • وفى كشف حساب تاجر يرجع الى سنة ٥٤٥ هـ/١١٥٠ م نجد فيه أن سعر قنطار الشمع يتراوح ما بين ١٧—١٩ دينارا • كذلك وجدنا فى حساب بقال عاش فى نفس السنة انه كان يبيع الخمسة أرطال من الشمع بسعر يتراوح ما بين دينار ودينار ونصف(٣) •

(١) — Ibid., p. 164.
(٢) — Ashtor : Histoire des prix, p. 141.
(٣) — Ibid., p. 174.

المسك :

فى خطاب من الجنيزة يرجع الى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى نجد أن سعر زجاجة المسك يصل الى ٣ره دنانير(١) ٠

الحرير :

ورد فى وثائق الجنيزة ذكر اثنى عشرة نوعا من الحرير ، مختلفة فى النوع والخامة والصناعة ٠ وكان هذا الحرير يرد الى أسواق مصر من الهند والصين بالاضافة الى حرير المغرب الوارد من صقلية والأندلس ، الأمر الذى يجعل تحديد أسعاره أمرا صعبا ٠ وكانت للحرير مكانته ووزنه فى اقتصاد العصور الوسطى ، فكان يساوى الذهب فى قيمته وكان تجار الغرب يدفعون لتجار الشرق ثمن السلعة حريرا بدلا من الذهب ٠ ووجدنا سعر رطل الحرير فى الثلاثينات من القرن الخامس الهجرى يساوى دينارين ، كما وجدنا نفس السعر فى الفترة ما بين الثلاثينات والخمسينات من القرن السادس الهجرى ٠ وكانت أهم أسواق الحرير بمدينة الاسكندرية ، وفيها وجدنا سعر العشرة أرطال تغيرت فى فترة قدرها نصف قرن (ما بين ٤٥٢—٤٩٤ هـ/١٠٦٠—١١٠٠م) ما بين ٢١ ، ٣٣ دينارا ٠ فكانت فى سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠ م تساوى ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ دينارا ٠ وفى سنة ٤٩٥ هـ/١١٠١ م نجدها ٢٢ ، ٣٠ دينارا ٠ وفى سنة ٤٣٢ هـ/١٠٤٠ م ٢٥ دينارا ٠ وفى حوالى سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥م نجدها تساوى ٣٣ دينارا ٠ وفى سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م وصل سعر العشرة أرطال من الحرير الى ٣٥ دينارا وشكى التاجر كاتب الخطاب أن هذا سعر مرتفع وتأسف لصاحبه من هذه الزيادة ٠ وفى السنة التالية ٥٤١ هـ/١٠٤٦ م وردت الى أسواق مصر كمية حرير من الاسكندرية مقدارها ١/٢ ١١ رطل بيعت بسعر قدره ٣/٤ ١٦ دينار لاغير ، أى بما قيمته دينار ونصف تقريبا للرطل الواحد ٠ كذلك لم تبع

---

(1) — Ibid., p. 164.

كمية أخرى من الحرير الطبيعي وزنها ١٩ رطلا بأكثر من ٢٤ دينارا وفي الفترة ما بين ٤٤٢ — ٥٤٥ هـ/١١٤٧ — ١١٥٠ م ثبت سعر رطل الحرير الواحد على دينار واحد فقط وورد ذلك في تقرير جلسة محاكمة تمت في الفسطاط سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٨ م ؛ وورد على لسان التاجر المتهم أنه باع كمية قدرها ١٥ رطلا من الحرير بخمس عشرة دينارا (١) • وكان سعر رطل الحرير المغربي في أسواق مصر يساوي دينار ونصف والحرير الصقلي في منتصف القرن الخامس الهجري حوالي دينارين ونصف • ويظهر لنا على وجه العموم ومن واقع أسعار الحرير في أسواق مصر أن الربح في هذه السلعة كان أقل من ربح الفلفل ويرجع ذلك الى قلة الكميات المصدرة منه وخفة وزنه وكثرة عدد المشتغلين بتجارته(٢) •

الكتان :

ظهر لنا من خلال الرسائل المتبادلة بين التجار والتي احتفظت بها الجنيزة أنه لم يكن هناك مثيل للكتان الخام المصري في العالم ، وكانت أكبر دولة استيرادا له تونس وصقلية وبعض بلاد الشرق الأقصى • واذا كان الحرير يوزن بالأرطال والأوقيات فقد كان الكتان يوزن بالقناطير والبالات ، وقد تراوح وزن البالة منه ما بين ٥ر٣ قنطار وستة قناطير • وتظهر لنا هذه الكميات الكبيرة أن المتخصصين في تجارة الكتان كانوا قلة من التجار الأغنياء وأن هنالك من تخصص منهم في تجارة هذا الصنف فقط دون بقية الأصناف • وقد تدوول في أسواق مصر ٢٢ نوعا من الكتان ، وكان أهمها النوع الفيومي • وكان سعر الكتان يختلف بين ثلاثة أماكن أولها مركز زراعته في مصر ، وثانيها أسواقه في الفسطاط والاسكندرية ، وثالثها في الأماكن المصدر لها مثل تونس وصقلية وبلاد الشرق الأقصى • وقد وردت أسعار كثيرة للكتان في وثائق الجنيزة ، وكان متوسط سعر القنطار منه ربع دينار ، وبيعت أكثر البالات منه

(١) — Goitein: Op. Cit., pp. 222-223.
(٢) — Ibid., p. 224.

بمبلغ ½ ١١ دينارا وأقلها بمبلغ أربعة دنانير ونصف . وفى نهاية القرن الرابع الهجرى وبداية الخامس ارتفع سعر الكتان وبيع القنطار منه بسعر أربعة دنانير ونصف(١) .

الملبوســات :(٢)

ترجع الأسعار التالية الى الفترة ما بين ٤٧٧ — ٤٧٩ هـ/١٠٨٤ — ١٠٨٦ م ، وهى كالآتى :

ثوب حرير ديبقى	يساوى	٣ دنانير(٣)
جبة من الحرير الأزرق	تساوى	٢٠ دينـــارا
طيلســان أبيض	يساوى	دينار واحد
شـــــال	يساوى	دينار ونصف
رداء (للمنزل)	يساوى	دينـــــارين
ثوب حرير حريمى	يساوى	من ١٣ — ٢٠ دينارا

(١) — Goitein : Op. Cit., p. 226.

(٢) وجدت اسعار الملبوسات فى قوائم زواج محفوظة بالجنيزة ، ويقدر عدد القوائم بخمسة وعشرين قائمة لم تنشر حتى الان يوجد ٢٢ منها فى مجموعة بودلين باكسفورد ومجموعة جاستر بالمتحف البريطانى اما الثلاثة الباقية نتوجد فى مجموعة الاليانس الاسرائيلية فى باريس . ومعظم هذه الوثائق بها خروق وبعضها مفقود وتواريخها غير واضحة . واقدم هذه القوائم تلك القائمة الخاصة بعقد زواج يوسف بن سليمان من ملاح ابنة يوسف ، وترجع الى سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م . وهنالك وثيقة اخرى ترجع الى سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م ، كذلك هنالك عقد زواج لابى منصور سماح بن نعت من ست الخشا ابنة ابى البركات اللبيدى المتهم سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م . وهنالك عقد زواج ابى الماجد بن ابى الحسن من حياة بنت داود المكتوب فى ســـــنة ٥٥٧ هـ اغسطس ١١٨١ م) . وهنالك ١٤ عقد زواج يرجع تواريخها الى الفترة ما بين ٤٧٧ — ٤٧٩ هـ/١٠٨٤ — ١٠٨٦ م .
— (Ashtor : Histoire des prix, pp. 164-165).

(٣) يتضح لنا من هذه القائمة رخص الاسعار فى ذلك الوقت ، ذلك لان الثوب الحرير الديبقى العادى وصل سعره فى فترة من الفترات الى ٥٠ دينارا ، بل ان هنالك حله ديبقية بيعت فى القرن السادس الهجرى بمبلغ ٥٠٠ دينار .
— Ashtor : Le Coût de la vie dans l'Egypte médievale (JESHO, V. III, Part. I, 1960, p. 62).

عمامة ممتـــــازة تساوى من دينارين الى ٤ دنانير(١)

وكان سعر ثوب الصوف المصنوع فى شطا أو دمياط يباع فى أسواق مصر بمبلغ ٣٠٠ درهم أى بعشرين دينارا • وذكر أنه بيع سنة ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٧ — ١٠٠٨ م معطفان من الصوف بسعر ٣٠٠ دينار • وبيع فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى معطف من الصوف محلى بالذهب صناعة تنيس بألف دينار ؛ وبيع معطف آخر من الصوف بدون حلية بمائتى دينار(٢) • وكان الثوب وهو رداء العامة فى ذلك الوقت لكلا الجنسين يباع بدينار واحد ؛ وقد ذكر نحرى بن نسيم تاجر الفسطاط أنه باع عدد ١٣٨ ثوبا بسعر ٨/١٤٨° دينار • وفى أواخـــر القـــرن السادس الهجرى كانت البردة العادية تساوى دينار ونصف ؛ والسروال يساوى دينار وربع(٣) •

وكانت ملابس النساء عموما أغلى من ملابس الرجال فى فتـــرات التاريخ المختلفة ؛ ومما يؤيد ذلك الأسعار التى وردت لهـــا فى وثائق الجنيزة • فقد وجدنا على سبيل المثال قائمة زواج ترجع الى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى بها الأسعار الآتية للبوسات نسائية :

ثوب حرير أبيض يساوى	٢٠ ، ٣٠ دينارا
ازار	دينار ونصف
منـــديل	من ٢٢ر٠ الى ٢٥ر١ دينار
فوطـــة	من نصف دينار الى دينار وربع
مئـــزرة	من ٥ — ٢٠ دينارا
منشـــفة	دينـــار

(١) Ashtor : Op. Cit., p. 67. —

(٢) Ashtor : Op. Cit., p. 147. —

(٣) يتضح لنا من هذه الأرقام رخص أسعار الملبوسات فى ذلك الوقت ويكفى دليلا الى ذلك ما أورده المقريزى من تواضع القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وذكر عنه أن جميع الملابس التى كان يرتديها لم يكن يزيد ثمنها عن دينارين — (Ashtor : Op. Cit., p. 151).

عصـــابة للرأس	من دينار الى ٣ دنانير
طيلســـــان	من دينار الى دينارين
طرحـــة	٧ دنانير

الأحجار الكريمة :

كان الاتجار فى الأحجار الكريمة تجارة رابحة جدا فى العصـــور الوسطى ، وتعطينا وثائق الجنيزة الكثير من أسعارها • ففى القـــرن الخامس الهجرى كان سعر الدرهم من اللؤلؤ (١٢٥ر٣ جرام) يساوى ٤٠ر٧ من الدينار • كذلك بلغ رطل المرجان (العقيق) ســـــنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨ م حوالى دينار ونصف[١] • أما عن الياقوت فاذا كان الفص منه حسن الشكل سالما من الثقوب والتشعير والعيوب أحمر قانى اللون رطبا ويساوى وزنه مثقالا ساوى أربعمائة دينار ، وان كان وزنه نصف مثقال ساوى ٥٠ دينارا ، وان كان وزنه ⅓ مثقال ساوى ١٥ دينارا ، وان كان ربع مثقال ساوى ستة دنانير[٢] •

الأوانى النحاسية :

كانت دائما مرتفعة الثمن ، وقد وجدنا فى عقد زواج حفظ بالجنيزة ولا نعلم تاريخه أن اناءا من النحاس يساوى أربعة دنانير ووعـــاءين آخرين من النحاس يساويان ما بين دينارين وثلاثة دنانير • كذلك بلغ سعر ابريق من النحاس دينارين ، وسعر سطل نصف دينار[٣] • كذلك بيع شمعدان مصنوع من النحاس بثلاثة أو أربعة دنانير[٤] •

الرقيـــق :

كان متوسط سعر العبد فى أسواق مصر فى العهدين الفـــاطمى

---

(١) Ashtor: Op. Cit., p. 221. —
(٢) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ١٤
(٣) Ashtor: Op. Cit., p. 181. —
(٤) Ibid., p. 178. —

والأيوبى ٢٠ دينارا (١) ، ووصل أدنى سعر له سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥ م الى ١٢ دينارا (٢) • أما عن الجوارى فبلغ سعر الجارية فى العهد الفاطمى ½ ١٠ دينارا ، وهنالك من وصل سعرها الى ٢٠ بل الى ٣٠ دينارا • هذا وقد أورد الادريسى أن أحسن جارية نوبية بيعت فى أسواق مصر بسعر ٣٠٠ دينارا (٣) • وقرأنا فى وثائق الجنيزة الأسعار الآتية للجوارى : فى النصف الثانى من القرن الخامس باعت نيحال بنت يوشوا الصباغ الى يعنوب بن ابراهيم بن علان جاريتها (رضا) مقابل ½ ١٨ دينـــارا • وفى سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م باع العزار تاجر الروائح الى أبى على بن منسى جاريته النوبية (ملح) مقابل ١٥ دينارا • وفى سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٤ م باع يحيى بن كوهين الى يوسف بن سليمان جاريته النـــوبية (حدق) ومعها ابنها مقابل ٢٨ دينارا • وفى سنة ٤٩٤ هـ/١١٠٠ م باعت سيدة بنت صدقة الى موسى بن يفت خادمتها النوبية (توفيق) مقابل ½ ١٦ دينارا • وفى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م باع أبو على العطار جاريته مقابل ١٨ دينارا • وفى سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م دفع لشخص من قوص مبلغ عشرة دنانير ثمنا لجارية باعها (٤) • ويظهر لنا من مجموع الأسعار التى وردت أن المرء كان فى استطاعته فى ذلك الوقت حتى نهاية القرن الخامس الهجرى أن يشترى العبد الرقيق بسعر يتراوح ما بين ١٥ ، ١٨ دينارا ، وأن متوسط السعر ارتفع فى القرن السادس وأصبح عشرين دينارا • أما سعر الغلمان فكان الغلام السليم الصحة يباع بسعر بين

---

(١) بيع ابو المسك كافور الذى صار فيما بعد حاكم مصر فى العهد الاخشيدى بثمانية عشر دينارا • -- Ashtor : Op. Cit., p. 89.

(٢) وجد ذلك السعر فى عقد زواج ابى نصر العزار بن يحيى ، وفى عقد بيع تم فى الفسطاط سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥ م لعبد باعه ابو الفضائل بن موسى الى ابى البركات الكاتب وكان اسمه فيروز وبيع باثنى عشرة دينارا •
— Ashtor : Op. Cit., pp. 186-187.

(٣) — Ashtor : Op. Cit., p. 208.

(٤) — Ashtor : Op. Cit., p. 209-210.

١٠ ، ٢٠ دينارا • وقد ورد فى وثيقة ترجع الى سنة ٥٤٧هـ ١١٥٣ م
أن غلاما حبشيا بيع بمبلغ ½ ١٠ دينار (١) •

وكان تجار الغرب يشترون الرقيق ويصدرونه الى بلادهم ويبيعونه بأسعار مضاعفة وكان تجار جنوه متخصصين فى هذه التجارة فكانوا يجلبون الرقيق الى فرنسا ، فجلبوا اليها أعدادا كبيرة من الشرق فى العصور الوسطى • وكان متوسط ثمن الطفل الصغير البالغ من العمر أربعة سنين ونصف فى أسواق أوروبا فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ٣٥ دينار (٢) •

الخيــل :

كان سعر الخيل يتغير فى زمن السلم عنه فى زمن الحرب ، ففى زمن السلم ينخفض سعرها فنسمع أن الفرس يباع سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م بمبلغ ١٦ دينارا • وهنالك وثيقة ترجع الى سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م تذكر أنه دفع مبلغ ٣٥ دينارا ثمنا للفــرس الواحد • وفى زمن الحــــروب الصليبية ارتفع سعر الخيل ارتفاعا كبيرا فوصل سعر الفرس الواحد الى ٤٠ و ٥٠ دينارا (٣) •

---

(١) — Ibid., pp. 210-211.

(٢) — Avenel : Histoire économique de la propriété des salaires des denrées et de tous les prix en général depuis l'an 1200 Paris 1894, I, p. 186.

(٣) — Ashtor : Op. Cit., p. 187.

أسس التعامل بين تجار الشرق

كان نظام المشاركة بين التجار هو السائد فى العصور الوسطى ؛ وكانت هذه المشاركة ترتكز على أحد دعامتين • اما رابط المصاهرة بين التجار واما رابط الصداقة المتينة بينهم • وكان الشريكان يتقاسمان الربح والخسارة معا ؛ لذلك كانت المعاملة بين هؤلاء التجار طيبة على الدوام(١) •

وقد أخبرتنا وثائق الجنيزة عن مصاهرات كثيرة تمت بين تجار كانوا يعملون فى تجارة الشرق وفى أسواق القاهرة والفسطاط ، وكانت صلاتهم مع بعضهم البعض مبنية على الثقة والتعاون(٢) • وشاهد على ذلك تلك الوثيقة الكاملة التى وجدت فى الجنيزة بين شريكين متصاهرين من التجار اليهود هذا غير عدد آخر من الوثائق تشير كلها الى مشاركات عديدة بين التجار فى ذلك العهد • والوثيقة التى نشير اليها موقعة باسم ابراهيم بن اسحق ، وهو صرا فمعروف عاش فى الفترة ما بين ٤٤٢ — ٤٨٧ هـ/١٠٥٠—١٠٩٣ م ، ويبدو أن هذه الوثيقة كتبت سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م ويرد الآتى فى بعض نصوص الوثيقة :

« نسأل الله تعالى أن يرشدنا ويبارك الشركة بيننا : أنا يحيى كوهين الذى أعطيت من مالى ٥٠٠ دينار خالصة كاملة الوزن وفقا للوزن المصرى التام نقدا وعدا ، وصهرى السيد ساسون أبو السرور الذى أعطى من ماله ٨٥ دينار ذهب خالصة ، وأصبح المجموع ٥٨٥ قطعة ذهبية خالصة • وتم الاتفاق بيننا على أن تظل النقود فى حوزتى أنا يحيى كوهين ، واننا سوف نستثمر هذه النقود طوال حياتنا فى الصرف بشرط أن يظل معى السيد ساسون شريكا فى المخزن وتحت رعايتى ، وسوف يقوم بأعمال الوزن وكل الاعمال الاخرى ، وسوف يكون له حق

(١) — Lopez : the role of trade, p. 80.

(٢) — Goitein : Op. Cit., p. 48.

التمثيل أمام القضاء مع من يديننا بأى شىء •• وأى ربح سوف يسوقه القدر لنا سوف يتسلم شريكى السدس والثمن وأنا أتسلم الثلثين ، واذا أراد أى منا أن يصير فى حل من الشركة فعليه أن ينذر لمدة شهر وخلال هذا الشهر سوف لا يتسلم أى ربح من الارباح تحت أى ظرف من الظروف • واذا لا قدر الله فقد جزء من المبلغ سوف نتقاسم الخسارة معا تقاسمنا للربح • وقد تقبل السيد ساسون كل هذه الشروط من أولها لآخرها بعد أن قرئت عليه وبعد أن ناقش كل بنودها »[1] •

وكان المكسب المقتسم بين الشركاء فى بعض الاحيان كبيرا ، كذلك كانت الخسارة كبيرة أحيانا • ففى احدى المرات كسب تاجر معروف هو واخوان شريكان له مبلغ ٤٠٠٠ دينار فى مدة ١٥ شهرا ، وكان المكسب الصافى للاخوين الشريكين فى هذه الصفقة ٥٢٥ دينار • وفى مرة أخرى كسب شريكان من التجار من حرير أحضراه الى سوق الفسطاط وباعاه فى نفس اليوم ١٢ دينارا[2] • وكانت الخسارة بين تجار الشرق تقع نتيجة لثلاثة ظروف وهى : تحطم السفينة التى تحمل التجار ، أو غرقها ، أو تعرض المتجرمة فى البحر لها • ولم يكن هنالك أى نوع من التأمينات على السلع فى تجارة الشرق ، ولذلك كانت الخسائر كبيرة فى أية حالة من هذه الحالات الثلاث • وفى مثل هذه الحالات كان زملاء التاجر يقدمون بعض المساعدات المالية للتاجر الذى ينكب فى تجارته ، كما كانوا يقدمون له بعض المساعدات العينية على هيئة سلع وبضائع ليبدأ بها تجارته من جديد • وقد وجد نظام السلف بين التجار فى سلع الشرق وكانت تسمى بسلفة البحر • ونظام سلف البحر هذا نظام قديم عرفه الاغريق والرومان ، وكان تاجر البحر يقدم السلفة

---

(١) وردت هذه الوثيقة فى مجموعة الجنيزة الخاصة بمكتبة كمبردج تحت رقم 784 T 512 واورد جواتيين ترجمة لها — (Goitein : Bankers Account, pp. 31-33).

(٢) — (Goitein : A Mediterranean Society, p. 203).

لزميله ليستعين بها فى تجارته • وكان على المستدين أن يعيد ما عليه من دين لصاحبه متى باع بضاعته ووصلت سفينته آمنة وأكملت رحلتها فى سلام • وكانت هذه السلفة تعطى بمقتضى عقد يعقد بين التاجرين(١) •

وكان الصدق شائعا فى المعاملات بين تجار مصر وخاصة أولئـك الذين يعملون فى تجارة الشرق • وقد أورد ناصرى خسرو عن ذلك قوله بأن تجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعونه واذا كذب أحدهم على مشتر فانه يوضع على جمل ويعطى جرسا بيده ويطوف به فى المدينة وهو يدق الجرس وينادى قائلا : « قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب »(٢) •

وكان تجار سلع الشرق يتحكمون فى أسعار سلعهم فى أسواق الأسواق ، ويتفقون فيما بينهم على سعر معين لكل سلعة عند طرحها فى الاسواق • وكانون ينفذون هذه الاتفاقات فيما بينهم فيضمنون بذلك الثمن الذى يريدونه ويحققون أيضا الارباح التى يبغونها(٣) •

ولم يكن تجار الشرق يتعجلون بيع بضائعهم التى أحضروها من أعالى البحار الى أسواق مصر ، وكانت لهم فى ذلك مبادىء يسيرون عليها • فكان تاجر سلع الشرق يعرض بضاعته فى السوق بعد أن تنقص هذه السلع فيه وحين يزداد الطلب عليها خاصة من تجار الغرب • وقد أوضحت وثائق الجنيزة نصائح بعض التجار لنوابهم باتبـاع ذلك عند طرح سلعهم فى الاسواق (٤) •

وتمتع تاجر سلع الشرق بذكاء تجارى كبير ، فهو دائما يتسمع أخبار السوق ويعرف أنواع السلع الناقصة فيه ، كما يعرف حركة السفن

---

(١) — Lopez: Medieval Trade, p. 168.
(٢) سفرنامه ، ص ٦١ .
(٣) — Goitein: Op. Cit., p. 203.
(٤) — Ibid., p. 203.

ومواعيد وصول القوافل التجارية وكيفية وصول السلع سالمة • وهنالك خطاب، ضمن وثائق الجنيزة مرسل من تاجر فى الاسكندرية الى تاجر آخر فى الفسطاط يطلب منه معلومات عن حالة السوق فى الفسطاط وأنواع السلع الناقصة فيها • كذلك هنالك خطابات مرسلة من تجار فى بلد الى أقاربهم فى بلد آخر يسألون عن أسعار بضائع وسلع معينة فى أسواقهم ، وفى ختام خطاباتهم يطلبون منهم أن يكونوا على علم تام بآخر سعر وصلت اليه السلع فى السوق (١) •

وكان كل تاجر من تجار سلع الشرق يحاول أن يكون أول من يبيع سلعته فى السوق وكان شعارهم الدائم الذى ورد كثيرا فى خطاباتهم : « بع سلعتك قبل أن تنفض غبار السفر عن قدميك » • وكثيرا ما نجد فى خطابات التجار التى عثر عليها فى الجنيزة كاتب الخطاب يذكر الى المرسل اليه أن هذه البضاعة مرسلة اليه مع أول سفينة مبحرة ، أو عبارة : « أرجو أن ترسل لى البضاعة مع أول سفينة تقلع من عندك»(٢)• ولم تكن الحكومات فى بعض الاحيان تشجع سياسة التسابق هذه بين التجار ، ودليل ذلك اننا نرى تاجرا سكندريا نجح مع بعض رفاقه فى أن يرسل بضاعته الى الفسطاط قبل زملائه فاحتجز الجمرك هذه البضاعة لمدة خمسة أيام حتى وصل جميع تجار الاسكندرية الذين كانوا يحملون نفس السلعة (٣) •

واحتفظ تجار سلع الشرق بكشوف حسابات ودفاتر خاصة يقيدون فيها المشترى والمباع من السلع • وقد وردت قوائم حسابات كثيرة فى رسائل الجنيزة المتبادلة ، وكانت تشمل الآتى :

(أ) تقارير الى الشركاء أو العملاء عن البضاعة المرسلة اليهم وعن

(١) — Goitein: Op. Cit., p. 200.
(٢) — Ibid., p. 200.
(٣) — Ibid., p. 201.

أورانها وأسعارها . وكانت هذه التقارير تعرف باسم التقريرات الموسمية وكان يرد بها ذكر جميع الاعمال التى قام بها التاجر فى موسم الصيف . وكثيرا ما كانت ترد فى هذه التقارير عبارة « بيع بعد اقلاع السفن » .

(ب) تقارير عن الحسابات المالية بين الشركاء .

(جـ) مذكرات خاصة كتبها التاجر لنفسه وهى تتعلق بأمور تجارته وتشمل المدفوعات والايصالات والديون وبيان بالبضائع المطلوبة (١) .

وكان لكل تاجر فى تجارة الشرق وكيل يدير له أعماله فى حالة غيابه، كذلك كان لكبار التجار كتاب يتولون مهمة تقييد حساباتهم وكتابة مراسلتهم (٢) .

وكانت هنالك عادات اجتماعية متبعة بين تجار السلع الشرقية مع بعضهم البعض ، منها أن زملاء التاجر العائد الى أرض الوطن كانوا يحتفلون بهذه المناسبة الطيبة مع أفراد أسرته ، وكان الأقارب والأصدقاء من الأماكن القريبة والبعيدة يشاركون فى الاحتفال به وفى تهنئته بسلامة العودة . وكان التجار يحتفلون بهذه المناسبة احتفالهم بأفراح الزواج والأعياد الكبرى .

ومن ثم من لم يكن يستطيع الحضور من هؤلاء التجار كان يرسل خطاب تهنئة يحمله اعتذاره عن عدم امكانه الحضور (٣) .

---

(١) — Ibid., p. 207.
(٢) — Ibid., p. 163.
(٣) — Ibid., p. 351.

النظم المالية

(أ) المكوس والزكاة والجزية

كانت موارد الدولة الاسلامية المالية تعتمد بعد الخراج على الجزية والزكاة والمكوس(١) • وكانت الجزية تفرض على أهل الذمة فى مصر منذ اللحظة الأولى للفتح العربى لها • وقد وضع الخليفة عمر بن الخطاب نظاما ثابتا موحدا للجزية اتبعة العمال فى سائر الامصـــــار ، فقسم الجزية ثلاثة أقسام وفقا لحالة الذمى الاجتماعية(٢) •

أما الزكاة فهى احدى فرائض الاسلام الخمسة ، فكان على المسلم أن يدفع ربع العشر عن ماله الذى حل عليه الحول • وقد تحـــدث القلقشندى عن الزكاة التى تفرض على التجار المسلمين على ما يدخلون به الى البلد من ذهب أو فضة بقوله « أنه كان يؤخذ على كل مائتى درهم خمسة دراهم ، ثم اذا اشترى التاجر بهذا المبلغ شيئا وخرج به وعاد بنظير هذا المبلغ لا يؤخذ منه شىء عليه حتى يجاوز سنة » (٣) • وذكر القلقشندى أن المدة تناقصت فى عهد الفاطميين الى عشرة أشهر • كما أضاف، بأن الزكاة كانت تؤخذ أيضا على بضائع الكارمية اذا دخلت البلد وحال عليها الحول ، وفى ذلك يقول : « ثم انه اذا كان بالبلد متجر لأحد

---

(١) Cahen : Douanes et Commerce dans les portes Méditerranéen de l'Egypte médievale (Arabica 7, 1967, p. 217).

(٢) « كان يؤخذ من الذكر الموسر من أهل الذمة أربعة دنانير وسدس فى كل سنة وعلى المتوسط ديناران وقيراطان وعلى الفقير دينار وثلث . واضيفت الى جزية كل شخص درهمان وربع عن رسم الشاد والمباشرين وكتب عمر الى عماله بأن لا يوضع عليهم أكثر من ذلك وأن يخفف عمن عجز عن الدفع . وقد كانت العادة جارية باستخراج الجزية فى أول المحرم من كل سنة ثم صارت تستخرج فى أيام من ذى الحجة » .
— الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٠٣) .
(نقلا عن القلقشندى : صبح الاعشى) جـ ٣ ص ٤٥٧ .

(٣) صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٥٧ .

من تجار الكارم من بهار وغيره وحال عليه الحول بالبلد أخذوا عليه الزكاة أيضا ويجرى ذلك جميعه مجرى سائر متحصل الاسكندرية فى المباشرة وغيرها » (١) •

هذا ويفهم من نص القلقشندى أنه قبل الفاطميين لم يكن يجبى من تجار الكارم والتجار المسلمين عموما الا الزكاة مرة فى العام ؛ أما الفاطميون فكانوا يحصلون الزكاة مرة كل عشرة شهور •

غير أن الأمر لم يقتصر على تحصيل الزكاة فحسب من التجار المسلمين بل فرضت عليهم ضرائب أخرى • وقد عرف مجموع ما كان يتحصل من ضرائب من المسلمين ومن غير المسلمين خارجا عن الخراج والزكاة والجزية باسم المكوس (٢) •

وكان ابن المدبر قد سبق الفاطميين فى فرض هذه المكوس الا أن أحمد بن طولون قام بالغائها (٣) • وبالغ الفاطميون فى فرض المكوس الداخلية التى جرى تحصيلها بالفسطاط والقاهرة ، فقد بلغت من الكثرة زمنهم أن كانت تؤخذ من اثنتين وسبعين جهة وأنها تفاوتت فى مقدارها

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٥٧ .

(٢) — (Cahen : Douanes et Commerce, p. 217.

(ذكر كاهن بأن كلمة مكس هى كلمة من أصل آرامى استعملها اليهود بمعنى : واجبات ، دفع ، ضرائب ، وعرف المقريزى المكس بأنه دراهم تؤخذ من بائع السلع فى الاسواق فى الجاهلية وان أصل المكس فى اللغة الجباية أما كلمة مقس فيذكر المقريزى بأنها اسم قرية على ساحل النيل واقعة فى شمال القاهرة كانت تعرف من قبل باسم أم دنين ولكن سميت بهذا الاسم لان الماكس كان يقعد بها ليستخرج المكس ، فكلمة مكس تحريف لكلمة مقس (الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٢٠) .

— واضاف المقريزى بأن شرحبيل بن حسنة احد من شهود فتح مصر من أصحاب الرسول كان واليا لعمرو بن العاص على المكس (الخطط ، جـ ٢ ص ١٢٢) .

(٣) — Zaky Hassan : Les Tulunides, p. 245.

وأثقلت كواهل السكان (١) فكان المكس مقررا ؛ فضلا عن تجارة الصادر والوارد ، على المراعى والحيوان والمياه والمصائد والذبائح وسوق الرقيق وأنواع الصناعات وحتى على الحجيج (٢) • وذكر ابن جبير أن مقدار مكس الحاج الذى كان يجبى فى عيذاب على عهد الفاطميين سبعة دنانير ونصف • وقد استمر هذا المكس ؛ مع غيره يجبى طوال عهد الدولة الفاطمية حتى اسقطها السلطان صلاح الدين جميعا (٣) •

وكان فقهاء المسلمين والمؤرخون لا ينظرون الى هذه الضرائب بعين الرضا لأنها ضرائب غير شرعية ، وكانوا يطلقون عليها المال الهلالى (٤) •

وكان المكس على البضائع التى يجلبها التجار الكارمية فى البحر الأحمر من جهة الحجاز واليمن وما والاهما يجبى فى أربعة مواضع هى : عيذاب ، والقصير ، والطور ، والقلزم (٥) •• كما وجدت كذلك مراصد المكوس فى ثغــــور الاسكندرية ودميــاط وتنيس ورشـــيد والبرلس والفرما (٦) •

وكان تجار الكارم فى عهد الفاطميين يدفعون مكوسا على تجارتهم

---

(١) حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٧ •

(٢) Cahen : Le régime des impôts dans la Fayyum Ayyubide -- (Arabica, III, 1956, p. 18).

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٥٥ •
ــ أورد الادريسى بأنه كان يؤخذ ثمانية دنانير (نزهة المشتاق ، ص ٥٦) •

(٤) عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهـــد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٢١ عرفت بهذا الاسم لانها كانت تستأدى على حكم الشهور الهلالية بعكس الخراج الذى كان يجبى على حكم السنة الشمسية أو السنة القبطية وكانت تعرف باسم المرافق والمعاون وكانت كلمة مكس هى الغالبة فى العصر الفاطمى (عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١١٧) •

(٥) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ •

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ •

فى بلاد اليمن ، وخاصة فى ميناء عدن ، غير تلك التى يدفعونها فى موانى مصر (١) • وقد أورد المقدسى (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) أنه كان يصل الى خزانة الدولة من مكس عدن ثلث أموال التجار وأنه كان يؤخذ على باب زبيد من من حمل المسك دينار ومن حمل القماش (البز) نصف دينار (٢)•

وكان التاجر القادم من الهند ، عند وصوله الى عدن ، يخطر سلطات الميناء بكل ما معه ويشهد على ذلك شاهدان ، ثم يدفع ما هو مقرر عليه من مكس بعد اجراءات طويلة قاسية • وبعد ذلك تتجه سفينته الى أحد موانىء مصر فى البحر الاحمر فيتوجه الى مقر المكس الذى يشرف عليه مقرر المكس وعدد من الموظفين كمساعدين له • ويقوم هؤلاء الموظفون بتسجيل جميع ما مع التاجر من بضائع ؛ وبعد ذلك يقدرون المكس المقرر عليها ويقوم التاجر بدفعها (٣) • ثم تنقل السلع من الديوان الى وكالات القاهرة أو الفسطاط حيث يجرى بيعها أمام سماسرة معينين من قبل الحكومة • وكانت الحكومة تشترى من التجار فى بداية البيع ما هى فى حاجة اليه ويقوم بهذه المهمة موظفو المكس الذين كانوا يحددون ما تريد الحكومة شراءه من السلع وخاصة الحديد والخشب والقطران وغير ذلك من السلع التى يحتاجها المتجر العام فى القاهرة (٤) •

ومن المؤسف أن المصادر التى تحت أيدينا حتى الآن لم تعطنا أرقاما عن المكس المقرر على سلعة معينة من سلع تجار الكارمية فى ميناء من موانىء مصر على البحر الأحمر أو مجموع ما كان يجبى من مكس

---

(١) ذكر ابن المجاور أن خروج التاجر من عدن كان كمثل خروجه من القبر بسبب تشدد جباة المكوس فى هذا الميناء وقسوتهم مع التجار .
(ابن المجاور : تاريخه ، جـ ١ ، ص ٤٨) .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣) Goitein : From the Mediterranean to India, SPECULUM, XXIX, 1954, p. 189).

(٤) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، ص ٢٦٩ .

د انسنة على وجه التقريب فى هذا الميناء أو ذاك باعتبار ذلك مصدرا من المصادر الكبرى لايرادات دولة الفاطميين كما أنه ليست لدينا أية معلومات عن مقدار المكوس التى كانت تجبى على متاجرهم عند دخولها القاهرة أو عند نقلها الى الاسكندرية أو دمياط • والأمل كبير فى أن تكشف لنا مجموعة وثائق الجنيزة التى يحتفظ بها المستشرق جواتيين بتفصيلات عن مقدار المكس الذى كان يحصل فى مقر المكس • فقد ذكر فى احدى مقالاته (١) أن هذه المجموعة التى عثر عليها تغطى تسع عمليات نمت فى ديوان المكس فى الفترة ما بين ٥٩٤—٥٩٥ هـ/١٠٩٧—١٠٩٨ م ، ونحن فى انتظار وعده بنشر هذه المجموعة •

أما سفن التجار الأجانب القادمةالى ميناء الاسكندرية فكان يؤخذ عنها المكس فى هذا الميناء ، وكان ميناء الاسكندرية يغلق بالليل بسلسلة ضخمة عند مدخل الميناء لمنع السفن من التسلل عبر الظلام قبل دفعها • وكانت توضع قوائم بأسماء الركاب وأصناف البضائع وأعدادها وترسل بواسطة الحمام الزاجل الى الديوان العام بالقاهرة • وكان على كل أجنبى أن يدفع دينارا ذهبا ساعة وصوله الميناء (٢) وكانت القاعدة أن يؤخذ العشر فى الاسكندرية ودميــاط من التجار الأجانب على البضائع القادمة من بلاد أوروبا الى مصر مرة كل عام (٣) • ثم تقرر أن يؤخذ منهم الخمس — وهو ضعف العشر — عن كل ما يصل لهم فى كل مرة (٤) ،

---

(١) — Goitein : From the Mediterranean, p. 189.

(٢) — Attiya : Crusade, Commerce, p. 194.

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢٠ •

(٤) ذكر القلقشندى (صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٩) « أن المفتى به فى مذهب الامام الشافعى أن يزيد فى المأخوذ عن العشر وأن ينقص عنه الى نصف العشر للحاجة الى الازدياد فى جلب البضاعة الى بلاد المسلمين وأن يرفع ذلك عنهم راسا اذا رأى فيه المصلحة . وكيفا كان الاخذ فلا يزيد فيه على مرة من كل قادم بالتجارة فى كل سنة حتى لو رجع الى بلاد الكفر ثم عاد بالتجارة فى سنة لا يؤخذ منه شىء الا أن يقع التراضى على ذلك » •

وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضا (١) •

ويبدو أن المكوس التى كانت مفروضة على السلع التى يحملها الأوروبيون كانت تتراوح ما بين ١٠٪ ، ٢٥٪ ؛ بل كانت أحيانا تصل الى ٣٥٪ • وكان الديوان يأخذ ضريبة الوارد على البضائع التى تباع فعلا ، أما التى لم تجدلها سوقا فى البلاد فلا يدفع عنها أصحابها ضريبة وارد ويجوز لهم أن يعيدوا تصديرها دون دفع مكوس على ألا يكون من بين هذه السلع الحديد والخشب والقار التى تحتم عليهم أن يبيعوها للحكومة بسعر السوق • أما ضريبة الصادر فكان يجرى تحصيلها على جميع السلع التى يشتريها الأجانب من مصر وعن الأموال التى تخرج من البلاد ، وبالاضافة الى ذلك كانت تحصل رسوم اضافية كالسمسرة وعن الترجمة (٢) •

هذا واستمرت المكوس من أهم مصادر الدخل التى اعتمدت عليها الدولة الفاطمية ، وكان الفاطميون يشتطون فى جمع المكوس ، وكان عمالهم فى الموانى يعاملون التجــار والحجــاج القادمين الى البــلاد والخارجين منها معاملة سيئة • وقد تحدث ابن جبير عن المتاعب التى كانوا يتعرضون لها فى اخميم وقوص ومنية ابن الخصيب فى عهــد الفاطميين وفى أوائل عهد صلاح الدين • وذكر بأن الاجراءات الجمركية فى هذه المناطق كانت فى غاية القسوة والشدة (٣) • وذكر القلقشندى بأن البلوى عمت البلاد فى عهد الفاطميين بسبب هذه المكوس وأنها زادت عن حدها ودخلت الشبهة فى أموال الكثير من الناس بسببها (٤) •

---

(١) ذكر ابن مماتى عند حديثه عن الخمس قوله « عبارة عما يستأدى من تجار الروم الواردين على الثغر بمقتضى ما صولحوا عليه وربما بلغ ما يستخرج منهم عما قيمته مائة دينار ما يناهض خمسة وثلاثين دينارا وانما انحط عن العشرين دينارا ويسمى كلاهما خمسا (قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦) •

(٢) العرينى : مصر فى عهد الايوبيين ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ •

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٣٨ ، ٣٩ •

(٤) صبح الاعشى ج ٣ ، ص ٤٦٦ •

ولما تولى صلاح الدين الأمر فى مصر أسقط سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م عددا كبيرا من هذه المكوس [١] . وبلغ عدد تلك المكوس الملغاة ثمانية وثمانين مكسا وجملة حصيلتها فى السنة مائة ألف دينار [٢] . وكان الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله قد قام قبله (سنة ٣٨٦ هـ) بالغاء عدد كبير من المكوس التى كانت تحصل بالساحل [٣] .

هذا وبعد أن أسقط صلاح الدين المكوس سنة ٥٦٧ هـ لم يبق من المكوس الفاطمية بعدئذ سوى مكس الحاج الذى ألغاه سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م . وأصبح لا يجبى من المكوس بعيذاب من تجار الكارم سوى الزكاة فقط ، أى ربع العشر ومرة واحدة فى العام [٤] . واذا كان صلاح الدين بسبب حاجته الى المال قد حصل فى سنة ٥٧٧ هـ من تجار الكارم زكاة أربع سنوات دفعة واحدة [٥] ، الا أنه كتب الى واليه بقوص فى نفس العام بابطال المكوس التى تستأدى منهم لعدة سنوات قادمة [٦] . كذلك لم يكن يجبى من التجار الأوروبيين سوى الخمس [٧] .

ويبدو أن بعض المكوس أعيد فرضها فى عهد الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ، يؤيد ذلك ما ذكره المقريزى من أن الملك العادل الثانى سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل (٦٣٥ — ٦٣٧ هـ) قد حط المكوس حين تولى الملك [٨] .

هذا وكان تجار اليهود الذين يعملون فى تجارة الشرق يدفعون الى

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ انظر الملحق رقم (١)
(٢) ابن زولاق : تاريخ مصر ، مخطوطه ، ورقة ٦٧ أ .
(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ، ص ٥٤ .
(٤) أحمد دراج : عيذاب ، ص ٦٠ .
(٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ القسم الاول ، ص ٧٢ .
(٦) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، القسم الاول ، ص ٧٤ .
(٧) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .
(٨) السلوك ، جـ ١ ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٢٦٧ .

جانب المكوس المفروضة على البضائع ما عليهم من الجزية السنوية حتى أثناء تغيبهم فى رحلات تجارة الشرق • وقد جاء فى وثائق الجنيزة أن هذه الجزية كانت تسمى (جعلية) وأنها كانت تؤدى حتى أثناء وجودهم فى الهند وبلاد الشرق الأدنى • ومن أمثلة ذلك أن تاجرا يهوديا من تجار الهند تغيب فى الهند تسع سنوات ثم مات هناك فدفع عنه اخوته فى مصر جعلية السنين التسعة • وفى خطاب مرسل من الاسكندرية من أخ لأخيه الذى يتاجر فى الهند يطلب منه أن يرسل ما عليه من جعلية لأن أباه كان يدفع له طوال غيابه ؛ وعند وصول هذا التاجر الى الاسكندرية — بعد غياب أربع سنوات سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦ م — أرسل التاجر الى صديق له فى الفسطاط يطلب منه أن يخبر المحصل بغرق سفينته ورجائه أن يرفع عنه جعلية السنوات الاربع • كما قال له : « اوعده بنصف دينار أو بدينار له وذكره بأننى يوسف صاحب المخزن الذى تحت الكنيسة المعلقة » (١) •

وكان على تاجر الشرق المسافر من بلدة الى أخرى أن يحمل معه « البراءة » وهى شهادة تفيد بأنه سدد ما عليه من مكوس وزكاة أو جعلية وغير ذلك ؛ ولا يستطيع التاجر المسافر من بلد الى أخرى أن ينتقل دون أن تكون معه هذه البراءة التى كانت تتجدد سنويا • وكانت أى سفينة معرضة للعودة من أى مكان كانت فيه والغاء رحلتها اذا اكتشفت الشرطة أن شخصا عليها ليست معه براءة ؛ ولذلك كان أصحاب المراكب يتأكدون من وجود هذه البراءات مع كل تاجر قبل ركوبه السفينة • وكان كل شخص يستخرج هذه البراءة من محل اقامته الدائم(٢) •

---

(١) — Goitein: Evidence on the Muslim Poll tax from non Muslim sources, (JESHO, V. VI, I, 1963, pp. 282-283).

(٢) — Goitein: Op. Cit., p. 283.

(ب) العملة المتداولة

كان التعامل المالى فى مصر يتم فى أوائل القرن السابع الميلادى بالدنانير الذهب التى كانت سائدة فى الدولة البيزنطية وكانت تسمى بالقيصرية ، كذلك بالدراهم الفضية الفارسية(١) •

وحين فتح العرب مصر لم يغيروا النظام المالى البيزنطى الذى كان قائما بها ، واستمر التعامل المالى على أساسه • ومنذ سنة ٧٦ هـ/ ٦٩٤ م أصبحت مصر تتعامل بعملة اسلامية سكها الخليفة عبد الملك بن مروان ، وحلت هذه العملة الاسلامية فى مصر محل العملة البيزنطية طوال عهد تبعيتها للخلافة الأموية والعباسية •

وكان الخليفة الأموى عبد الملك قد سك دينارا ذهبيا خالصا كان وزنه الثابت ٤٫٢٥ جرام ، وجاء هذا الدينار تقليداً للدينار البيزنطى وسمى باسمه(٢) • وقد راج فى مصر هذا الدينار الذهب(٣) ، وصار يتعامل به فى أسواقها جنبا الى جنب مع الدينار البيزنطى • وكان وزن هذه الدنانير الذهب يتغير بالطبع مع تغير العهود والحكام وحسب حالة مصر المالية صعودا وهبوطا •

وبالاضافة الى الدينار الذهب الاسلامى كانت هنالك عملة فضية اسلامية وهى الدراهم ، وقد حلت فى العالم الاسلامى محل الدراهم

---

(١) -- Ehrenkreutz: Byzantine Tetartera and Islamic Dinars, (JESHO, part II, 1964, p. 189).

٢ — كلمة دينار العربية — مشتقة من الاصل اللاتينى Denarius وينقسم الدينار الى ٢٤ قيراط Carats والقيراط يساوى ثلاثة حبات وستة دوانق .

— (Ashtor: Histoire des Prix, p. 39.

٣ — كان يطلق على الدينار فى المغرب والاندلس اسم المثقال وهى تعني الدينار فى كامل وزنه وهى كلمة ماخوذة من اصل سامى .

— Goitein: A Mediterranean Society, p. 359.

الفضية الفارسية (١) • ووجدت فى مصر الاسلامية ثلاثة أنواع من هذه الدراهم :

(أ) دراهم فضية كاملة نقية تسمى فضة أو نقرة (فضة نقية) وزن الواحد منها ٢ر٩٧ جرام ويساوى الدينار الذهب الخالص ١٣ ½ درهم من هذا النوع(٢) •

(ب) دراهم تساوى نسبة الفضة فيها ٣٠٪ من وزنها ، وكان الثلاثة دراهم منها تساوى درهم نقره واحد ، ويساوى الدينار الذهب الخالص من ٣٦ الى ٤٠ قطعة منها • وقد شاع تداول هذا الدرهم فى العهدين الفاطمى والأيوبى وأشارت آليه وثائق الجنيزة ، وكان يسمى بالدرهم الاسود أو الدرهم الورق(٣) •

(جـ) دراهم تحتوى على كمية قليلة جدا من الفضة وكان التعامل بها محدودا •

وينقسم الدرهم الى أجزاء كل جزء منها يسمى خروبة Carob وهى لفظة مشتقة من أصل سامى وهى تساوى من ١/١٦ الى ١/٢٠ من الدرهم •

وظهرت فى مصر عملات نحاسية فى عهد حكم الأيوبيين لها (٤) ، فكان هنالك الدانق وهو سدس الدرهم ، والقيراط النحاس ويساوى ١/١٠ من الدرهم ، والفلس ويساوى ١/٢٤ ، والحبة وهى تساوى ١/٦٠ من الدينار(٥) •

---

(١) — Lombard : L'or muslman du VIIe au XIe siècle, (AESC, 1947, No. I, p. 151).

(٢) — Ashtor : Histoire des Prix, p. 39.

(٣) — Ashtor : Op. Cit., p. 120.

(٤) — Darrag. : L'Egypte sous le règne de Barsbay, p. 102.

(٥) — Ashtor : Op. Cit., p. 41.

وكان التعامل المالى فى مصر فى أوائل القرن السابع الميلادى يتم عينا وورقا • فالعين هو العملة الذهبية والورق هو العملة الفضية • كانت ترد فى وثائق الجنيزة عبارة : « تسلم عشرة دنانير سبعة عين وثلاثة ورقا » • وكذلك كان يذكر اسم الدينار والدرهم فى التعامل المالى (١) • وكان الدينار والدرهم يباع ويشترى اما من دار الصرف أو لدى الصيارفة ؛ فنقرأ فى وثائق الجنيزة من يقول : « اشتريت دنانير من دار الصرف » و« أرسلت فضة الى فلان وسوف يهتم ببيعها » • وكاد تهذه هى النغمة المالية التى كانت تتردد فى معاملات القرنين الخامس والسادس الهجريين • وفى وثيقة من وثائق الجنيزة نسمع شهادة رجل على أحد الصيارفة يقول ما نصه « جاء المنصور ومعه مسلمان وطلبا منه ثمن كمية من الكتان فأحضر دنانيرا أعطانى اياها لكى أوزنها بحضور الشخصين فوزنتهم وتفحصتهم ووجـــدت بينهم ١٥ دينارا عدلية »(٢) • وكانت النقود تسلم أحيانا فى صرر مقفلة يكتب عليها من الخارج قيمتها ، وكان هذا النظام متبعا فى بلاد الرومان وبين مجتمعات اليهود وفى أوروبا • وقد ورد ذكر هذه الصرر فى وثائق الجنيزة ، وكانت اما حكومية أو تخص بعض التجـــار ؛ كذلك وردت أسماء بعض أصحابها التجار • كذلك وجدنا عبـــارة « صرة بها ٥٠ دينار » باسم صراف معروف فى وثائق كثير من الجنيزة (٣) • وهنالك خطابات فى الجنيزة تشير الى ارسال صرر عبر أعالى البحار من مدينة الى أخرى عليها العدد والوزن الموجود بها ؛ وأحيانا كان العدد لا يذكر ولكن الوزن كان دائما يذكر وهو الاهم • وكان سعر الوزن يتغير

---

(١) — Goitein. The exchange of gold and silver money in Fatimid and Ayyubid times, (JESHO, VIII, 1965, pp. 41-42).

(٢) — Goitein: A Mediterranean Society, pp. 230-231.

(٣) — Goitein: Op. Cit., p. 231.

حسب تغير حالة العملة • وكان التجار يحاولون أن يرسلوا بقدر الامكن دنانيرا كاملة الوزن •

وتبين لنا من أسعار هذه الصرر التى وردت فى الجنيزة تغير سعر الدينار ، فنجد فى سنة ٤٤٢—٤٤٣ هـ/١٠٥٠—١٠٥١ م صرة تحتوى على ٥٣ قطعة ذهبية كانت فى طريقها من تونس الى مصر قدرت بخمسين دينار ، ووجدت فى نفس التاريخ صرة بها ٥٠ قطعة ذهبية حملت من الفسطاط الى مركز الكتان فى بوصير قدرت قيمتهــا بخمسة وأربعين دينار • كذلك وجدنا صرة بها ١٢٠ قطعة ذهبية قدرت بمبلغ ½ ١١٧ دينار • وقدرت أيضا — ١١٦ قطعة ذهبية بمبلغ ½ ١٠٩ دينار(١) •

وقد أوضحت وثائق الجنيزة انه عند التعامل بالدراهم الفضية فى صرر كان يكتب على هذه الصرر عدد الدراهم التى بها وقيمتها ، فنجد فى خطاب عبارة تقول « أرسلت صرة بها ألف درهم نقره لك شخصيا وألف أخرى لسيدى التاهرتى » • كذلك هنالك صرة جاء بها تاجر من نصيبين الى دمياط سنة ٣٧٩ هـ/٩٨٩ م ذكر أن بها ١٣٣٠ قطعة فضية نقره وكانت ملكا لتاجر مات فى نصيبين(٢) • وتشير وثائق الجنيزة الى قلة عدد الصرر الفضية المتداولة فى العهد الفاطمى ، الامر الذى يحملنا على الاعتقاد بعدم سك دراهم فضية كثيرة فى مصر فى معظم ذلك العهد، وان الفضة الموجودة فى مصر فى ذلك الوقت كانت ترد اليها عاما بعد عام من أوروبا على يد تجار الغرب ، ومن جنوب شرقى آسيا على يد تجار سلع الشرق (٣) •

هذا ولو تتبعنا تاريخ العملة فى مصر الاسلامية نجد أن دينار الخليفة عبد الملك بن مروان قد راج فى أسواق مصر فى عهد تبعيتها

(١) — Goitein : Op. Cit., p. 232.
(٢) — Ibid., p. 233.
(٣) — Ibid., p. 233.

للخلافة الاموية ، كذلك راجت بها الدنانير التى تحمل اسم كل خليفة من الخلفاء الامويين ، الا أن دينار الخليفة عبد الملك الذى كان يعـــرف بالدينار الابيض ظل قاعدة التعامل المالى بها طوال عهد الامويين (١) . كذلك راجت فى مصر فى العهد الاموى الدراهم : الهبيرية فالخالدية واليوسفية ، وكانت هذه الدراهم أجود نقود بنى أمية (٢) .

وراجت فى مصر فى العصر العباسى الاول الدنانير العباسية التى سكها خلفاء بنى العباس فى العراق ، وقد لقى دينار الرشيد ودينار المأمون اقبالا زائدا من الناس فى مصر بسبب احتوائها على ٩٨٪ من حجمها ذهبا . (٣) كما راجت فى مصر أيضا الدراهم التى ضربت فى عهد الامين والمأمون وعرفت بالرباعيات (٤) .

ولما ولى احمد بن طولون مصر ضرب دنانير ذهبية نقية عرفت بالاحمدية ، وكانت نسبة الذهب فيها ٩٨٪ من وزنها . وقد ساد التعامل بهذه الدنانير الاحمدية ولقيت تقدير الناس لنقاوتها وانتشرت فى كل البلدان . وظل الدينار الاحمدى قاعدة التعامل فى مصر طوال العهدين الطولونى والاخشيدى (٥) ، وذلك على الرغم من أن الاخشيديين سكوا

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة ، ص ١٥٧ .

(٢) تنسب الدراهم الهيبرية الى عمر بن هبيرة والى يزيد بن عبد الملك على العراق وكانت من الفضة الخالصة وكان الدرهم الواحد منها يزن ستة دوانيق . وتنسب الدراهم الخالدية الى خالد بن عبد الله القسرى والى الخليفة هشام بن عبد الملك بالعراق وكان الدرهم منها يزن سبعة دوانيق . أما الدراهم اليوسفية فهى تنسب الى يوسف بن عمر والى العراق (١٢٠ — ١٢٦ هـ) وكان الدرهم منها يزن ستة دوانيق (الخربوطلى : تاريخ العراق ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٧)

(٣) Ashtor : Histoire des prix, p. 76.

(٤) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة ، ص ١٥٨ .

(٥) Ashtor : Op. Cit., p. 76.

دنانير نقية على عيار كامل ومساوية فى قيمتها الدينار الطولونى • (١)

كذلك راج فى مصر فى عهد الاخشـيديين الدينـــار الراضى العباسى (٢) •

وما لبث الفاطميون أن سكوا لهم دينارا خاصا على غرار الدينار الاحمدى والدينار البيزنطى (٣) ، فقد سك جوهر الصقلى بعد فتحه مصر دنانير ذهبية جديدة أطلق عليها المعزية (٤) • وعلى الرغم من توالى سك الدنانير التى تحمل اسم كل خليفة من خلفاء الفاطميين ، فقد ظل الدينار المعزى اساس التعامل الثابت فى مصر فى العهد الفاطمى •

وكان هذا الدينار مرتفع القيمة فى بداية العهد الفاطمى ، وذلك بسبب كميات الذهب الهائلة التى أحضرها الفاطميون معهم من المغرب

---

(١) ضربت دنانير فى مصر فى عهد الاخشيديين فى الفسطاط بمصر وفى الرملة بفلسطين وقد ضربت هذه الدنانير بمصر فى عهد الخليفة الراضى وولاية محمد بن طغج من سنة ٣٢٣ الى ٣٢٩ هـ وكان يذكر فيها اسم الخليفة وحده . وضربت دنانير فى عهد الخليفة المتقى ٣٢٩ نقش عليها اسم محمد بن طغج وحده ومعه الامير الاخشيد . وبعد ذلك ضربت دنانير بعد هذا العام وجد عليها اسم الخليفة المتقى واسم الاخشيد . كذلك ضربت دنانير فى عهد أونوجور من سنة ٣٣٦ الى ٣٤٧ هـ كان ينقش عليها اسم الخليفة المطيع واسم أبو القاسم بن الاخشيد . كذلك وجدت دنانير لعلى بن الاخشيد من سنة ٣٥٠ الى ٣٥٥ هـ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المطيع . ولم تنتشر دنانير فى عهد كافور ، اما بعد كافور فكانت الدنانير تحمل اسم الخليفة المطيع واسمى الامير احمد بن على بن الاخشيد وعمه الوصى عليه الحسين ابن عبيد الله بن طغج (سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشـيديين ، ص ١٩٢ — ١٩٥) .

(٢) وهو ينتسب الى الخليفة العباسى الراضى بالله الـذى ولى الخلافة من ٣٢٢ هـ حتى ٣٢٩ هـ .

(٣) (Ehrenkreutz : Byzantine Tetartera, p. 184).

(٤) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٧

ثم فيما بعد من غرب أفريقية الى مصر (١) . كذلك بسبب ذهب بيزنطه الذى جاء به التجار الى مصر (٢) • وساوى هذا الدينار فى قيمته الدينار الاغبى . أى أن قيمته كانت ١٩ر٤ جرام . ووصل أعلى وزن له الى ٤٫٢٣٣ جرام • وقد ثبت من فحص مئات القطع من هـــذه الدنانير المحفوظة بالمتاحف ان هذا الوزن ظل ثابتا وأن كمية الذهب التى كانت بالدينار المعزى ظلت خالصة طوال معظم العصر الفاطمى (٣) . وكان الدينار المعزى يساوى ½ ١٣ درهم نقرة ؛ وتراوح سعره من الدراهم السوداء ما بين ٣٢ و ٤٠ درهم أسود خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين وفقا لما أشارت به وثائق الجنيزة فى هذا الصدد (٤) • وقد طبق التعامل بهذا السعر فى حسابات دار الصرف التى تحدثت عنها الجنيزة ؛ وأيد هذا السعر منصور بن بعره المشرف على دار الصرف فى عهد الملك الكامل الايوبى (٦١٥ — ٦٣٦ هـ/١٢١٨ — ١٢٣٨ م) ؛ فقد ذكر ان هـــذا السعر للدينار ظل ثابتا فى التعامل فى دار الصرف لمدة قـــرنين من الزمان (٥) •

وسك الفاطميون دينارا صغيرا يساوى ربع الدينـــار الذهب ؛ وعرفت هذه العملة فى أسواق أوروبا الغربية باسم « تارين » Tarin وقد استمرت هذه الدنانير رائجة فى أسواقها حتى القرن الســـادس

---

(١) Lombard : l'or musulman, p. 158.

(٢) Darrag : L'Egypte sous le règne de Barsbay, p. 91.

وكان اهم ما يميز العملة الفاطمية العبارة التى تدل على جودتها فكان ينقش عليها عبارة « عال » أو « عال غاية » وهذه العبارة هى العلامة اى الرمز الذى يبين صرف العملة على المعيار الرسمى — ماجد : نظم الفاطميين ص ١٢٨

Goitein : the exchange of gold, p. 41.

(٤) Goitein : Op. Cit., p. 41.

٥ — ابن بعرة : كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

الهجرى (١) • كذلك كانت تضرب فى عهد الدولة الفاطمية فى مناسبة أول العام عملة تعرف باسم « الغرة » وهى من الدنانير المدورة (٢) •

هذا وقد تحدثت وثائق الجنيزة عن تذبذب سعر الدينار فى العصر الفاطمى عند تحويله الى دراهم تبعا لتدهور قيمة الفضة التى كانت فى الدراهم على مرور الايام ؛ وبسبب تآكل الفضة أو تداخل الغش فيها • فهنالك قسيمة زواج ورد فيها ثمن الجهاز الذى اصطحبته العروس معها وتقدر قيمته بمبلغ ١/٣ ١٣٠٠ درهم نقرة دفع منها ٢/٣ ٦٦٦ درهم مقدما وذكر أنها تساوى خمسين دينارا أى أن الدينار منها كان يساوى ١/٣ ١٣ درهم نقره (٣) • وهنالك حالات خاصة وصل فيها سعر الدينار الذهب الى ١٢ درهم نقره ، وأربع حالات أخرى وصل فيها سعره الى ١٧ درهم نقره • وكان الدرهم النقره هو أساس التعامل بالنسبة لتجار أعالى البحار ؛ وكان هؤلاء التجار يبحثون عن الفضة النقره ويشترونها من الاسواق • (٤)

وفى العصر الفاطمى تعددت دور الضرب فى مصر والشام ،فوجدت دور للضرب فى القاهرة والفسطاط والاسكندرية وتنيس وقوص ؛ وفى صور وعسقلان وطبرية ودمشق (٥) • ونظرا لتحكم مصر فى التجارة العالمية فى العصور الوسطى فقد راج دينارها فى كل العالم وخاصة فى بلاد المحيط الهندى شاملا سيلان وسواحل ملبار حتى سوقطرة ومدغشقر (٦) •

---

(١) Lombard : Op. Ct., p. 152.

(٢) ماجد : نظم الفاطميين ، ص ١٢٨

(٣) Goitein : the exchange of gold, p. 45.

(٤) Goitein : A Mediterranean Society, p. 368.

(٥) ماجد : نظم الفاطميين ، ص ١٢٦

(٦) Lombard : Op. Cit., p. 153.

ولم يقتصر التعامل المالى فى أسواق مصر على العملة الفاطمية فحسب بل كانت تتداول فى الاسواق عملات أخرى مختلفة • فقد أبقى الفاطميون التعامل بالعملات التى كانت متداولة فى مصر قبل سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م • فراج حتى ذلك التاريخ الدينار الراضى والدرهم الرباعى (المضروب فى عهد الخليفة المأمون) • وفضلا عن ذلك فاننا نجد الدينار الابيض الذى كان متداولا فى عهد الامويين رائجا حتى ذلك التاريخ فى أسواق مصر الفاطمية • كذلك كانت دراهم بنى زيرى المغربية تتداول فى أسواق مصر الفاطمية وكان الطلب عليها كبيرا حين كانت كمية الفضة بها كبيرة • لكن هذه الدراهم فقدت قيمتها فى أسواق مصر فى أواخر أيام حكم الزيريين بسبب نقصان كمية الفضة بها نقصانا شديدا • وبلغ من سوء حال هذه الدراهم أنها لم تعد تقبل فى أسواق مصر ولم يكن التجار يتعاملون بها فى الاسواق • ووصل السوء بهذه العملة حدا أن الدينار المصرى الواحد كان يساوى مائتى درهم منها [1]• وكان الدينار الصورى — الذى ضرب فى مدينة صور واستخدمه أهل الشام والعراق فى معاملاتهم منذ أيام الفاطميين — متداولا فى أسواق مصر الفاطمية • ولم يبطل ضرب هذه الدنانير الصورية الا بعد وفاة الخليفة الآمر بالله الفاطمى ، غير أنها ظلت متداولة بين المسلمين مدة طويلة برغم سقوط مدينة صور فى يد الصليبيين سنة ٥١٨ هـ ١١٢٤ م [2] •

كذلك تدوول فى أسواق مصر الدينار القراضة ؛ وهى القطع الصغيرة التى تقص من الدينار والدرهم وتستخدم فى التجارة • وتدوولت أيضا

---

(١) Goitein : A Mediterranean Society, p. 391.
— يذكر جواتيين ان احدى وثائق الجنيزة ذكرت انه فى اواخر ايام الفاطميين ساوى الدينار المصرى ١٦٠٠ درهم من هذه الدراهم •

(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٧٤

القراطيس الافرنجية ، وهى عملة من الفضة تعامل بها الصليبيون فى الشام — والقراطيس فى الاصل هى القضبان من الفضة — وقد كثر تداول هذه القراطيس بين المسلمين بالشام وكانت تقدر بحسب قيمتها من الدينار فكانت تزيد تارة وتنخفض تارة أخرى (١) •

كذلك تداولت الدنانير الصليبية فى أسواق مصر ،ذلك أنه على الرغم من قيام الحروب الصليبية فان نظام التعامل المالى بين الشرق والغرب لم يتغير • وقد قلد الصليبيون فى عملتهم العملة التى وجدوها فى المنطقة التى أسسوا فيها أماراتهم ، فسكوا دينارهم على نسق الدينار الفاطمى وقلدوا الدينار المستنصرى والدينار الاموى ، وكانت نسبة الذهب فى الدينار الفاطمى أعلى من طيلتها فى الدينار الصليبى (٢) •

وأشارت وثائق الجنيزة الى وجود الكثير من العملات الاجنبية الاخرى متداولة فى أسواق مصر فى العصر الفاطمى ، وكان الدفع يتم احيانا بالدينار الصورى والدينار البيزنطى وبالدينـــار السجلماسى (الشاكرى) • وتشير وثائق الجنيزة الى تدفق العملات الذهبية والفضية من المغرب على مصر فى خلال النصف الاول من القرن الخامس الهجرى وخاصة من تونس ثمنا للبضائع الواردة من بلاد الشرق (٣) • وفى سنة ٣٩١ هـ/١٠٠٠ م صدرت الى مصر كميات كبيرة من الفضة المغربية لدرجة أننا نجد تاجرا من القيروان يسأل مراسله أن يشترى له دراهم القيروان من أسواق الفسطاط • ولما هاجمت قبائل بنو هلال وسليم المغـــرب الارسط ومنعوا وصول ذهب السودان الى القيروان تغير الحال وأصبح النقد الصقلى والرومى أهم العملات العالمية ، كما شاركهم دينـــار

---

(١) الشيزرى نفس المصدر السابق ، ص ٧٥ •

(٢) Ehrenkreutz: Arabic Dinars struck by the Crusaders, JESHO, V. VII part II, 1964, p. 178).

(٣) Goitein: the exchange of gold, pp. 45-46.

المرابطين هذه الاهمية • ففى سنة ٤٥٧ هـ/١٠٦٤ م أرسل تاجر تونسى الى مصر دنانير من بالرمو بدلا من دنانير المهدية لانه — كما كتب — « لا يأمل فى أن تجد الاخيرة سوقها فى الفسطاط » (١) • وقد احتل الدينار المرابطى فى أسواق مصر المكانة السامية لان المرابطين تملكوا مصادر ذهب غربى السودان • وكان الحصول على هذه الدنانير المرابطية صعبا • ويدلنا على ذلك الخطاب التالى الوارد فى سنة ٤٩٤ هـ/١١٠٠ م يقول صاحب الخطاب لوكيله التاجر فى الفسطاط : « أرسلت اليك مائة دينار مرابطى كاملة الوزن وكان سعرها بعملة المهدية ٢٦٧ الا ثلث دينار، وكان شغلى الوحيد هو جمع هذا المبلغ الذى نجحت فى شرائه ؛ وهذه الدنانير هى دنانير بكريه ودنانير اغمتيه » (٢) • وكانت الحاجة ماسة فى أواخر الدولة الفاطمية لدنانير المغرب لانها أصبحت العملة العالمية فى ذلك الوقت ، وكان تجار المغرب يطلبون الدفع بعملتهم عند وصولهم الى أسواق مصر •

وفى نهاية القرن السادس الهجرى ألمت بالعملة المصرية ضائقة حدثنا عنها المقريزى ، ومؤداها أن الذهب والفضة اختفيا من مصر عند سقوط خلافة الفاطميين وقيام دولة الايوبيين وأثر هذا بالتالى على مستوى العملة المصرية (٣) • وقد ذكر المؤرخون أن صلاح الدين عمل على رفع قيمة العملة المصرية لانقاذها من الحالة المتردية التى وصلت اليها

---

(١) Goitein : A Mediterranean Society, p. 235.

(٢) الدنانير البكرية نسبة الى الامير أبو بكر بن عمر اللمتونى أمير المرابطين الذى حكم من سنة ٤٥٠ — ٤٨٠ هـ/١٠٥٨ — ١٠٨٧ م • والدنانير الاغمتية هى الدنانير التى سكت فى مدينة أغمات بالمغرب فى بداية سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م •

Goitein : Op. Cit., pp. 235-236.

(٣) السلوك ، جـ ١ القسم الاول ، ص ٤٦ •

(تناقصت دور الضرب فى مصر فى عهد الايوبيين بعد ندرة الذهب ونضوب موارده فى الصحراء الشرقية الى دارين فقط بعد أن كانت خمسة) •

(Darrage : Op. Cit., p. 92).

فأمر سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م بسك درهم تكون نسبة الفضة فيه ٥٠٪ من وزنه • وذكر أبو شامة وغيره من المؤرخين للعصر الايوبى أن الدينار فى عهد صلاح الدين كان يساوى تسع دراهم من هذه الدراهم التى سكها صلاح الدين وأن نقاء هذه الدراهم استمر قائما حتى سنة ٦٣٧ هـ ١٢٣٩ م • وذكر ابن سعيد الاندلسى أن الدرهم الناصرى كان يساوى ثلاثة دراهم سوداء ؛ وورد ضمن كلامه أن الدينار كان يساوى ٢٧ درهما أسودا (١) • وقد استمر التعامل بالدرهم الاسود الفاطمى فى عهد صلاح الدين ؛ الا أن قيمة هذا الدرهم انخفضت وأصبح الدينار سنة ٦٢٠ هـ/١١٢٣ م يساوى أربعين درهما اسودا •

وسك السلطان الملك الكامل الايوبى دينارا نقيا كانت نسبة الذهب فيه ١٠٠٪ (٢) كذلك سك درهما جديدا كانت نسبة الفضة فيه ٦٦٪ من وزنه • وفى وثيقة من وثائق الجنيزة نعرف أن كل ٢٫٨٥ من هذه الدراهم الكاملية كانت تساوى درهم فضة نقرة (٣) •

وقد تغيرت قيمة الدرهم فى العهد الايوبى من وقت لاخر • فنجد الدينار سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م يساوى ١٢٫٨ درهما نقرة و ٤٤ درهما أسودا ؛ وفى سنة ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م كان الدينار يساوى ½ ١٢ درهما نقره و ½ ٣٥ درهما أسودا •

وانتشرت فى عهد الملك الكامل ايضا الفلوس النحاسية ؛ وكانت قيمتها دائما متغيرة ففى سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م كان الدينار يساوى ٤٥ فلسا ؛ ثم وصلت قيمة الدينار بعد ذلك التاريخ الى ٨٠ ؛ ٩٠ ؛ ١٢٠

---

(١) Ashtor: Op. Cit., pp. 122-123.
(٢) Ibid., p. 120.
(٣) Ibid, p. 123.

فلسا (١) • هذا وقد أصدر الملك الكامل مرسوما فى سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م بحظر التعامل بالعملات النحاسية ، كذلك جدد خليفته الملك العدل الثانى نفس قرار الحظر فى سنة ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م (٢) •

وكان تبادل العملة وتغييرها من أهم مظاهر العمل بالاسواق وذلك بسبب المركز التجارى العالمى الذى تحقق لمصر لتحكمها فى التجـارة العالمية بين الشرق والغرب ، ولان الحكومات المصرية المتعاقبة لم تكن تسحب العملات القديمة من الاسواق التى يقل وزنها مع التداول • وتحتوى وثائق الجنيزة على مادة طيبة لعمليات تبادل العملة فى أسواق مصر • فقد وجدت فى الجنيزة خطابات تشير الى عملات مرسلة من أماكن مختلفة الى مصر والى رغبة أصحابها فى مبادلتها بالدنانير المصرية ؛ وقد أشير الى هذه العملات فى بعض الاحيـان بالارباع (أى ربع الدينار) ، وأشير اليها فى بعض الاحيان الاخرى باسم الحاكم أو البلدة المسكوكة بها ، كما أشير الى حالة العملة حديثة كانت أم قديمة • فعلى سبيل المثال لدينا عقد زواج يرجع الى سنة ٦٣٩ هـ/١٢٤١ م ورد فيه الآتى : « عشرة دنانير مصرية قديمة فى حالة جيدة ، وعشرة ارباع رومية (نورماندية) من نوع جيد وزنها الكامل مائة مثقال وسعرها ٥٨ دينار مصرى » (٣) •

وكان الطلب دائما على العملة الحديثة العهد • فنجـد الدينار العزيزى (نسبة الى العزيز بالله) يشكل محور عملة وثائق الجنيزة فى الفترة ما بين ٣٣٥ — ٣٧٣ — ٤١٧ هـ/٩٧٣ — ١٠٠٤ — ١٠٢٦ م • وفى وثائق سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧م يرد اسم الدينار المعزى على أنه بيع(فى هذا

---

(١) Ashtor: Histoire des prix, p. 123.
(٢) Darrag: Op. Cit., p. 102.
(٣) Goitein: A Mediterranean Society, p. 237.

النعام) بثلاثة ارباع الدينار الحالى (العزيزى) • ولكن على الرغم من ذلك كان الدينار المعزى فى عهد المستنصر بالله هو الدينار المطلوب حتى بعد مرور ثمانين عاما على سكه ، وكذلك الارباع الصقلية وهنالك تاجر من المهدية يرسل الى عميله بالفسطاط يستفسر منه اذا كان يريد أن يرسل اليه أرباع مغربية لانه سمع انها تساوى فى أسواق مصر اكثر من ثمنها فى تونس (١) • وهنالك فقرة وردت فى خطاب من الجنيزة يقول فيها مرسله : « أرسلت اليك صرة بها خمسون دينار لا قيمة لها هنا فى الاسكندرية ، ولكن لها المقام الاول فى الفسطاط فأرجوك أن تستبدلها لى بدنانير دمشقية حديثه لانى أعلم أنك تعرف ذلك • وقد اتفقت مع صهرك على أننى سوف اتسلم دينارا عن كل ....وسوف أرسل لك صرة أخرى فى نهاية العطلة ، وأرجوك أن تنفذ الطلب سريعا لانى فى حاجة ماسة ومستعجلة لهذه العملات » (٢) •

وكان تغيير العملة يتم فى دار الصرف • هذا وقد أشارت وثائق الجنيزة الى دار الصرف التى كانت موجودة بالفسطاط ، كذلك أشارت الى المركز الممتاز الذى كان للصيارفة به • فلدينا وثيقة تتحدث عن أحد الصيارفة ، ويدعى ابراهيم وعاش فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، وكان يعمل قاضيا بجانب عمله فى دار الصرف ، وكان عنوانه كالاتى :

« دار الصرف ، دكان ابراهيم ابن العالم الصراف » • وفى خطاب آخر ورد القول عنه : « هو فى دار الصرف ، وله ثروة طائلة ، فليبارك الله له ويحفظه من أعدائه ومن حاسديه » (٣) •

وقد تحدثت وثائق الجنيزة عن اسلوب التعامل بالشيك (السفتجه)

---

(١) Goitein : Op. Cit., p. 237.
(٢) Ibid., p. 238.
(٣) Ibid., p. 238.

فى عهد الفاطميين والايوبيين (١) • وهذا النظام فارسى الاصل دخل العالم الاسلامى حين وفد تجار الفرس الى بغداد فى العصر العباسى الاول واستخدموا فيها هذا النظام المالى المتبع عندهم منذ أمد بعيد • ولقى هذا النظام قبولا عند الناس فى بغداد وعند الحكومة أيضا وانتقل من بغداد الى مصر (٢) • وقد وجدنا فى وثائق الجنيزة سفتجه مرسله من طرابلس بليبيا الى الفسطاط بمبلغ مائتى دينار (٣) • كذلك أرسل الاخشيد صاحب مصر الى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقله أيام أن كان معزولا (٤) •

وأظهرت لنا وثائق الجنيزة نظام التعامل (بالرقاع) ، وهى أن يرسل شخص الى بقال أوراق فيها اسم السلع التى يريدها وثمن هذه السلع وتحمل هذه الاوراق توقيعه ، فيرسل له التاجر ما يريد ويحتفظ لنفسه بهذه الرقاع ، وفى آخر الشهر يرسلها الى صاحبها ليتسلم منه ثمن ما أخذه • وهنالك كثير من هذه الرقاع محفوظ ضمن وثائق الجنيزة ، هذا ولم يكن التعامل بهذه الرقاع مقصورا على أفراد الشعب فحسب بل كانت الحكومة ايضا تتعامل بها (٥) •

كذلك كان يقوم بتغيير العملة عدد من المرابين فى الاسواق ، وكانوا يأخذون فائدة على الاموال التى يغيرونها ، كذلك كانوا يأخذون فوائد على القروض التى يقدمونها للتجار (٦) •

---

(١) Goitein : Bankers accounts, p. 29.

(٢) Navdi : Industry and commerce under the Abbassids, JESHO, IX, 1966, pp. 28-29).

(٣) Goitein : Bankers accounts, p. 29.

(٤) سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ١٩٥ ، نقلا عن ابن سعيد •

(٥) Goitein : Op. Cit., p. 28.

(٦) Goitein : Op. Cit., p. 235.

وكانت المعاملات المالية الضخمة تتطلب وسائل لدفع مأمونة من الضياع ، خفيفة الحمل ، وبعيدة عن متناول اللصوص . ومن هذه الوسائل الحوالات التى كثر استعمالها فى الدولة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى . وقد قام الصيارفة والوكلاء فى ذلك العصر مقام البنوك فكان التجار يأخذون رقاعا منهم بما لديهم من الاموال ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه عليهم (١) .

كذلك كانت الصكوك تستعمل كوسائل لدفع المال (٢) . فقد عرف المسلمون التعامل بالصك منذ عهد عمر بن الخطاب (٣) . وقد أورد ناصرى خسرو انه حين كان فى أسوان أخذ من صديقه أبى عبد الله محمد بن فليج كتابا الى وكيله بعيذاب يقول فيه ما نصه : « أعط ناصرا ما يريد وهو يعطيك صكا للحساب » . وقد اعطى ناصرى خسرو الكتاب الى وكيل صديقه بعيذاب بعد أن مكث فى عيذاب ثلاثة أشهر أنفق فيها ما معه من مال ، فأعطاه الوكيل ما أراد وأعطاه صكا بما اخذ وأرسله الى أسوان (٤) .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٨
(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ص ٣٢٠
(٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٨
(٤) سفر نامة ، ص ٧٤

الملاحق والوثائق

ملحق رقم (١)

نسخة سجل أصدره السلطان صلاح الدين الايوبى
عقب وفاة الخليفة العاضد وانتهاء الدولة الفاطمية
باسقاط المكوس فى مصر — قرىء على المنبر بالقاهرة
يوم الجمعة ثالث صفر سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م (١)

« أما بعد فانا نحمد الله سبحانه وتعالى على ما أمكن لنا فى الارض وحسنه عندنا من أداء كل نافله وفرض ونصبنا له من ازالة النصب على عباده واختار لنا من الجهاد فى الله حق جهاده وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل والهمنا من محاسبة أنفسنا على النقير والفتيل وأولانا من سماحة السماحة فيوما نهب ما اشتملت عليه الدواوين ويوما نقطع ماسقاه النيل فالبشائر فى أيامنا تترى شفعا ووترا والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الاخرى والمسامحات قد ملات المسامع والمطامع وأسخطت الخبيثة والصنايع وأرضت المنبر والجامع ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من أن تكون لنا فى الدنيا أن تكون لنا فى الآخرة وأن نتجرد منها لنلبس أثواب الاجر الفاخرة ونطهر منها مكاسبنا ونصون منها مطالبنا ونكفى الرعية ضرهم الذى يتوجه اليهم ونضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ونعيدها اليوم كأمس الذاهب ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب فاستخرنا الله وعملنا اليه ليرضى ورأينا فرضه أجر لا نغض عليها بصائر الابصار ولا يغضى وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور

---

(١) ابو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٣ .

بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين اليهما والى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها فيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر برا وبحرا مركبا وظهرا سرا وجهرا لا يحل ما شده ولا يحاول ما عنده ولا يكشف ما ستره ولا يسأل عما أورده وأصدره ولا يستوقف فى طريقه ولا يشرق بريقه ولا يؤخذ سه طعمه ولا يستباح له حرمه • والذى اشتملت عليه المسامحة فى السنة من العين : مائة ألف دينار مسامحة لا يشوبها تأويل ولا يتخوفهـــا تحويل ولا يعتريها زوال ولا يعتورها انتقال دائمة بدوام الكلمة . قائمة ما دام دين القيمة من عارضها ردت احكامه ومن ناقضها نقض زمانه ومن أزالها زلت قدمه ومن أحالها حل دمه ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفى عنبه ومن احتاط لدنيا ؛ فيها احاط به الجحيم الذى هو من حطبه • فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاة الامر من صـــاحب سيف وقلم ومشارف أو ناظر فليمتثل ما مثل فى الامر وليمعنه على ممر الدهر مرضيا لربه ممضيا لما أمر به •

ملحق رقم (٢)

أسماء مجموعات وثائق الجنيزة الموجودة فى العالم

(مرتبة ترتيبا أبجديا) (١)

— Adler Collection	= New York, Jewish Theological Seminary.
— Alliance Israélite	= Paris, Conisistoire Israélite.
— Amran Collection	= Philadelphia, Dropsie College.
— Antonin	= Leningrad, MS. Antonin.
— Bodleian	= Oxford, Bodleian Library.
— British Museum	= London, the British Museum.
— Cairo	= Private Collection, Mossori.
— Chapira	= Prviate Collection, Chapira.
— Cheif Rabbinate Collection	= Cairo, Private Collection, Mossori.
— Consistoire Israélite	= Paris, Consistoire Israélite.
— Cowley	= Private Collection, Cowley.
— C.U.L.	= Cambridge University Library.
— Dropsie College	= Philadelphia, Dropsie College.
— Firkowicz	= Leningrad, MS. Firkowicz.
— Gottheil	= Private Collection, Gottheil.
— Gottheil-Worrell	= Washington, Freer Collection.
— Harkavy	= Leningrad, MS. Harkavy.
— Hebrew University	= Jerusalem, the Hebrew University, National and University Library.

(1) Goitein, S :
« A tentative Bibliography of Geniza Documents, Paris 1964, pp. 23-24.

— J.T.S.	= New York, Jewish Theological Seminary.
— Kaufmann Collection	= Budapest, Magyar Tudomanyor Akadémia Kowyotora.
— Lévi	= Private Collection, Israél Lévi.
— Lewis-Gibson	= Cambridge, Westminster College.
— Mann	= Private Collection, Mann.
— Merx	= Private Collection.
— Meunisr	= Private Collection.
— Mittwoch	= Private Collection.
— Masseri	= Private Collection.
— National bibliothek	= Vienna, Erzheszg Rainer Collection.
— Neubauer	= Private Collection.
— Rainer	= Vienna, National bibliothek.
— Reinach	= Private Collection, Theodore Reinach.
— St. Petersburg	= Leningrad.
— Sassoan	= Private Collection.
— Speer Library	= Princeton, Princeton Theological.
— Solzberger	= Philadelphia; Dropsie College.
— Toledano	= Private Collection.
— T.S.	= Cambridge University Library, Taylor-Schechter Collection.
— U.L.C.	= Cambridge, University Library.
— Westminster College	= Cambridge.
— Wolff	= Private Collection.

ملحق رقم (٣)

بيان بمجموعة وثائق الجنيزة الخاصة بتجارة الهند [1]

※ من مجموعة بودابست :
(Budapest — Magyar Tudomanyas Akadémia)

— خطاب بالعربية مرسل من عمران بن يوسف الى نيثنيل بن جاءث التاجر وبه تقرير عن كمية من الكافور مرسلة من أهنـد الى عدن .

※ من مجموعة كمبردج : (Cambridge — University Library)

— خطاب بالعربية خاص بقضية التاجر الليبى يوسف اللبدى أمام محكمة بالفسطاط سنة ٤٩٢ ﻫ (١٤ يونيو ١٠٩٨ م) .

— خطاب خاص بقضية التاجر ابن سجمار يوسف اللبدى سنة ٤٩١ ﻫ/١٢ نوفمبر ١٠٩٧ م .

— خطاب مرسل الى التاجر ميمون من أخيــه داود يصف فيه أهوال الطريق ما بين الاقصر وعيذاب .

— خطاب بالعربية مرسل الى ابراهيم ميمون يسأل فيه مرسله عن حق الزوجة الشرعى حين يغيب زوجها مدة طويلة فى تجارة الهند .

— خطاب بالعربية مرسل الى داود يوسف اللبدى خاص بتجارته فى عدن .

— كشف حساب عن مصنع فخار يمتلكه تاجر يعرف بأسم ابن بيجو وخطابان بخطه الى ناخوداه السفينة عبد الله بن الكتايب .

---

(1) Goitein, S :
« A tentative bibliography of Geniza Documents, pp. 38-208.

— جزء من تعاقد على قيام شركة تجارية بين تاجرين من عـــدن يرجع الى سنة ٦٢٢ — ٦٢٣ هـ/١٢٢٥ — ١٢٢٦ م .

— قطعة من خطاب بالعربية مرسل من يوسف بن ابراهيم فى عدن الى ابى ذكرى كوهين بالقاهرة يشرح له فيه تطورات الاحداث السياسية باليمن .

— خطاب بالعربية من أبى ذكرى كوهين الى أبى ذكرى يحيى ابن سليمان وهو مرسل من عيذاب الى القاهرة فى الفترة ما بين ٥٣٥ — ٥٣٦ هـ/١١٤٠ — ١١٤١ م .

— خطاب من يعقوب بن سليم باليمن الى حلفون بن نيثانيل خلال فترة اقامة الاخير باليمن سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٣ م .

— مقدمة خطاب بالعربية مرسل من مضمون بن جافث بعدن الى ابن بيجو بالهند .

— خطاب أرسله ابن بيجو من عدن الى الهند .

— مسودة نصف خطاب من القاهرة الى عدن ورد فيها أسماء عديد من تجار الهند وتجار الكارمية .

— خطاب يتصل بأعمال ابن عم عروس بن يوسف أثناء اقامته فى اليمن .

— طلب استغاثة ارسله حلفون بن نيثانيل الى يوسف العدنى بعد غرق سفينته .

— خطاب مرسل من يوسف بن ابراهيم به طلبات شراء ملابس من عدن الى القاهرة .

— خطاب عمل من مضمون التاجر فى عدن الى ابن بيجـــو فى الهند .

— قضية شرعية خاصة بابن الجماهير التاجر الذى تزوج من جارية فى عيذاب وولدت له طفلا أنكر نسبته اليه أمام قاضى عيذاب •

— خطاب من الاسكندرية الى عدن أرسله تاجر عدنى يريد السفر الى عكا لكن السلطات منعته من أن يسافر على سفينة فرنجية •

— خطاب من قوص يعلن عن وصول التاجر مرسله من رحلة فى الهند •

— خطاب من خلف بن اسحق يذكر فيه هجوم أسطول ملك كيش على عدن •

— خطاب من حلفون بن نيثانيل فى عيذاب الى أخيه الاكبر التاجر بالقاهرة •

— جزء من خطاب ورد من عدن الى مصر وورد فيه بيع ملابس وكتب وبضائع مختلفة فى عدن •

— أجزاء من خطاب واحد كتبت منه نسختان متشابهتان بخطين مختلفين من مضمون بن جافث بعدن الى ابراهيم بن ييجو •

— تفاصيل فى خطاب ورد من عدن الى الهند عن وصف تحطم سفينة ابراهيم بن حلبو بالقرب من دهلك •

— تفاصيل فى خطاب عن أشخاص هلكوا بسبب تحطم سفينتهم فى البحر الاحمر . وردت هذه التفاصيل على لسان اسحق بن هارون بدهلك الى حلفون التاجر •

*** من مجموعة المتحف البريطانى :**

— خطاب من التاجر علان بن نحرى من عيذاب الى ابنه بالاسكندرية •

* مجموعة نيويورك : (Jewish Theological Seminary of America)

— حسابات ابن بيجو لسلع شرقية باعها فى عدن بعد عودته من الهند .

— أجزاء من خطاب مرسل من اليمن الى الهند يتحدث فيه كاتبه عن فقدان مبلغ ١٢٠٠ دينار مليكى (يمنى) وغرق بعض السلع فى البحر .

— خطاب من عدن يصف فيه كاتبه التاجر الكارمى حياة البؤس والوحدة التى يعانى منها التاجر الكارمى ويبدى كاتب الخطاب أسفه على موت أحد أصحابه .

— خطاب خاص مرسل من تاجر فى الهند الى زوجته فى مصر يتأسف فيه لزوجته عن طول غيابه وعن عدم استطاعته ارسال هدايا لها أو نقود بسبب كارثة اعترضت طريق رحلته .

* من مجموعة أكسفورد : (Bodelian Library Oxford)

— مخالصة بمبلغ مائة دينار سلمت فى القاهرة سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨ م . سلمها التاجر البغدادى والدمشقى الى شريكهم الحلبى الذى تاجَرَ بهذا المبلغ فى اليمن .

— اعترافات أدلى بها فى محاكمة تتصل برحلة الى عدن أو الهند قام بها التاجر بركات بن يوسف اللبدى سنة ٥٣٠ هـ/الثلاثاء ٣ يناير ١١٣٥ م .

— خطاب مرسل الى حلفون بن نيثانيل أرسله نه وكيله فى عدن خلف بن اسحق ردا على خطاب أرسله له من عيذاب .

ملحق رقم (٤)

ثبت بأسماء الشخصيات التجارية الهامة التى وردت فى وثائق الجنيزة (١)

١ — ابراهيم ميمون ، وهو ابن ميمون الاكبر التاجر والعالم ، ولد سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م ومات سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م •

٢ — ابراهيم بن شيمايا ، عاش سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م •

٣ — ابو الفرج (من المرجح أن يكون ابو الفرج بن ابى زكريا وكان قاضيا بالفسطاط سنة ٧٠١ هـ/١٣٠١ م •)

٤ — حلفون ليفى بن منسى التاجر •

٥ — الحزان بايان ، عاش حوالى سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م •

٦ — عمانويل بن يحييل ، وهو من أسرة يحييل التى عاشت فى القرن السادس الهجرى •

٧ — يعقوب بن يوسف حاسدى •

٨ — مبارك بن ناتان ، وله توقيعات على وثائق من القـــرن السادس الهجرى •

٩ — نحرى بن نسيم وهو عالم وتاجر شهير عاش فى الفترة ما بين ٤٤٣ — ٤٩٢ هـ/١٠٥٠ — ١٠٩٨ م

١٠ — أبو سعد ابراهيم بن ابو الفضل سهل التسترى ، وكان له نفوذ كبير فى عهد الخليفة المستنصر بالله •

الاسماء العربية التى اطلقها العرب على بعض الاسماء اليهودية كما وردت فى وثائق الجنيزة •

ناتان	=	هبـــة
ابراهام	=	ابراهيم
كفـــاه	=	بطرس
شاؤول	=	بولس

(1) Gottheil: Fragments from the Cairo Genizah, pp. 25-30.

الوثائق

بعض وثائق الجنيزة

وثيقة رقم (١)

كشف حساب موقع باسم شخص غير معروف الى أبى الافراح عروسة يوسف ، وليس على الكشف تاريخ أو مكان محدد ٠ ورد فى هذا الكشف مصاريف وتكاليف ورسوم البضائع المبينة فيه (١) ٠

بسم الله المبـــارك

١ ــ قائمة حساب الشيخ ابو الفرح عروسة يوسف ٠

٢ ــ لك فى ذمتى ياسيدى بالة أثواب أرجوانية وزنها ٤ قناطير ٠

٣ ــ وثلاثة أرباع سعر البضاعة الذى هو ١٤ للقنطار والتى سعرها ٦٦ ٠

٤ ــ دينار وربع ولك ثلاثة أرباع دينار من الخيط الدوبارة ورداء وحزام وسط ٠

٥ ــ ولك ٥ دنانير من البرسيم المخصص للحيوانات ، وجملة القيمة تصبح ٧٢ دينار ٠

٦ ــ ما يخصم من ذلك المبلغ : شحن سفينة ، ١

(١) Cottheil : Fragments from the Cairo Genizah, pp. 165-167.

صورة هذه الوثيقة أوردها جوثيل فى كتابه : Gotheil : Fragments of the Cairo Genizah, pp. 45-47.

٧ — بقشيش للنواخدة : ١ رسوم زمام : ½ دينار

٨ — (أجرة) تشميع وجهبزة وتوقيع على الاوراق وما دفع غير ذلك

٩ — الى أبو محمد ٨ من الدينار • تصريح واحد ونصف

١٠ — حمالون ½ ٢ ؛ نثريات ربع ؛ الملاحظ ؛ الثمن

---

١١ — ما صرف فى رشيد : ايجار سفينة ⅛ دينار

١٢ — مكوس ؛ ربع وسدس حبه لشخص ؛ ١ ؛ الرسو فى الميناء

١٣ — ربع ؛ تسجيل نصف وتمن • خبز لحادى الجمل وللنساء (المحارم)

١٤ — ربع وثمن • معدية ؛ ١ — ٣ ؛ محارم ثلاثة ارباع

١٥ — عند بوابة الاسكندرية لشخص ؛ واحد ونصف ؛ برانية ربع

١٦ — مبيت لمدة ليلتين وحراسة وزمزمية ماء ولبواب المنزل والملاحظ

١٧ — وتذكرة وخطاب ولف وحمل البالات الى السوق

١٨ — وربع ايجار جمل سدس وربع قيراط

١٩ — لوكيل الديوان ؛ دينار و ١٥ قيراط ونصف • الخيط نصف وربع

٢٠ — الى ابن عين الدولة واحد ونصف ؛ حمالون ؛ ٥ ؛ معرض

٢١ — واحد ونصف • مجرفة اثنين ونصف • حمل الى مكان الابحار

٢٢ — نصف وربع ، حمالون ، مسجلون ، هدية الى الكاتب

٢٣ — وتكاليف الابحار واحد ونصف ثمن ، بقاشيش للنواخذة

٢٤ — اثنين وهدية للريس ، ربع ، افطار لبحارة السفينة دينار

٢٥ — جملة الورق ٢٢ قيراط ونصف ونقدا ٤ دينار

٢٦ — سوى ما أنفق فى المؤونة ٥ دينار ، وزن

٢٧ — لحاجتك قيراط ونصف .

---

٢٨ — مبيع البالة من البضاعة . بيعت

٢٩ — بسعر ٦٠ للقنطار السعر الموجود فى مكتب وكيل التجار

٣٠ — أربعمائة أربعة وسبعون ، رسوم للسلطان وللشباب ثلاثة ونصف

٣١ — الوزن ٤٣٠ ونصف . القيمة ٢٦٤ وسدس وثمن

٣٢ — يخصم من ذلك : الاجور ، ٦ دنانير ونصف وثمن الرسوم

٣٣ — مشترى ٧ دينار وقيراط . للشباب والسلطان دينار

٣٤ — ونصف وربع وثمن ، زمزمية ماء نصف وثمن . مدفوع

٣٥ — عند البوابة دينار وثلث . نقص ربع دينار من الميزان

٣٦ — افطار ، ثلاثة دينار وقيراط ، مشال الى الفندق رباعى (ربع دينار)

٣٧ — هدية الى صراف دار الصرف رباعى ، ايجار

٣٨ — مكان ، رباعى — الجملة : ٢١ ونصف وقيراط .

٣٩ — هذا ما احضره وكيل التجار • والنتيجة هى : وزن

٤٠ — المباع والمشترى ؛ قيراطين ونصف رطل • السعر

٤١ — خمسة وخمسين بعد كل ما صرف • قيمة الفائدة

٤٢ — ٢٤٨ مخصوم من ذلك ٢١٢ ونصف وقيراط

٤٣ — ما حسبه وكيل التجار على وأيضا قيمة كمية من الزيت ٢٢

٤٤ — وربع وافطار ومصاريف ؛ ٦ دينار ونصف ومن باب

٤٥ — الكرم رغم ضيق الحال ؛ دينارين • المجموع ٥٢ وسدس وثمن

هامش : المتبقى يقدر بـ ••• أقل السدس ••• اشتريت من ذلك ٦٧ دينارا الا ثلث بالنقود المغربية • وكان سعر التغيير ٥ حبات للمثقال وكان العدد الكلى ٦٨ ورباعى ••••

وثيقة رقم (٢)

خطاب ارسله شخص يدعى يوسف كان يعيش فى الفسطاط وله أقارب كثيرون ، يكتب لاخيه الذى يعيش فى عدن مع بعض تجـــار الفسطاط • والاخ الذى فى عدن تاجر من تجار الهند قام برحلتين اليها والى جزيرة سيلان وقبض عليه القراصنة فى احدى هاتين الرحلتين ودفع له أقاربه الفدية وفكوا أسره • يتحدث الكاتب فى خطابه عن موت عمه التاجر فى الفسطاط أثناء غيابه فى رحلة تجارية فى الهند ومات هناك • وقد ترك هذا العم وصية غامضة خاصة فيما تستحقه زوجته من تركته بسبب أن زوجة هذا العم كانت امرأة سيئة السيرة وولدت ولدا غير شرعيا فى غيابه ، وقد ذكرت هذه الحالة فى الخطاب • وليس فى الخطاب عنوان وقد سلم يوسف التاجر هذا الخطاب الى صديق له يثق فيـــه ليسلمه باليد الى أخيه • وليس هنالك أيضا تاريخ فى الخطاب ، كمـــا ورد فى الخطاب اسم حزان ابو البيان الذى ذكـــر عنه أنه عاش فى الفسطاط حوالى سنة ٥٤٥/١١٥٠ م (١) •

١ — بسم الله الرحيم

٢ — ارسل لك خطابى يا أخى العزيز وأرجو الله أن يطيل عمرك

٣ — ويعطيك الصحة والعافية والا يحرمك من النجاح وأن يجمع شملنا

٤— فى أسر الحال عنه وسابغ عطفه اذا كان ذلك يرضى الله وما أحب أن تعرفه هو أنه

٥ — من وقت أن ذهبت الى الهند لم يأتنا أحد من طرفك وبقينا

---

(١) نص هذه الوثيقة ماخوذ عن كتاب :

Gottheil :
Fragments of the Cairo Genizah, pp. 179-183.

٦ — مشغولين عليك لكونك فى البحر الهندى حتى وصول الحاج على

٧ — الذى يدعى بأبن القزدارى ولقد سمعنا منه وأخبرنا

٨ — بكل ما وقع لك وكل ماتم بشأن موضوع وفاة المرحوم عمك رحمه الله

٩ — وكيف انك عدت من الهند

١٠ — وشكرنا الله الذى كتب لك السلامة وانك استطعت ان تلحق بعمك قبل وفاته

١١ — وبلغنا أنك لاقيت صعابا كثيرة مع عمك

١٢ — حين كان مريضا وانه كان من الصعب علينا ان نتحمل أن لا يكون أحد منا

١٣ — بجوارك ليساعدك فيما وقع لك حينما كنت طرفه

١٤ — أما بخصوص قضية عمك فان الله سوف يعطيك الثواب

١٥ — ويفتح ابواب الثروة على يديك اذا كان هذا يرضيه

١٦ — ولقد وصل الان ابن القزدارى بعد عيد الاضحى بخمسة أيام وبعد أن ابلغنا

١٧ — بخبر موت عمك كتمنا الخبر ولم يتركه والدك

١٨ — الا بعد أن جعله يقسم بالا يذكر هذا الخبر لاى أحد ونحن أخبرناه

١٩ — عن زوجة عمك وما فعلته معنا وجعلناه يقسم بألا يخبرها

٢٠ — بأى شىء مما حدث بيننا وكتمنا الامر

٢١ — سوف لا نخبر أى أحد عن أى شيء وحتى زوجتك فبالطبع سوف لا نخبرها عن خبر موت عمك

٢٢ — ولقد قال لنا القزدارى أنك تريد أن تذهب الى الهند والى كوابو ولذلك عادت لنا

٢٣ — شكوكنا الاولى وظللنا لمدة شهر ونصف مشغولين

٢٤ — حتى وصل ابن الزيات الذى يسكن فى منزل ميسر بن اجارة

٢٥ — وتقابلنا معه وأخبرنا عن عودتك الى عدن وعن كيف

٢٦ — أن السفينة التى جئت فيها هوجمت وكيف تيسر لك

٢٧ — أن تركب سفينة أخرى وكيف وصلت الى عدن سالما ومعافى

٢٨ — وبهذا لم تتخلى عنا عناية الله وليس هنالك مستحيل أمام الله واذا أراد فان الامور تسير على ما يرام ولكننا

٢٩ — زعلانين جدا لانه لم يصلنا منك جواب معه ليطمئنا

٣٠ — لذلك ظللنا قلقين حتى وصل الينا يوسف بن حفصى

٣١ — آخر ليالى رمضان ليلة عيد المسلمين ولقد تقابلنا معه

٣٢ — وأخبرنا بكل ما وقع لك وكيف أنك عدت الى

٣٣ — عدن ولكنا لم نصدق روايته حتى اعطانا خطابك الجميل

٣٤ — وقرأناه وفهمنا ما فيه وبذلك اصبحت مطمئنا ولكنا اذا ما كنا رأينا

٣٥ — خطابك كيف كان سيصبح قلبنا مطمئنا ؟ ...

٣٦ — ولقد أخذ مع ناخوداه السفينة الذى كان معه ....

٣٧ — حسد وكان معه خطاب ....

٣٨ — موسى ولذلك تسلمناه منه وحينئذ وصل ....

٣٩ — عن ذلك . وآه يا آخى لو أنه لم يحل ...

٤٠ — قرىء . وأورد خبر موت عمك

٤١ — ولم يحل أى أحد من المكان الذى أنت فيه

٤٢ — وجعلناه يقسم بألا يذكر هذا الامر

٤٣ — وقرىء فى سوق الصرف

٤٤ — ليست (أمك) مشغولة عليك ..

٤٥ — بقدر ما استطيع بالنسبة لسيدى

٤٦ — بيرم حتى بعد مرور ....

٤٧ — الاعمال بعد أن سمعوا

ظهر الوثيقة

١ — معك وأخته ، وأن سيدى ....

٢ — وعن الكتان الذى سلمه لها ....

٣ — فى حراسته ؟ حتى ..... منعته ......

٤ — بينما هى كانت مطرودة الى بعض من ....

٥ — ومعها فان الحراسة ؟ ولقد وصف ....

٦ — ما كان بشأن أم الشيخ ابن ....

٧ — عن موت عمك ، وحاولت أن تأتى ....

٨ — ولقد أقسم السيد بألا تذكر ....

٩ — كل ذلك ولذلك فانك لم تفيدنا عن ذلك الموضوع .

١٠ — ولقد ذكرت لك عن ..... وقال لنا .....

١١ — ان عمك لم يمت قبل أن يكتب لك وصية ، وظللنا ننتظر تقرير

١٢ — عن كسبه ، مرسل منك ، على ورقة . حتى نستطيع أن نعرف كيف سننفذ الوصية

١٣ — بالنسبة لك . لكن الله ! الله ! فاذا لم تستطع أن ترسل لنا نسخة من الوصية حينئذ لا

١٤ — يقوم بأى أعمال حتى ترسل لنا تقريرا عن كل شىء هناك ولا

١٥ — تهمل وشد حيلك فى هذا الامر لان هذه وصية طيبة بالنسبة لك .

١٦ — ولقد أرسلت خطابا تشكو الى السيد وتذكر له أنك أرسلت الى الانصارى

١٧ — ولكن أجبنى بالله عليك يا ابنى : هل لى أى شىء فى هذه التركة أخبرك هو عنها ؟

١٨ — وان لم تستطع يا بنى أن تعرف الانصـــــارى ودوره الحقير : كيف

١٩ — وقف فى السوق العام وقامر مع كل من وجــده هناك ؟ وأعـــرف

٢٠ — يا أخى انه لا يصيبك الا ما قدر الله لك

٢١ — أما عن ابوك فانه يقول لك أن الناس والعامة ربما تنام ولكن السيد لا

٢٢ — لا ينام لانه يدعو لك طوال الليل والنهار واذا كنت تعرف المعـــار

٢٣ — فربما أثر فيك عن طريق الخطابات اليك وأنت ترسل لنا خطابات عن وجود

٢٤ — بعض الاعمال التى تشغلك عن كتابة الخطابات وخاصة الخطاب الذى وصلنا

٢٥ — مع ناخوداه السفينة وأرسلت كلام وقلت لسيدك « حينما يصل شبل الدولة »

٢٦ — خذ منه ما أرسلته اليكم وكذلك ما أرسلته « للتجـــار الآخرين » وهو لم

٢٧ — يفرح وكان لذلك تأثير عميق عليه ولقد علمنا أن كل أصحاب المقامات قد وصلوا .

٢٨ — الى ••••••••ولكن اطمئن فان أمك

٢٩ — تسأل عليك وتقول يا ابنى أرجو أن تطمئننى بجواباتك وربنا

٣٠ — يحفظك برعايته وكذلك فان بركات ابن عمتى قد تملك

٣١ — بيته مع بنت عمته ست نسيم . بارك الله لها ولكنك

٣٢ — ستنول الثواب اذا كان هذا يرضى الله ولقد علمنا أنك اشتريت عبدا بارك الله فيه

٣ — ادرس شمائله وعلمه الامانة يمنحك الكثير

٣٤ — ولكن بالله يا أخى فان المسلمين يقتضوا منك الدية أكثر من (١)

٣٥ — حتى يأتى اليوم الذى يطلق فيه ناخوداه السفينة سراح رجل غنى من اصدقاء

٣٦ — السيد وطلب منه دية زيادة لك وأحضر خطابك لنا ولم تكن لدينا أية

٣٧ — أخبار حتى جاء الرجل الغنى — جازاه الله عنا خيرا — الآن عن

٣٨ — قد عزمنا ولا أحد يعرف ماذا نرسل لك مع عودة البريد وأنت فى البعد تستطيع

٣٩ — أن تخبرنا اذا ما كانت الخطابات تصلك (حسنا) فهذا هو حال الناس يا أخى

---

(١) قصد بالدية هنا الاموال التى كان يدفعها التجار اليهود للقراصنة فدية للتاجر اليهودى المأسور فى اعالي البحار وكانت تقدر بـ ٣٣⅓ دينار .

٤٠ — لم يبق شيء نقوله عدا انك لم تخبرنا كيف سيكون الحال بالنسبة لوصية

٤١ — عمك ونحن نود أن نعرف اذا كان أى من الخطابات قد وصلك

٤٢ — ارسل لك تحياتى ولكل من معك وفى حمايتك أرسل لهم التحية

٤٣ — وأبوك يرسل لك التحية وكذلك أمك ترسل لك التحيـــة وكاتب هذا

٤٤ — الخطاب أخوك وعبدك ؛ يوسف المدين لفضلك ؛ كلنا نرسل لك التحية

وكتب فى هامش ظهر الورقة :

وأختك ترسل لك التحية وكذلك عماتك واولاد عمك الشيخ ابو الحسن والشيخ أبو الفرج واولاده يرسلون لك التحية وحماك ابن الياس يرسل لك التحية واننى مسرور بأنك كتبت اليه (بينما كان) فى رحلته ولقد شاء الله أن يصله خطابك وسوف يريح الله بالك ما دمت أرحت باله وبالنا لانه أفلس فهو فى حالة سيئة ويرسل لك التحية الحزان بايان ويوسف المغربى ومنصور وأخوه واولاده خلف والشيخ عطا الله وأبنه والشيخ ابو الحسن يرسل لك التحية والقاضى وزوجته وعبيده يرسلون لك التحية ولقد تزوج ابنه فتوح المصرى ورزق بغلام منها ولقد أرسلنا نستفسر عن الشيخ أبو السرور (رجاء) أن تخبره أن أخيه يوسف الجادد يسأل عن طفل ولد يوم ١٤ فى شهر ...... الرابع عشر من الشهر ليسدد الله لها حاجتها ويحقق لها آمالها .. اكتب ... تذكر ... واحضرهما لنا حالا الله يرضى عنك وتسأل لنا عن أحوال ... (رجاء) أن تخبره ان عائلته بصحة جيدة وان خطاباته وصلت عائلته ولكنا تأسفنا

لما حدث له فليعوض الله العظيم عما فقده ويجعل أموره تسير على ما يرام وأن يعوض عائلته عن كل ما فقده .

وكتب فى آخر ظهر الورقة :

١ — وهنالك موضوع آخر فى اليوم الذى ذهب فيه عمى فى رحلته وودعناه عند القناة أخذنى على جنب وقال لى :

٢ — « أن معها طفل » وانتظرناها تسع شهور لتضع طفلها ولكنها لم تضع ومرة أخرى

٣ — انتظرنا تسع شهور أخرى حتى وضعت ولدا ولقد تعجب

٤ — كل الناس حتى المسلمين وقالوا : اننا لم نسمع فى حياتنا عن عمل مثل عمل

٥ — هذه اليهودية وهى لا تستحق بسبب هذا العمل الا الحرق

٦ — ولقد دافع بعض اليهود ، واليهود البيزنطيين ، مثل منصور ابن موسى ومنصور بن الخبيث

٧ — عن قضيتها وجمعوا حولهم عشرة من اليهود لكى

٨ — يهودوا الطفل ولكن لم يكن هنالك أى ديان أو حزان حاضرا ولذلك لم يقرأوا عليه التباريك اللازمة .

وكتب فى هامش الصفحة الاولى :

وهنالك موضوع آخر بعد أن سمعت أمك بخبر موت عمك — رحمه الله — حزنت جدا من أجلك وبسبب المصاعب التى لحقت بك فى البحر فى المرة الثانية وحين كانت مريضة (بسبب ذلك الامر) لم يدخل فمها طعام ولا شراب حتى وصلها خطابك الكريم وبمجرد أن نظرت الى

خطابك شعرت بالتحسن وبالسعادة (ثانية) ولقد ارحتنا بخطابك هذا أراحك الله يوم الحساب وجعل الحظ والامان حليفك (هذا) ما ندعو لك به دائما • وهنالك موضوع آخر : لقد أحضر يوسف بن الحفصى خطابا (منك) « أوقف أم أبو السرور عن الكتابة ، وادفع لها سعر الحبوب التى وصلت مع القاضى ••• بن الـ •••• وما نتوقعه دون أن تدمع أى شىء جاء اليها » وأنها ليس لها من عمل غير رجائنا باستمرار — وقبل ذلك — قبل موت عمى — أحضرت السيد أمام الديان وقدمت له طلب وفى نفس الوقت الذى ذهب فيه عمى فى الرحلة الاولى — رحمه الله — فلقد وصى السيد أنه اشترى كتان قيمة دينار وخشب وقود وزيت زيتون وانه اشترى لها ذلك واستمر فى اعطائها اشياء حتى اعطاها المهر واعطاها الكتان كمهر ودفع من ثمن الصفقة المهر كله ولذلك لم يتبقى شىء لها وأخذت هى كل شىء وحينئذ احضرته امام الديان وقالت له « نريد منه (أرباح) رحلة زوجى التى أكملها هو » •

وثيقة رقم (٣)

عقد زواج يحيى بن القاضى جوده بن سليمان من الحلوة بنت القاضى اسحق بن يوسف (١)

١ — فى ساعة صفاء تزوج يحيى بن جودة وتم هذا القران فى الليلة الاولى (من الاسبوع) ثامن

٢ — يوم من شهر طوبة ••••

٣ — وهو الابن الاكبر للقاضى جودة بن سليمان

٤ — المعروف بابن الجوا والعروس البكر

٥ — المسماة الحلوة أبنة القاضى أسحاق بن يوسف — فأل حسن —

٦ — المعروف باسم نعمان

٧ — مقدم الصداق ٢٠ والمؤخر ٦٤

٨ — وما شغل للعروسة يصير من حق العريس ولكن ملابسها تكون على حسابه وكذلك مصاغها

٩ — تسلم العريس الشبكة خاتم ذهب

١٠ — رداء — مشبك من الذهب ومشبك معدنى للشعر وشالان من الكشمير

١١ — لؤلؤ واسورة كبيرة من الذهب غير ٣ أزواج من الاساور

١٢ — وخمسة خواتم من الفضة

(١) اخذ نص هذا العقد من كتاب :

Gotteil :

Fragments of the Cairo Genizah, pp. 179 - 183.

١٣ — وخاتم من العقيق ؛ ٤ سلاسل وصناديق من العاج

١٤ — منديل سكندرى محلى بخيوط من الذهب

١٥ — نصف منديل بخيوط ذهب ، نصفان لمنديل سكندرى ، حبرة حرير

١٦ — نقاب هرمزى ارجوانى مع حبرة بها خيوط ذهب ؛ ومنديل به ترتر

١٧ — نقاب هرمزى مع حبرة

١٨ — زوجان من الشباشب ومشدات وطرحة وعصابة وغطاء مصباح

١٩ — نقاب آخر

٢٠ — رداء صوف مغربى وخمسة اثواب صوف أخرى

٢١ — كاملية (رداء) دمشقية زرقاء وكاملية دمشقية خضراء

٢٢ — جبة حمراء وملابس أخرى

وكتب فى ظهر الورقة :

١ — نقاب ابيض بأطراف من الحرير ، حزام حول الصدر بأطراف من حرير

٢ — رداءان داخليان لونهما ابيض ومنديل ابيض

٣ — ٤ أمشاط

٤ — وذهب الى منزل الزوجية ليلة الخميس اليوم الثانى عشر

٥ — من شهر هذه السنة ؛ الشهود الاخرين (بخلاف كاتب العقد) القاضى ناتان

٦ — ومحرر صمويل كرابيس

٧ — ولقد أخذ المحصل حصته على الحاجيات ليحضرها الى والد المعروسة

المصـــادر والمراجع

المصـــادر العربية

(مرتبة ترتيبا أبجديا)

أ — المخطوطـــات

١ — ابن الديبع :

« قرة العيون بأخبار اليمن الميمون »

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٥٨٢١ .

٢ — ابن زولاق (الحسن بن ابراهيم) :

« تاريخ مصر » ؛

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٨١٧ .

٣ — ابن زولاق : [illegible]

« فضائل مصر واخبارها وخواصها » ؛

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٨١٦ .

٤ — ابن سعيد الاندلسى (ابو الحسن على بن موسى) :

« الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط » ؛

(مخطوطة) بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ ح .

٥ — ابن ماجد (شهاب الدين أحمد السعدى) :

« الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » ؛

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢٢٩٢ .

٦ — الخاصكى (أقبجا) :

« أخبار الصين والهند » ؛

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢٢٨١ ٠

٧ — الخاصكى : « التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة»

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢٢٦٥ ٠

٨ — الزمخشرى :

« تاريخ السندباد » ؛

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٣٦٤٥ ٠

٩ — القرشى (ابى المحاسن عبد الباقى) :

« بهجة الزمن فى تاريخ اليمن » ؛

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٥٩٧٧ ٠

١٠ — القيسى : (محمد بن عبد الرحيم) :

« تحفة الالباب » ؛

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢١٦٧ ٠

١١ — الواقــــدى :

« فتوح مصر » ؛

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٦٨٩ ٠

١٢ — بدر الدين محمد بن حاتم :

« السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن » ؛

(مخطوطة) بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٤١١ تاريخ ٠

١٣ — سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبى المظفر يوسف) :

« مرآة الزمان » ؛

(مخطوطة) بالمكتبة الاهلية بباريس ، ج ٦ رقم ١٥٠٥

، ج ١٢ رقم ١٥٠٦

ب — المصادر العربية

١ — ابن الاثير (على بن احمد بن ابى الكرم)

« الكامل فى التاريخ » ؛ ١٢ جزء . القاهرة ١٣٠٣ هـ .

٢ — ابن اياس (ابو البركات محمد بن احمد)

« نشق الازهار فى عجائب الاقطار » ؛

تحقيق لانجلز ؛ باريس ١٨٠٧

٣ — ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد) :

« تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار » ؛

القاهرة ١٣٢٢ — ١٣٢٣ هـ .

٤ — ابن بعرة (منصور الذهبى الكاملى)

« كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية » ؛

تحقيق عبد الرحمن فهمى ؛ القاهرة ١٩٦٦

٥ — ابن تيميه (أحمد الحنبلى) :

« الحسبة فى الاسلام » ؛ القاهرة ١٣١٨ هـ .

٦ — ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) :

« تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » ؛

القاهرة ١٩٦٨

٧ — ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن على)

« أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم »

طبعة جول كربونل بالجزائر ١٣٤٦ هـ .

٨ — ابن حوقل (أبو القاسم احمد النصيبى) :

« صورة الارض » ، ليدن ١٩٣٨

٩ — ابن حوقل : « المسالك والممالك » ليدن ١٨٧٣

١٠ — ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله) — :

« المسالك والممالك » ، ليدن ١٨٨٩

١١ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : —

« مقدمة ابن خلدون » ، القاهرة ١٩٦٦

١٢ — ابن دقماق (ابراهيم بن محمد) :

« الانتصار لواسطة عقد الامصار » ، ج ٤ ، ٥ ، طبعة بولاق ١٣٠٩ — ١٣١٠ هـ ٠

١٣ — ابن سعيد الأندلسى :

« المغرب فى حلى المغرب » ، ج ١ ، نشر زكى حسن وشوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٣

١٤ — ابن شداد (القاضى بهاء الدين) :

« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ،

تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٢ ٠

١٥ — ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن) هـ :

« فتوح مصر » ، نشر هنرى ماسيه ، ليدن ١٩٢٠ ٠

١٦ — ابن مماتى (أسعد بن المهذب)

« قوانين الدواوين » ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ، القاهرة ١٩٤٣

١٧ — ابن ميسر (محمد بن على) :
« تاريخ مصر » ، نشر هنرى ماسيه ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى ،
القاهرة ١٩١٩

١٨ — ابن واصل (جمال الدين محمد) :
« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ،
نشر جمال الدين الشيال ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٦٠

١٩ — أبو شامه (شهاب اله بن ابو محمد) :
« الروضتين فى أخبار الدولتين » ، جزءان ، طبعة بولاق ١٢٨٨ ه

٢٠ — أبو المحاسن (جمال بن يوسف بن تغرى بردى) :
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ،
طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٣

٢١ — أبو مخرمة (أبى محمد عبد الله الطيب) :
« تاريخ ثغر عدن » ، ج ٢ ، ليدن ١٩٣٦

٢٢ — أبو يزيد السيرافى :
« أخبار الصين والهند » ، نشر رينو ، باريس ١٨٤٥

٢٣ — الادريسى (ابو عبد الله محمد) :
« نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، ليدن ١٨٦٦

٢٤ — الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر)
« نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ، تحقيق السيد الباز العرينى ،
القاهرة ١٩٤٦

٢٥ — الاصطخرى (ابو القاسم ابراهيم بن محمد)
« المسالك والممالك » ، ليدن ١٩٢٧

٢٦ — البلوى (عبد الله بن عمير بن محفوظ)

« سيرة ابن طولون » ، نشر محمد كرد على ، دمشق ١٣٥٨ هـ — ١٩٥٩ م .

٢٧ — الثعالبى (أبى منصور عبد الله اسماعيل)

« لطائف المعارف » ، تحقيق ابراهيم الابيارى وحسن الصيرفى ، القاهرة ١٩٦٠

٢٨ — الجاحظ (أبى عثمان عمرو بن بحر)

« البيان والتبين » ، تحقيق جميل جبر ، بيروت ١٩٥٩

٢٩ — الجاحظ : « التبصر بالتجارة » ، تحقيق السيد حسن التونسى ، دمشق ١٩٣٢

٣٠ — الخزرجى (على بن الحسن)

« العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية » تحقيق محمد بسيونى عسل ، ليدن ١٩١٣

٣١ — الدمشقى (أبى الفضل جعفر بن على)

« الاشارة الى محاسن التجارة » ، القاهرة ١٣١٨ هـ .

٣٢ — سليمان التاجر —

« رحلة سليمان التاجر » عن كتاب « جامع التواريخ » ، نشر سوفاجية ، باريس ١٨١١ .

٣٣ — الطبرى (محمد بن جرير) :

« تاريخ الرسل والملوك » نشر دى خوية ، ليدن ١٨٨٢ — ١٨٨٣ .

٣٤ — عمارة اليمنى (المؤيد الحكمى) :

« تاريخ اليمن » ، تحقيق هنرى كاسيل ، لندن ١٨٩٣

٣٥ ــ القلقشندى (شهاب الدين احمد)

« صبح الأعشى فى صناعة الانشاء » ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩١٥ .

٣٦ ــ الماوردى (أبى الحسن على بن محمد) هـ :

« الاحكام السلطانية والولايات الدينية » ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٣٧ ــ المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) :

« مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ .

٣٨ ــ المقدسى :

« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، ليدن ١٩٠٦

٣٩ ــ المقريزى (تقى الدين ابو العباس أحمد بن على) :

« اغاثة الامة بكشف الغمــــة » ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ .

٤٠ ــ المقريزى : « الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك » تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ .

٤١ ــ المقريزى : « السلوك لمعرفة دول الملوك » : نشر محمد مصطفى زيادة ، ج ١ ، ٢ ، طبعة القاهرة ١٩٣٤ ــ ١٩٤١ .

٤٢ ــ المقريزى : « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ/١٩٢٣ م .

٤٣ ــ ناصرى خسرو (علوى الفارسى) :

« سفرنامه » تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ .

٤٤ — الهمدانى (أبى محمد الحسن بن يعقوب) :

« الاكليل من أخبار اليمن » ، الكتاب العاشر ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨ هـ .

٤٥ — الواسعى (عبد الواسع بن يحيى)

« البدر المزيل للحزن فى فضل اليمن » ، القاهرة ١٣٤٥ هـ

٤٦ — الواسعى : « تاريخ اليمن » ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

٤٧ — يحيى بن الحسين (ابن المؤيد اليمنى) :

« أنباء الزمن فى أخبار اليمن » ، تحقيق محمد عبد الله ماضى ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٣٦ .

٤٨ — اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) :

« البلدان » ، ليدن ١٨٩١ .

٤٩ — اليعقوبى : « تاريخ اليعقوبى » ، جزءان ، بيروت ١٩٦٠

جـ — رسائل جامعية (لم تطبع)

١ — حسن أحمد متولى : « عبد العزيز بن مروان وحضارة مصر فى عهده » رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٤٣

٢ — حسن سليمان محمـــــود : الصليحيون فى اليمن وعلاقتهم بالفاطميين فى مصر » رسالة دكتوراه ، القاهرة ١٩٥١ — ١٩٥٢ .

٣ — سامى سلطان سعد : « أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الايطالية من سنة ١١٠٠ الى سـنة ١٤٠٠ م . » رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٥٨ .

٤ — سليمان عطيه : « سياسة المماليك فى البحر الاحمر حتى نهاية عصر السلطان برسباى » ؛ رسالة دكتوراه ؛ القاهرة ١٩٥٩ .

٥ — صلاح الدين الشامى : « التوجيه البحرى للسودان وأثره فى طرق التجارة والمواصلات » ؛ رسالة دكتوراه . القاهرة ١٩٥٦ .

٦ — عطيه أحمد القوصى : « بنو الكنز — دراسة تاريخية »؛ رسالة ماجستير ؛ القاهرة ١٩٧٠ .

٧ — نعيم زكى : « طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى » ؛ رسالة دكتوراه ؛ القاهرة ١٩٦٨ .

د — المراجع العربية

١ — ابراهيم راشد البراوى :

« حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطمين » ؛ القاهرة ١٩٤٨ .

٢ — احمد السيد دراج :

« الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية فى مصر المملوكية » ؛

مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية ؛ القاهرة ١٩٦٦ — ١٩٦٧ .

٣ — أحمد دراج : « الوثائق العربية المحفوظة فى دور الارشيف الاوروبية — (مصر الاسلامية) » ؛

مقال ضمن ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة — مارس — أبريل ١٩٦٩ ؛ الجزء الاول ؛ القاهرة ١٩٧٠ .

٤ — أحمد دراج : « ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الاحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى » ،

مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ١٩٦٨ .

٥ — أحمد دراج : « المماليك والفرنج » ، القاهرة ١٩٦١ .

٦ — أحمد دراج : « عيذاب » ، مقال بمجلة نهضة افريقية ، يوليو — اغسطس ١٩٥٨

٧ — أحمد دراج : « وثائق دير صهيون » ، القاهرة ١٩٦٨ .

٨ — أحمد عيسى:

« القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط » ، مترجم ، القاهرة ١٩٦٠ .

٩ — أحمد فخرى :

« اليمن ، ماضيها وحاضرها » ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٠ — آدم متز :

« الحضارة الاسلامية » ، تعريب محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤١

١١ — السيد الباز العرينى :

« الشرق الاوسط والحروب الصليبية » ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٣ .

١٢ — السيد الباز العرينى : « مصر فى عصر الايوبيين » ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٣ — جورج فاضلو حورانى :

« العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى » ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٠ .

١٤ — حسن ابراهيم حسن :

« الفاطميون فى مصر » ؛ القاهرة ١٩٣٢

١٥ — حسن أحمد محمود :

« حضارة مصر الاسلامية (العصر الطولونى) » ؛ القـــاهرة ١٩٦٠ •

١٦ — حسن عثمان :

« البحر الاحمر كطريق تجارى فى عهد البيزنطيين والعـــرب والمماليك » كتاب رحلة كلية الآداب الى البحر الاحمر ؛ القاهرة ١٩٣٩ •

١٧ — حسنين محمد ربيع :

« النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين » ؛ القاهرة ١٩٦٤

١٨ — حسين فوزى :

« حديث السندباد القديم » ؛ القاهرة (بدون تاريخ) •

١٩ — رونسيمان :

(تاريخ الحروب الصليبية) ؛ ترجمة السيد البـــاز العرينى ؛ جزءان ؛ بيروت ١٩٦٨ •

٢٠ — زامباور :

« معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » ؛ جزءان ؛ ترجمة زكى حسن وحسن محمود ؛ القاهرة ١٩٥١

٢١ — زكى محمد حسن :

« الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ؛ القاهرة ١٩٣٧

٢٢ — ———— : « كنوز الفاطميين » ؛ القاهرة ١٩٣٧

٢٣ — سعيد الافغانى :

« أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام » ، دمشق ١٩٦٠ .

٢٤ — سعيد عبد الفتاح عاشور :

« الحركة الصليبية » ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢٥ — سليمان مصطفى زبيس :

« الملامة عن أحوال القاهرة الاقتصادية وعلاقاتها مع الخارج فى عهد الفاطميين » (عن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . مارس — أبريل ١٩٦٩ ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧١) .

٢٦ — سيدة اسماعيل كاشف :

« أحمد بن طولون » ، القاهرة ١٩٥٢

٢٧ — سيدة كاشف : « مصر فى عصر الاخشيديين » ، القاهرة ١٩٥٠ .

٢٨ — سيدة كاشف : « مصر فى فجر الاسلام من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية » ، القاهرة ١٩٤٥ .

٢٩ — شارل ديل : « البندقية جمهورية ارستقراطية » ، تعريب أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨

٣٠ — الشاطر بصيلى عبد الجليل :

« السلطنة الفنجية الاسلامية فى سودان وادى النيل » ،

مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مجلد ١٨ سنة ١٩٧١

٣١ — الشاطر بصيلى عبد الجليل :

« الكارمية » ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ،

المجلد الثالث عشر ، القاهرة ١٩٦٧

٣٢ — شحاته عيسى ابراهيم : « القاهرة ، تاريخها ونشأتها » ، القاهرة ١٩٥٩ .

٣٣ — صبحى لبيب : « التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى » ، مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٥٢ .

٣٤ — عبد المنعم ماجد :

« نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر » ، جزءان ، القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٥

٣٥ — عطيه مصطفى مشرفة :

« نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين » ، القاهرة ١٩٤٨ .

٣٦ — على بهجت ، البير جبرييل :

« حفريات الفسطاط » ، القاهرة ١٩٢٨

٣٧ — كلود كاهن :

« تجار القاهرة الاجانب فى عهد الفاطميين والايوبيين » (عن ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة ١٩٧١) .

٣٨ — محمد جمال الدين سرور :

« تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق » ، القاهرة ١٩٦٥

٣٩ — ——— : « الدولة الفاطمية فى مصر » ، القاهرة ١٩٦٦

٤٠ — ——— : « سياسة الفاطميين الخارجية » ، القاهرة ١٩٦٧

٤١ — محمد جمال سرور : « النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب » ، القاهرة ١٩٦٤

٤٢ — محمد رمزى : « القاموس الجغرافى » ، القاهرة ١٩٦٣ •

٤٣ — محمد كمال توفيق : « مقدمات العــدوان الصليبى » ، الاسكندرية ١٩٦٦ •

٤٤ — محمد لبيب : « الرحلة الحجازية » ، القاهرة ١٣٢٩ ه •

المراجع الاوروبية

أ ــ الدوريات

1. AESC (Annales Economics, Societies, civilizations), 1947, No. 1:
   — Maurice Lombard:
   « L'or musulman du VII° au XI° siècle ».
2. ARABICA, 7, 1964:
   — Claude Gahen:
   « Douanes et Commerce dans les portes Méditerranéens ».
3. ARABICA, III, 1956:
   — Claude Cahen:
   « Le régime des impôts dans le Fayyum Ayyubide ».
4. ARABICA, 1962:
   — Canard Marius:
   « Bagdad au IVe siècle de l'Hégire ».
5. BEO, (Bulletin d'Etudes Orientales), T. XV, 1955-1958:
   — Claude Cahen:
   « La Chronique des Ayyoubides d'Al Makin B. Al-Amid », Damas, 1958.
6. BEO, T. XVI, 1958-1960:
   — Claude Cahen:
   « El Nabulsi ». لمع القوانين المضية
7. BSOAS, (Bulletin of the School of Oriental and African Studies), V. XVI, 1954, Part II:
   — Goitein, S:
   « Two eyewitness reports of an expidition of the King of Kish Qais) against Aden ».
8. BSOAS, V. XVI, Part 3, 1954:
   — Ehrenkreutz, A.S. « Constribition to the knowledge of the Fiscal administration of Egypt in the Middle Ages ».
9. BZ (Byszantinische Zeitschrift), V. 28, (1928) Leipzig:
   — Bell, H.J.:
   « The administrations of Egypt under the Umayyad Khalifs ».

10. CCM (Cahiers de Civilization Médival), 2, (1959) :
— Aubin Jean :
« La ruine de Siraf et les routes du Golfe Persique aux XI^e^ et XII^e^ Siècles ».

11. CHE, (Cahiers d'Histoire Egyptienne), Le Caire, 1955 :
— Wiet, G :
« Les Marchands d'épices sous les Sultans Mamlouks ».

12. GJ, (Geographical Journal), 127 (1961), London ·
— Tibbetts, G.R. :
« Arab navigation in the Red Sea ».

13. HUCA, (Hebrew Union College Annual), V. 27 (1956) :
— Ashtor, E :
« Saladin and the Jews ».

14. IC (Islamic Culture), V. 37 (1963) :
— Goitein, S :
« Letters and documents on the India Trade in Medieval Times ».

15. JA (Journal Asiatique), 236 (1948) Paris,
— Sauvaget, J :
« Instructions Nautiques Arabes pour les mers de l'Inde ».

16. JAOS (Journal of the American Oriental Society, 75, (1955) New Havan,
— Ehrenkreutz, A.S. :
« The place of Saladin in the Naval History of the Mediterranean Sea in the Middle Ages ».

17. JAOS, 76 (1956) :
— Ehrenkreutz, A.S. :
« The Crsis of Dinar in Egypt of Saladin ».

18. JESHO (Journal of the Economic and Social History of the Orient) V.I., (1958) :
— Fischel, W :
« The Spice Trade in Mamluk Egypt. »

19. JESHO, V. II, (1959), Part 2 :
— Ehrenkreutz, A.S. :

« Studies of the monetary history of the Near East in the Middle Ages ».

20. JESHO, V. III, (1960), Part I,
    — Ashtor, E :
    « Le coût de la vie dans l'Egypte Médievale ».
21. JESHO, V. VI, (1963), Part I,
    — Ehrenkreutz, A.S. :
    « The Standard of fineness of Western and Eastern Dinars before the Crusaders ».
22. JESHO, (V. VI, (1963), Part I,
    — Ashtor, E :
    « Matériaux pour l'histoire des prix dans l'Egypte médieval ».
23. JESHO, V. VI, (1963), Part I,
    Goitein, S :
    « Evidence on the Muslim Poll tax from non-muslim sources A Geniza Study ».
24. JESHO, V. VII, (1964), Part II,
    — Ehrenkreutz, A.S. :
    « Byzantine Tetartera and Islamic Dinars ».
25. JESHO, V. VII, 1964, Part II,
    — Ehrenkreutz, A.S. :
    « Arabic Dinars struck by the Crusaders ».
26. JESHO, V. VIII, 1965,
    — Goitein, S :
    « The exchange of gold and silver money in Fatimid and Ayyubid times ».
27. JESHO, V. IX, 1966,
    — Goitein, S :
    «Bankers accounts from the eleventh Century A.D. ».
28. JMB (Journal of the Malaysian Branch, Royal Asiatic Society), V. 37, 1964, Part I,
    — Lamb, A :
    « A visit to Siraf, an ancient port on the persian Gulf ».
29. JPUHS (Journal of the Pakistan Historical Society), V.I., 1963, Part I,

— Navdi Rashid :
« Industry and Commerce under the Abbassids ».
30. JRAS, (Journal of the Royal Asiatic Society), April, 1956,
— Ashtor, E :
« The Karimi Merchants ».
31. JRAS, I, II, 1958,
— Goitein, S :
«New ligts on the beginning of the Karim Merchants ».
32. MW (The Muslim World), V. III, No. 2, April, 1962,
— De Somogyi, J : De Somogyi :
« Trade in the Quran and Hadith ».
33. MW, V. LV, No. I, April, 1965,
— De Somogyi :
« Trade in classical Arabic Literature ».
34 RFSEUI (Revue de la Faculté des Sciences Economic Université d'Istanbul), V. II, 1949-1950, Istanbul,
35. Lewis, B :
« The Fatimids and the Route to India ».
36. SI (Studia Islamica), V. III, 1955,
— Goitein, S :
« The Cairo Geniza as a source for the history of muslim Civilization ».
37. SNR (Sudan Notes and Records), V. XXVI, Part II, (1945),
— Newbold :
« The Crusaders in the Red Sea and the Sudan ».
38. SNR, V. XXXVI, 1955,
— Paul, A :
« Aidhab, A medieval Red Sea Port ».
39. SPECULUM, V. XXVIII, April 1953, No. 2.
— George, R. Monks :
« The Church of Alexandria and the city's economic life in the Sixth Century ».
40. SPECULUM, V. XXIX, April 1954, No. 2, Part I,
— Goitein, S :
« From the Mediterranean to India, Documents on the trade to India, South Arabia and East Africa, from the Eleventh and Twelfth Centuries ».

ب — الكتب

1. ASHTOR ELIYAHU :
«Histoire des prix et des salaires dans l'Orient Médieval », Paris, 1969.
2. ATTIYA, A.S. :
« Crusade, Commerce and Culture », London, 1962.
3. AVENEL GEORGES :
«Histoire économique de la propriété des salaires des denrées et de tous les prix en général depuis l'an 1200 jusqu'à l'an 1800 »; Paris, 1894.
4. CERULLI, E :
« Somalia », I, Rome, 1957.
5. CLERGET MARCEL :
« Le Caire, étude géographic urbaine et d'histoire économique », T. I, I, Le Caire, 1934.
6. COSMAS INDICOPLEUSTES :
« The Christian Topography », London, 1909.
7. COUPLAND, R :
« East Africa and its Invaders », Oxford, 1956.
8. DARRAG AHMED :
« L'Egypte sous le règne de Barsbay », Damas, 1961.
9. De GAURY GEROLD :
« Rulers of Mecca », London, 1951.
10. EVETTS, B :
« History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria », Paris, 1904.
11. FAHMY ALY MOHAMED :
« Muslim Sea-power in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century A.D. », London, 1950.
12. FISHCEL WALTER :
« Jews in the economic and political life of Medieval Islam », London, 1937.
13. FREEMAN-GRENVILLE :
« The East African Coast », Oxford, 1962.
14. GOITEIN, S.D. :

« Jews and Arabs, their contacts through the Agas », New York, 1955.

15. GOITEIN. S.D. :
« A Tentative bibliography of Geniza Documents », Paris, 1964.

16. GOITEIN, S.D. :
« Studies in Islamic History and Institutions », Leiden, 1966.

17. GOITEIN, S.D. :
« A Medterranean Society of the High Middle Ages », New York, 1967.

18. GOTTHEIL, R. & WARRELL, W :
« Fragments from the Cairo Genizah in the Freer Collection », London, 1927.

19. HEYD, W :
« Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age », T. II, Leipzig, 1923.

20. KAMMERER ALBERT :
« La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie depuis l'antiquité », T. I, Le Caire, 1929.

21. KAMMERER, A :
« La Mer Rouge à travers les âges », Paris, 1925.

22. LOEFGREN, O :
« Arabische Texte zur Kanntuis der Stadt Aden in Mittelater »' T. I, II, Leiden, 1936.

23. LOPEZ, R.S. & RAYMOND, I :
« Medieval trade in the Mediterranean World », London, 1955.

24. LOPEZ, R.S. :
« The role of trade in the economic readjustment of Byzantium in the Seventh Century, » Washington, 1959.

25. MANN, J :
« The Jews in Egypt and Palastine under the Fatimid Caliphs », 2 Vols' Oxford, 1920-1922.

26. MASPERO, J. & WIET, G :
« Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte », (Mémoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, T. XXXVI, Le Caire, 1919).

27. PIRENNE HENRI :
« Histoire économique de l'occident Medieval », Paris, 1951.

28. PIRENNE, H :
« Histoire économic et Social du Moyen Age », Paris, 1969.
29. PIRENNE, H :
« Mahomet et Charlemagne », Paris, 1970.
30. PIRENNE, H :
« Les Villes du Moyen Age », Paris, 1971.
31. QUATREMERE :
« Mémoires Geographiques et Historiques sur l'Egypte », T. I, II, Paris, 1811.
32. REDHOUSE, J. W. :
« El-Khazraji's history of the Resuli Dynasty of Yemen », Leyden, 1906-1908.
33. REINAUD, M :
« Relation des Voyages », T. I, II, Paris, 1845.
34. Reusch, R :
« History of East Africa, Stuttgart, 1954.
35. RUSHBROOKE, E :
« Western Arabia and the Red Sea, Oxford, 1946.
36. SCHOFF, W :
The Periplus of the Erythrean Sea », London, 1912.
37. SIR JOHN GRAY :
« History of Zanzibar », London, 1962.
38. WIET, G :
« Al Yaqubi, Les pays », Le Caire, 1937.
39. ZAKY, M. HASSAN :
« Les Tulunides, étude de l'Egypte Musulmane à la fin du IXe Siècle, 868-905 », Paris, 1933.

تم بحمـــد الله تعـــالى

فهرست الموضوعات

تصـــــويبات

الصفحة	السطر	الصيغة المراد اثباتها
٢٥	حاشية(٦)	هناك رواية سواحيلية مشهورة تحدثت عن اقامة اول امارة اسلامية فى شرق افريقية على يد اهالى الشام فى عهد الخليفــة عبد الملك ابن مروان
٤١	١٢	امير المؤمنين
٤٣	١١	والمشـــايخ
٥١	٤	ملبـــار
٦٠	٢	للتجـــار
٨١	٨	عليهـــا
٩٨	١٦	الهنـــد
١١٤	٣	نفـــوذه
١١٧	٨	وتحقيقـــا
١١٩	٥	المنـــوحة
١٢١	١٦	عن الاعتداء على بعض
١٢٥	٤	الصليحية
١٢٥	١٢	عـــدن
١٢٦	٤	ثروات
١٥٥	١٦	البـــالغ
١٦٣	١٠	المنـــبر
١٧١	٣	ثراء
١٧٢	١٥	يهـــودا
١٧٢	هامش(٣)	Goitein
١٧٤	٦	انتهى
١٧٤	هامش(١)	Wiet
١٧٥	٩	مصـــالحه
١٧٧	٣	يســـود
١٩٢	٢	خاصـــة
١٩٣	١٨	اليحصبى
٢٠٠	هامش(٤)	Ashtor
٢٠١	٩	النجـــارين
٢٠٤	١٢	وتغيـــير
٢٠٦	١٨	محليـــا
٢٠٧	٣	سرنديب
٢٠٩	٩	وراء
٢٢١	هامش(٢)	المتمم سنة ٥٤١ هـ
٢٤٧	٦	نجـــد
٢٤٨	١٠	مثيلتهـــا